رواية

نسف الأدمغة

خيري شلبي

دار الشروق

رواية

نسف الأدمغة

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠٠٧
الطبعة الثانيـة ٢٠٠٧
الطبعة الثالثـة ٢٠٠٨
الطبعة الرابعة ٢٠١٠

رقم الإيداع ٢٦١٩/ ٢٠٠٧
ISBN 977-09-1954-3

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧(٢٠٢) +
email: dar@shorouk. com
www. shorouk. com

رواية

نسف الأدمغة

خيري شلبي

دار الشروق

إهداء

إلى أسامة أنور عكاشة . .

أحد أبناء عمومتى فى محافظة كفر الشيخ . .

حقيقة لا مجازا .

خيرى



١
رءوس فى النعال

يتدهور ضوء القمر فوق الشواهد المرتفعة، يتفتت، يصير مسحوقا فضيا تشوبه ظلال كأكسدة الفضة فى أشكال شبحية متكسرة بين ممرات المقابر، تعكس خيالات لنباتات الصبار والحسك والحلفاء وبقايا ورود ذابلة صارت أعوادها حطبًا. كنا - الخفير وهدان وأنا - قد أنهينا سهرتنا الحميمة فى الحوش الذى أنتجعه - ويا للعجب - للكتابة والقراءة والتأمل، على تخوم الهضبة السفلى لجبل المقطم عند أشد مداخلها وعورة وخطرا. كان علينا أن نخترق سراديب المقابر الباركة على الأرض كدواب نافقة تتخللها أحواش، شكل البيوت معظمها بلا سقف إلا حجرة الدفن وحدها. . بدا كأن الكون كله قد مات، ولم يبق فوق هذه الهضاب العالية سواى والخفير وهدان وطوائف من كلاب تهر، تمرح، تتهارش بحيوية مشتعلة. غايتنا عندئذ الوصول إلى ورشة صديقى السمكرى الأسطى «حسين قشطه» الذى اقتطع جزءًا من حوش عائلته المدفون فيه أبوه الطربى الشهير أحاله إلى ورشة فى سفح طريق صلاح سالم. . سأركب سيارتى المركونة فى عهدته ثم أودع الخفير وهدان إلى لقاء مماثل فى الغد؛ يذهب كل منا إلى حال سبيله. .

القمر كان مربدّ الوجه عكر الملامح؛ الطريق بينه والأرض مسدود تماما؛ من صبيحة ربنا إلى غياب الشمس تقوم الجرافات والكاسحات

مع الحفارات بتفجير كل صلابة تعترضها فى الأرض إذ إنها تشق طريق «أوتوستراد» من مطار القاهرة إلى حلوان مخترقا مقابر المجاورين والغفير والإمام الشافعى والأباجية والهضبة السفلى للمقطم. . سُحب الغبار الكثيف الأسود المرطب تتراكم طبقات فوق طبقات، تحجب الضوء والهواء والسماء لوقت طويل، يسبب العناء الشديد لضوء القمر فى الليالى القمرية، فلا تنفك خنقة القمر إلا قُرب منتصف الليل. أقدام العمال والفواعلية تركت فوق هديم المقابر مدقات صاعدة هابطة متلولبة؛ كان حزن الخفير وهدان أشد عكارة من حزن القمر، أشد هوانًا من هذه الرفات والعظام التى ألقى بها فوق كثبان متكومة كالتلال على ضفتى الشريحة المختطة للطريق لاينى وابور الدك يراجعها كل يوم تمهيدًا لرصفها فيما بعد؛ الأقدام العشوائية العمياء تدوس فوق هذه التلال فى تنقلاتها المستمرة على الجانبين، تكتسح فى خطوها ما يصادفها من رفات فتبعثرها فى كل اتجاه أو تغيبها فى التراب. . على مدى عدة سهرات وعصريات كثيرة حاولت - أنا المستاء حد العذاب - التخفيف من ضغط الغضب الذى يكاد يعصف بأعصاب عم وهدان وهو، من شرفة الحوش التى نجلس فيها، يرقب هذا الهوان البشع الذى يحدث لعباد الله الذين كانوا راقدين فى حماية داره الآخرة وبين يديه سبحانه، فكيف يجرؤ هؤلاء الجبابرة الغلاظ القلوب على انتهاك حرمة الدار الآخرة ودهس الرفات بالمحاريث والجرافات والكاسحات ؟! قلت له كلمات كبيرة كثيرة عن المصلحة الوطنية العامة وعن ضرورة التضحية بأشياء غالية فى سبيل تسهيل حركة المرور فى الحياة؛ ولكن لأننى فى الأصل غير مقتنع تماما بما أقول، كانت كلماتى تخبط فى جبهة عم وهدان تحت عمامته الصعيدية المفلطحة ثم ترتد إلى رأسى

ساخرة مما أقول ثم تقع على الأرض ميتة؛ إلا أننى كنت متزعجا من التطرف فى حزنه، أخشى من غضبه أن يشتبك مع العاملين فى عركة تؤدى إلى إزالتنا من هذا المكان، فانبريت مستطردا فى كلام فارغ من قبيل أن أصحاب هذه المقابر أخذوا من الحكومة تعويضات ومساحات من الأرض فى القطامية ينقلون فيها رفات ذويهم أما أصحاب هذه المقابر التى يجرى الآن دهسها فإن معظمهم قد انقرض نسله من الوجود، وبعضهم هاجر إلى بلاد بعيدة وأهمل رفات ذويه وتجنس بجنسيات أخرى أسخطته على الوطن؛ هذا ما كان قد حكاه لى أحد كبار مهندسى الحى المسئولين عن هذه المنطقة؛ فما يزداد الخفير وهدان إلا سخطا، لاينى يسب ديك الكفرة ويبشرنا جميعا بعذاب يوم جهنمى آت لا محالة عن قريب. .

أثناء سيرنا قلت له على سبيل المزاح:

- «أنت تحمد ربنا يا ريس وهدان على أن مقبرة أهلك فى الصعيد وليست هنا!».

لوهلة خاطفة شعرت بأن ظله قد اختفى من جوارى؛ فى الحال صحت فى فزع:

- «ريس وهدان!».

تلفت حوالىّ؛ رأيته قد رفع ذيل جلبابه وانزوى فى جدار متهدم ليفك حصرة البول. . ثم إذا به يطلق صرخة رعب زلزلتنى نفضتنى فوق الأرض. . ارتدَّ متقهقرا بظهره يترنح سائبا. أدركته قبل أن يتهاوى مغشيًا عليه. . صار يولول كالثكلى، يحاول إحكام السروال حول خصره من خلال فتحتى جلبابه الجانبيتين. .

- «مالك يا رجل؟ شفت عفريتا؟!».

ولول من حلق جاف:
- «العظم يدافع عن نفسه يا بوى!».
- «كيف؟!».
واقشعر بدنى بعنف..
- «الجمجمة يا بوى! ألم تسمع صوتها؟!».
- «صوت الجمجمة؟!».
- «كنت تمشى على أذنيك يا بو العم؟».

فعلا أنا سمعت صوت طرطشة زاعقة كصوت تساقط الثلج فوق لوح من الصفيح؛ بل يخيل لى أننى لا أزال أسمع طنين صرخة كصوصوة طفل رضيع مصاحب لصوت الطرطشة؛ اعترفت بهذا لوهدان؛ فاسترد أنفاسه:

- «أنا يابو العم يادوبك سبت الطرطور يجرى على التراب فصرخت الجمجمة من تحت التراب وكشفت وجهها وردت طرطورى على وجهى ولباسى!.. اللهم اغفر لى! سامحنى! سامحينى يا جمجمة يا أختى!».

كان قوس الجمجمة قد ظهر فى ناظرى بوضوح وخطوط البول تتحدر فوق نتوء الخدين سائلة بالتراب.. بدنى يقشعر، سحبت وهدان، تأبطته، مشينا؛ لكنه فلفص منى ملوحا بذراعه فى حركة استعبار أسيفة؛ ارتكن بمؤخرته على شاهد ضخم، جعل يشعل سيجارة بيدين مرتعشتين، ركبه سابت، أرعشتنى؛ قال: - «ياترى جمجمة من هذه يا بو العم؟!».

- «الله أعلم يا عم وهدان!».

- «قلبى يوجعنى يا بو العم!.. ربما أكون تبولت فوق جمجمة وزير

أو كبير من الكبراء فى زمنه! . . لعله من عائلة ذات خرابيش طائلة! . . كل هذا طظ فيه يابو العم! . . إنما قلبى يوجعنى لأننى عدم المؤاخذة يارب تبولت فوق رأس بنى آدم مثلى خلقة ربنا! . . منهم لله من كانوا السبب!».

سحبته؛ مشينا. . كارثة تلتف حول قدمى اليسرى عند رقبتها؛ لمحت فى الضوء القمرى الشاحب ظلا متلولبا من لونها الأسود القاتم؛ ظننتها إحدى الأفاعى المفترسة المتغذية على اللحم البشرى المعلوف؛ ثمة كرة صلبة تضربنى فى كاحلى القدمين مع كل خطوة. . صرخت بدورى شاعراً بأن الكوبرا الفرعونية السامة ساكنة الجبال قد لدغتنى بالفعل وأننى بعد ثوان معدودة سأخرج من الحياة وقد أدفن فى مطرحى. . من حلاوة الروح رحت أنتفض محاولاً تخليص قدمى من الالتفاف القابض عليها بإحكام؛ فإذا بالكرة الصلبة تصفعنى فى أنحاء متفرقة من جسدى. . عندئذ صرخ الخفير وهدان صرخة تفيض بالسخرية مخلوطة بالفجيعة:

ـ «حيلك حيلك يا بو العم! . . وحِّد ربك واستغفره!».

ثم أقعى تحت قدمى، راح يفك عنها جدائل الشعر؛ كانت جمجمة لسيدة لاتزال تحتفظ بجدائل شعرها الذى لابد أنه كان واصلا إلى أسفل ظهرها. لا أدرى كيف علق الشعر بقدمى ولا كيف التف حولها بشكل عشوائى وكأنه مقصود لدرجة أننى اضطررت إلى رفع قدمى عن الأرض متساندا على كتفى وهدان إلى أن خلص قدمى من جدائل الشعر؛ بيد مرتعشة أمسك بالجمجمة المحندقة؛ جعل يلف الشعر فوقها؛ فى كومة تراب دفنها. .

تملكنى الرعب تماما؛ وسعت من خطواتى إلى حدّ الهرولة؛ فشدنى وهدان من ذراعى:

ـ «لا يا بو العم! إياك والمشى بسرعة بين المقابر بالذات! . . تكون مجنونا فعلا إذا جريت فى القرافة! . .

سيجرى وراءك الرعب وتلاحقك الأشباح! . . استهدى بالله وامشى بالراحة! . . تذكر يابو العم أنك تمشى فوق جثث مطحونة!».

ثم ارتد للوراء خطوتين فى فزعة مفاجئة؛ أمسك بطرف جلبابه ونفضه بقوة؛ وقع من بين طيات الجلباب عقرب غليظ، صار يتخبط على الأرض فداسه بقدمه مغمغما:

ـ «كان يسكن فى قعر الجمجمة! الحمد لله أن كشفه لى!».

مشى أمامى متجنبا النظر فى الأرض؛ بعد برهة التفت يمسح شاربه الكثيف ويسألنى عن نكتة جديدة أكون سمعتها مؤخرا فأرويها له حتى وإن كانت عن الصعايدة؟!.

٢
الشُرفة

فى الشرفة الخلفية لغرفة المعيشة فى الطابق الثانى للحوش الذى أنتجعه جلست متأهبا لاستقبال فترة الأصيل الخصيبة حيث يمتطى قرص الشمس زورقه القرمزى ليبحر به فى الأفق الغربى.

قام وهدان بوضع الترابيزة لصق جدار الشرفة؛ نظف سطحها بطرف جلبابه؛ وضع كرسيا فى الجانب المقابل ليجلس عليه حيث يتولى أمر الشيشة والشاى والقهوة؛ يتركنى أستغرق فى الصمت لساعات طويلة، يتفنن فى عدم إزعاجى ولو بصوت تنفسه؛ إنما الخلوة مع نفس ثانية رفيقة وأليفة لابد أن تقص شريط الزمن إلى شرائح بين التوحد والتلاقى، بين الحوار الصامت المشفر وتبادل الحديث بائتناس الصوت بالصوت، سيما والنفسين الصوتين كلاهما مثقوب تحت عين الآخر، مكشوف لبصيرته مخلوط بمشاعره، يفهمنى الخفير وهدان جيداً فيلبى طلباتى قبل أن أفوه بها، وأفهمه حق الفهم فأتجنب أى فعل أو قول يعطيه الإحساس بأنه خادم لى، نجحنا فى أن نكون أخوين متحابين، خاصة وقد تأكد لى أنه رجل نبيل وأن عمله الأصلى كلحَّاد قد ملأه بالحكمة والاستعبار..

فى ذلك اليوم كان الجو ينذر بالكآبة منذ لحظة قدومى؛ الخفير وهدان جهز القعدة بلهوجة واضحة؛ لم يكن منبسط الوجه كالعادة، بل كان يعلوه شىء من الكدر؛ ثم ما لبث حتى اختفى. بعد قليل من

الوقت رفعت رأسي عقب انحناءة طويلة بين صفحات كتاب [الإشارات الإلهية] لأبى حيان التوحيدى الذى هو عبارة عن محاورات شائقة داخل نفس صوفية بين النفس اللوامة والنفس الأمارة بالسوء؛ انطرحت نظراتى عبر جدار الشرفة طائرة فوق شواهد وقباب وهضاب مهيضة فى لون الدخان . . على مرمى حجر من الشرفة كانت مقبرة قد تم فتحها، أزيلت عنها الرمال ورفعت المجاديل وظهرت الدرجات الحجرية الضيقة الهابطة إلى أرض الفسقية، العمال الواقفون حولها من صبيان الطربى المسئول عن الحوش الذى يستضيفنى وعن كل هذه القطعان من المقابر المتاخمة له؛ الخفير وهدان كان معهم باعتباره اللحاد ومن صبيان ذلك الطربى المهيب عيد أبو القاسم، وإذن فإن الشغل هو الذى شغل عنى رفيقى وهدان حيث أعرف أنه ليس يشعر بالأهمية وبالوجود حقا إلا فى تلك اللحظة التى يؤدى فيها أعظم واجب فى الحياة: ترقيد الميت فى نومته الأخيرة؛ وقد اكتسب سمعة عطرة فى شغله، إذ يشاع عنه فى القرافة أن يديه مثل الحرير تحنوان على الجثمان حين تتلقيانه من داخل الفسقية لتسجياه فى رقدته الأبدية فيما شفتاه ترشان عليه صنوف الأدعية والتعاويذ والآيات القرآنية، ليس يقبض على ذلك مرتبا من صاحب الشغل وإن تلقى الهبات من أهل الميت؛ لكن بما أنه من أقدم وأخلص وأهم صبيان المعلم عيد أبو القاسم فقد أباح له أن يسكن وعياله فى بيت صغير، بناه المعلم الأكبر جد المعلم عيد بغرض خبيث ليدارى به مبنى هذا الحوش الذى أجلس فى شرفته؛ منها يحرس المقابر المنتشرة فى العراء من اللصوص والأفاقين الهاربين من الحكومة ويبعدهم عن حرمة هذا الحوش الشبيه بالقصر المنيف وبستانه الكبير، ومنها لحَّاد تحت الطلب لتشهيل العمل . .

ظهر المعلم عيد أبو القاسم، عملاق فرعونى قريب الشبه بالرئيس

أنور السادات حين يرتدى الجلباب ويمسك بالعصا الأبنوس والمسبحة اليسر، وجهه كأنه منحوت من الحجر البازلت إلا أن الدم العفى يبث فى بشرته حيوية وحرارة. خف إليه الصبيان يستقبلونه؛ من بعيد ظهر غطاء النعش سابحا فى الفضاء ببطء واضطراب كأن الريح تتلاعب بالنعش فينكفىء إلى الأمام تارة ويكاد ينزلق من الخلف تارة أخرى، ثم ما لبث حتى ظهر بكامله محمولاً على أكتاف الرجال، وقد تبعثرت جموع المرافقين له كمياه تدفقت فجأة بصورة عشوائية تعترضها الشواهد والقباب تصنع بركًا من جماعات متهالكة. من الواضح أن الميت واحد من علية القوم وإن كان قبره فى العراء بغير حوش أو تحويطة؛ سيارات كثيرة راكنة فى ممرات بعيدة تلمع أسقفها وفوانيسها فى وهج شمس الأصيل؛ نساء كثيرات جميلات بملابس فخمة برغم وحدة اللون الأسود؛ امتلأ الفضاء بسيمفونية حوشية الحزن والولولة والبكاء المتقطع المكتوم المقهور؛ زوبعة عاصفة ما إن بدأت حتى شارفت ذروة النهاية؛ ثم بدأ الزحام يخف والجو يروق شيئا فشيئا إلى أن سحبت الشمس قميص نومها القرمزى، فراحت أطرافه تهفهف على تخوم الأفق البعيد؛ كان صوت أذان المغرب على مئذنة جامع قايتباى يستحث العمال على سرعة الانتهاء من تسوية التراب فوق المجاديل ورشِّه بالماء ليهمد ويستقر، ليدركوا صلاة المغرب قبل أن يركع الإمام..

فجأة أطبق السكون إلا من بقايا طنين آلات الحفر والكسح والدك فى الخلفية البعيدة فى مشروع طريق الأوتوستراد، حتى هذا الطنين مالبث أن كف تماما. شعرت بوحشة رطبة مقبضة؛ أضأت نور الشرفة، خلصت بقايا الجمرات فى الوجاق من الرماد؛ دلقت فوق الرماد الساخن قبضتين من الفحم الناعم وضعت فوقه بعض الجمرات

وجهزت بالأخرى حجرا على الشيشة؛ جعلت أدخن فى سأم وقلة مزاج؛ هذه بوادر الكآبة تزحف على صدرى؛ شخصت فى ناظرى صورة وسط المدينة حيث مجتمع النميمة والصراعات الرخيصة وانهيار القيم والعلاقات الإنسانية؛ وكنت أشعر بأن هذه الصورة الكلية المتخمة بما لا حصر له من التجارب المريرة إنما قد دفعها عقلى الباطن كحقنة تعالج السأم والملل من هذه التجربة الجديدة التى أخوضها الآن هربا من المجتمع الملوث بالأحقاد والسموم المعطلة عن الإبداع؛ أما وقد اكتشفت فى عشرة الموتى راحة نفسية وهدوءاً مطلقا ساعدانى على القراءة والكتابة بعمق وتركيز فإننى يجب أن أحتمل فى هذه التجربة ما قد ألقاه فيها من بعض منغصات لا مفر منها فى أية تجربة . . هكذا قالت نفسى لنفسى؛ فإذا بالنور ينقطع فجأة . .

الظلام الدامس خفاش خرافى طوانى بين جناحيه فجمدنى، راح عقلى يحاول القيام من كبوته لعله يتذكر أين توضع الشمعة وأين يكون الكبريت وكيف الطريق إليهما فى مطبخ فى نهاية ردهة طويلة ملآنة بالمقاعد الثقيلة الأثرية وطقاطيق عليها تحف وأصص وفازات ومراوح؛ لكن جميع الخرائط انطمست فى ذهنى؛ صار ذهنى مثل كلكيعة مخروطة من جسد الظلام الحالك . . خُيل لى أن الأشباح بدأت تحيط بى من كل ناحية؛ زحفتُ بجنبى متشبثا بحافة جدار الشرفة حتى صرت فى الزاوية المطلة على باحة رحبة بين دائرة من الأضرحة العتيقة المهيبة يسمونها ميدان سيدى البرعى ويقيمون فيها احتفالا بمولده كل عام إذ هو مدفون فى واحد من هذه الأضرحة ذات الطراز المملوكى. انحنيت فوق سور الشرفة مدليا رأسى إلى أسفل فى اتجاه الباب الخلفى للحوش المموه ببيت الخفير؛ بصوت مضطرب ناديت على أم محمود زوج الخفير؛ كررت النداء عدة مرات كل مرة أعلى صوتا من سابقتها

بعصبية متصاعدة. . أخيرا استطعت تمييز شبح أم محمود بجلبابها الأسود وطرحتها السوداء ووجهها المسودّ. . قالت بصوتها الخافت بلكنة صعيدية عتيقة:

ـ «الشمعات فى درج النملية!. . سامعنى يا أستاذ؟

ما تخاف من الظلام فالحوش باسم الله الرحمن الرحيم طاهر فيه قرآن فلا تسكنه العفاريت!. . خُش المطبخ بقلب جامد ستجد الكبريت فوق طارة الوابور والشمعة فى درج النملية الفوقانى!».

ـ «أين راح الريس وهدان!».

ـ «حالاً يجىء!. . المعلم عيد بعثه فى مشوار قريب!».

قررت أن أغتال شبح الخوف ما دمت أنوى الاستمرار فى هذه التجربة الصعبة؛ وما دمت أومن بحكمة الريس وهدان من أنه لا عفريت إلا بنى آدم، فلأكن مثله جريئا فى اقتحام الظلمة طالما أنها فى المحيط الآمن الذى أعرفه. . تحسست الطريق إلى المنضدة؛ نظرت فى فراغ باب الشرفة: الظلام فى الداخل، جدار من البازلت الأسود القاتم يستحيل اختراقه ولا كهرباء السد العالى كلها تقوى على شقه؛ لكنه سرعان ما انشق فى لمح البصر؛ عاد التيار الكهربى إلى لمبتى الشرفة والصالة؛ أضيئت أسطح الأحواش بنور خافت آت من وصلة خاصة بحراس المعدات العاملة فى شق طريق الأوتوستراد. . جلست إلى المنضدة، أضأت (الأباجورة)، شرعت أقرأ فى كتاب [الإشارات الإلهية] لأستكشف من خلال استمتاعى به كيف يمكن الارتفاع بمستوى أسلوبى عند الكتابة بحيث تكون كل مفردة فيه ـ كما عند أبى حيان ـ مشحونة بقبس من شعور إنسانى غير معطوب ولا مكذوب. .

من خصاص حديد الشرفة رأيت وهدان مقتربا؛ كان يبدو عليه الإرهاق بصورة جعلتنى لا أتعشم الليلة فى سهرة جيدة، طالما هو يكاد

يتهاوى من فرط التعب. دون أن أسأله رفع رأسه نحوى قائلا إنه رافق المعلم عيد أبو القاسم إلى نيابة الجمالية لتقديم شكوى ضد هؤلاء العاملين فى شق الطريق حيث اتهمهم المعلم عيد بأنهم لا يراعون حرمة الموتى فالبلدوزر يغرس محاريثه فى التربة يغترف العظام النائمة فى حضن ربها ثم يبعثرها على جانبى الطريق بغير رحمة ولا إنسانية.. تزايد انفعاله كأنه ما زال يتكلم أمام النيابة هاتفا فى احتجاج وتوتر:

- «هذه العظام المسكينة ما ذنبها بحق الله يا مسلمين؟! ما مصيرها؟! هل نرتكب المعصية مرتين: مرة بقلقلتها وتشريدها ومرة بالدوس فوقها بالأحذية؟! هل هذا يرضى الله يا مسلمين؟! ماذا يفعل أهالى هذه العظام الذين لم يعلموا بما حدث لعظامهم حينما يجيئون فى العيد القادم لزيارتها؟! أعطنى عقلك يا سعادة البيه ضع نفسك فى مطرحى أو مطرح من يجىء ليجمع فتات أهله من تراب مدهوس؟! والله والله وثلاثة بالله العلى العظيم إنها علامات الساعة!! أقطع ذراعى إن ما كانت القيامة قامت من ورائنا وهذه البلدوزرات ووابورات الدك هى عرصات جهنم التى ألقى بنا فيها لأننا نستأهلها!! هؤلاء الأفندية الذين يخططون ويأمرون بالكسح والدك هم زبانية الجحيم الذين يتحدث عنهم المشايخ فى دروس الوعظ!!» استدركته قبل أن يستطرد:
- «المهم ماذا فعلتما فى نيابة الجمالية؟!» - «وماذا ترانا سنفعل؟! من زبانية إلى زبانية ياقلب لا تحزن بل احرق نفسك واسترح!.. هأو!.. قالوا لنا وما شأنكم.. على كل حال ليس وقته!.. سأطفح لقمة وأحصلك!».

اختفى تحت سقف الشرفة برهة ثم ظهر شبحه الأسود بازغا من تحت ظلها فى فرشة الضوء العليل الصادر منها، صاح:

ـ «أستاذ! أم محمود طبخت بصارة! أجيب لك طبق؟».

ـ «شكرا ياعم وهدان ألف شكر!».

ـ «بصارة أم محمود تدعو للقتال!».

ـ «أحبها ولكن أكلها فى الليل خطر علىّ!».

ـ «ولا خطر ولا يحزنون!».

اختفى مرة أخرى.. بعد مرور ما يقرب من عشر دقائق سمعت خطوات طلوعه السلم؛ ثم ظهر فى الردهة حاملا سبتًا من الخوص الفيومى أشبه بطبق كبير مفلطح؛ وضعه فوق المنضدة؛ رائحة البصارة الشهية تفوح من طبقين تتناثر فوقهما التقلية، عدة أرغفة من الخبز البلدى المخبوز فى فرن طينى داخل مسكن عم وهدان خلف مدخل الحوش مباشرة. أكلت بشهية فائقة.. تكفلت الأنفاس الساخنة المعبأة بالعطر الشهى بإخماد زوابع البصل والتقلية.. احلوت حالتنا بعد العشرة الحجارة الأولى، بالعشرة الثانية بدأت مرحلة المزمزة الهادئة حيث كف عم وهدان عن الكلام وانصرفت أنا إلى الاستغراق فى كتابة مذكرات متفرقة عن لمحات وأفكار وملامح شخصيات قد أحتاج إليها مستقبلا.. ليل منتصف يوليو كان لزجًا خانقا لولا أن المدى المفتوح أمام الشرفة البحرية أتاح لوفود من النسمات الرقيقة أن تنزل فى ضيافتنا..

فجأة ارتجّ الهواء، كأن جموده تشقق من هزة كونية عاتية، هبت ريح عمودية ساقطة ـ كأنما بدقة هندسية ـ من مسقط هوائى غير مرئى لتنزل هابطة بعنف فوق الرديم الطازج فوق فتحة المقبرة التى كانت

مفتوحة عصر اليوم فى استقبال جثة جديدة؛ كانت ريحا ذات مخالب كمحاريث البلدوزر تنغرس فى الرديم الناعم الطرى صانعة دوامة هوائية كالتى درجنا على تسميتها بفسية العفريت كأن بريمة خفية تحفر فى الرديم تثقبه فتتصاعد سحب الغبار المشبع برائحة الرطوبة ممزوجة برائحة العفن والتحلل والصدأ؛ الدوامة الهوائية كانت مشمولة بصوت صرخة حادة مرتاعة كصوت فرملة الخطر فوق أسفلت الشوارع ذى إيقاع مفزع يمزِّع المشاعر، يجلد القلوب. . تحفزت كل مشاعرى فى مراقبة وقع ما رأيت وسمعت على وجه عم وهدان لعلنى أتأكد بأننى لست واقعا تحت وهم كابوس؛ برغم ارتعاد فرائصى شعرت بفرحة نزقة لمجرد تأكدى من أن عم وهدان قد شاهد وسمع هو الآخر. . إلا أنه لم يبد عليه أى نوع من الخوف؛ كل ما هنالك أنه عدل قعدته باهتمام فأعطى وجهه للمقبرة الواقعة على مرمى حجر من الشرفة؛ على وجهه مسحة من دهشة طفولية تعكس شعوره بأنه كصعيدى عريق لا يليق به أن يخاف مثلى؛ كان يريد إيهامى بأن هذا الذى حدث شىء طبيعى يرى منه الكثير كل يوم أثناء تجواله فى سراديب القرافة وحده فى عز الليل؛ إلا أننى فزعت من شدة التركيز الذى ظهر فى تدقيقه النظر وإهمال الشيشة إلى أن يرى ما سر هذا الذى ما لبث حتى عاد يتكرر من جديد؟! ثم راح يتكرر بغير توقف: نفس الفعل بنفس الإيقاع: ترتفع الصرخة حادة ممطوطة داهمة قاطعة، تذوب فى الدوامة الهوائية العاتية الساقطة من علو شاهق فى حركة بريمة تثقب فى رديم المقبرة الطرى حيث تتلون الصرخة تدور هى الأخرى كالبريمة تثقب الأذن كصوت (الشنيور) يخترق حائطا من الأسمنت المسلح. .

شبهة ارتياع ظهرت بوادره على وجه عم وهدان حاول هو أن ينكرها على نفسه فاكتست ملامحه ببرقع من الشجاعة كاليشمك:

شبكة من نسيج تكشف لون الخوف وتؤطر بريق الرعب فى العينين. كان يريد أن يقول شيئا، لكنه كلما فتح حنكه ليتكلم داهمتنا تلك الصرخة الممطوطة الحادة يلتف ذيلها حول دوامة الهواء، فيفقد الرجل قدرته على النطق.. منظره أضاف إلى رعبى توقعات بأن تقتحمنا من كل مكان فى الحوش جحافل من الأرواح الشريرة الغاضبة الغامضة المجسدة فى أشباح ظلال تتراقص تتلوى فى بطء ونعومة الخديعة لحظة التأهب للانقضاض.. أخيرا استطاع عم وهدان أن يتحرك وأن يجد صوته ليسألنى:

ـ «أنت خائف؟!».

شعرت كأنه يوجه السؤال إلى نفسه؛ ثم إنه أجاب كأنما على نفسه أيضا:

ـ «ما تخاف يابو العم!.. ما شيطان إلا بنى آدم!».

حاول تغطية توتره بالاستغراق فى إحياء النار؛ ثم نفض التراخى عن أعصابه وقام، دخل الردهة، أضاء نورها الكبير، ومنها إلى المطبخ أضاء نوره.. سمعت صوت غرفة للمياه بالكوز من البستلة ليغسل الشيشة ويغير ماءها.. كل ذلك والصوت الصارخ لا يبتعد إلا ليتجمع كالموجة عائدا فى حالة انقضاض مريع.. حينما شرعنا نستأنف سحب أنفاس الشيشة كانت الفترات بين اندماج الصوت ورجوعه قد استطالت كما لو كانت تعاتبنا وتلعب بأعصابنا عن عمد إذ ما نكاد نتوهم أن الصوت لن يعود حتى نفاجأ بارتداده فجأة فى هبة ريح صرصر عاتية.. ثم إن الفواصل تعاظمت؛ إلى أن هتف صوت المؤذن فوق مئذنة جامع قايتباى: الله أكبر، فكأنه أنقذنا من الغرق، هتفنا: الله أعظم والعزة لله ثم دبت فينا الحيوية الآمنة مغموسة بندى الفجر؛ عندئذ انجعص عم وهدان مستردًا رزانته وحكمته:

ـ «أنا أقول لك ياأستاذ ما معنى هذا الذى شفناه بأعيننا وسمعناه منذ قليل!».

ـ «قل يا عم وهدان! منك نستفيد!»

هزَّ ساعده ليسقط كم الجلباب:

ـ «أصل الحكاية يا أستاذ أن هذه الجثة التى دفناها البارحة فى هذه الطربة كانت لصبية لم تدخل الدنيا بعد! عمرها ستة عشر عاما!».

ـ «وما معنى ذلك؟!».

ـ «صبرك بالله علىّ! . . البنت أنا سمعت طراطيش كلام بأنها كانت تحب ولدًا فقيرًا يحبها ويخططان معا للزواج! حلو؟».

ـ «المهم!».

ـ «الأب ولا مؤاخذة رجل دنىء! . . إنى أعرفه!.

تاجر شره من تجار الحمزاوى لا يشبع من الفلوس ومضروب به المثل فى البخل! . . باع ابنته لشيخ من بتوع البترول نظير «شقلة» فلوس ثقيلة يوسع بها محلاته فى الحمزاوى! . . البنت جاءها لُطف! يوم عقدوا قرانها لم تجد إلا طريقة واحدة تضربهم بها فوق أدمغتهم بالصرمة القديمة وتندد بشرفهم وتنكد عليهم جميعًا إلى الأبد: أن تموت منتحرة! . .

وفعلا! . . سكبت وابور الجاز كله فوق نفسها وأشعلت النار، صارت فحمة فى ربع ساعة!»

ثم سكت كأنه قد أفضى بكل ما لديه من سر؛ جعل يسحب أنفاس الشيشة بتلذذ وقد أضفى ضوء الصبح التركوازى على وجهه مسحة من شفرة السماء . .

ـ «تقصد يا عم وهدان أن عفريتها يشاغبنا؟!»

نقر بمبسم الشيشة نقرتين على جبهته فيما عيناه تقولان لى على إيقاع النقرتين: صحصح أمال؛ ثم ناولنى مبسم الشيشة قائلا فى ضجر اليائس من غبائى:

ـ عفريت برضه؟ تانى؟ نقول: تور! تقول: احلبوه؟! عفريت ماذا يا أستاذ؟! قلنا ما عفريت إلا بنى آدم!»

ـ «غلب حمارى ياعم وهدان!.. لست أفهم ماذا تريد أن تفهمنى!.. أنت قلت فى البداية إنك ستشرح لى سر ما رأيناه وسمعناه منذ قليل.. فما هو السر؟!»

ـ شوف يا أستاذ!.. معنى كلامى أن الميتة ماتت منتحرة بالحرق!.. هل فهمت هذا؟!»

ـ «أظن!»

ـ «وما دامت هى أحرقت نفسها تكون إذن ميتة بإرادتها على غير الأوان الذى كان مكتوبًا لها فى اللوح المحفوظ!»

ـ «يا عم وهدان!.. سواء ماتت بحرق نفسها أو بمرض أو فى حادث فإن الموت يكون قدرها المحتوم فى حينه!»

ـ «صبرك بالله علىّ!.. إن الله سبحانه وتعالى يكره المنتحرين يرميهم بالكفر لهذا السبب! لأنهم يرفضون الحياة التى وهبها لهم دون أن ينتظر منهم جزاء ولا شكورًا!.. من ينتحر ويميت نفسه على غير أوان تتعذب روحه كما رأيت الليلة عينى عينك!»

ـ «يعنى رأيك أن روح الميتة كانت تتعذب؟»

ـ «طبعا يا بو العم!.. أقول لك لماذا كانت تتعذب بهذه الطريقة التى قطعت قلوبنا!»

ـ «لماذا؟!»

ـ «الروح صعدت إلى باريها فى السماء فلم تجد لنفسها مكانا فى الدفاتر المحسوبة بالمواعيد! . . ربنا سبحانه بصنعة لطافة قفل فى وجهها باب رحمته! . . نزلت الروح إلى الأرض تبحث عن جسدها فتجده دُفن فى التراب فتحاول الحفر بكل جنون للوصول إليه كما شفت بعينيك فتفشل طبعا . . تصعد إلى السماء باحثة عن الخلاص تسْترحم ربها! . . تطردها السماء فتعود إلى الأرض حائرة ذليلة إلى أن طردتها عن الأرض كلمة الله أكبر فى أذان الفجر! . . من يدرى؟ لعلها ذهبت إلى الجامع وسط المصلين تتوضأ وتصلى تائبة لعل الله يغفر لها ما فعلته بنفسها!»

كانت أى مقاطعة لعم وهدان أو مراجعة له فى أى شىء مما قال تعتبر فى نظرى فجاجة منقطعة النظير؛ سيما أن ما عبرت عنه مخيلته الفطرية كان تصوراً بديعًا حقا لعالمٍ تعجز عقولنا عن تصوره على الحقيقة.

٣
أخت القمر

فى الليالى القمرية المزدهية بالضوء الفضى تصير قطعان المقابر المنطرحة أمامى فى العراء على مساحات شاسعة مترامية الأطراف كأنها قاع بحر محيط تبخرت مياهه فانكشفت هضاب أرضه ووديانها وسراديبها، مرتفعات ومنخفضات ووهاد ومهاو فى لون الملح، لون الجرب؛ فإن يزدهى القمر متوسطا قلب السماءً بدا كأن البحر ما جفت مياهه بل شفت وراقت صارت أشبه بغلالة شديدة الرقة والرهافة تكشف عما فى القاع السحيق من أدق الكائنات . . القمر يدلق بحر السماء على الأرض فكأن المقابر والأحواش بألوانها الملحية قطعٌ تساقطت من صخور الضوء السماوى الشفاف . .

تحتَ هذا الضوء برز شىء كنا قد فعلناه طوال اليومين الفائتين؛ كان المعلم عيد أبو القاسم قد طاف بالبياعين الصعايدة ومقاولى الأنفار، جمع منهم تبرعات أضفناها إلى ما تبرعنا نحن به وهو الأكثر ثم اشترينا أثوابا كاملة من قماش العبك والدبلان، عهدنا بها إلى ترزى بلدى فى حى قايتباى، قام بتحويلها إلى شكائر وأكياس؛ خصصنا من وقتنا يوما بطوله نتجول بين المقابر المعتدى عليها نجمع العظام والجماجم نعبئها فى الشكائر ونخيط أطرافها بالمسلة والدوبارة ثم جمعنا الشكائر كلها ورصصناها واقفة أمام شرفة الحوش إلى أن نستصدر إذنا من إدارة الجبانات بفتح أية فسقية واسعة ندفنها فيها . .

الشكائر بدت أمامى فى ضوء القمر كأعمدة من الضوء النيونى الفسدقى، من فرط ما يصدر عنها من إشعاع فسفورى ضوعفت أحجامها كتلال من النفايات المشعة أو الأسماك الميتة. فى تلك الليلة القمرية أفقت من شرودى فجأة فاكتشفت أننى وحدى فى الشرفة منذ عدة ساعات؛ تذكرت أن عم وهدان يعانى من لطشة برد حادة ألزمته فراشه؛ لم أنزعج؛ لقد اكتسبت جرأة وشجاعة وقدرة على التجول فى أنحاء الحوش بل فى أنحاء القرافة كلها فى قتامة الظلام دونما وجل؛ بت قادرا على خدمة نفسى بنفسى معظم الوقت؛ اكتشفت لذة ذلك مع التوحد والتطامن إلى عدم وجود صوت آخر يشوشر على تركيزى لأن أفكارى كثيرا ما تكون كالعصافير ما أن تحط على شواشى الذهن حتى تتأهب للفزع والطفشان إذا مارفّ صوت حولها بأية ذبذبة أو مسها ظل عابر..

حركة عابرة مرت كخيال ضوئى فاختطفت بصرى، ارتعدت، إذ خيل لى أن شكارة من شكائر العظام مشت عابرة فى رشاقة من تحت بصرى.. هببت واقفا فى الحال أكاد أنتفض من الفزع؛ ساعة جامعة القاهرة فى الراديو الترانزستور على المنضدة دقت منتصف الليل، فكأنها وضعت نقطة تحت علامة تعجبى.. ياللغرابة؛ ها هو ذا الكيان العابر يظهر من بعيد متسللا بين المقابر؛ ياربى، إنها امرأة فاتنة، تتأود فى مشيتها كالأميرة، ترتدى البنطلون الجينز المحزق يبرز عجيزتها الملوظة يفلقها نصفين، فوق الصدر بلوزة حريرية نصف كمُ، الذراعان طويلان أبيضان، الوجه رمانة، جدائل شعرها الكستنائى الغزير منطرحة على كتفيها العريضين؛ جسد شرقى السمات يشع أنوثة على البُعد يطلق رائحة عطر أرستقراطى زاعق.. بحق الله من

تكون؟! هل يعقل أن أميرة مثلها تمشى خلال المقابر فى منتصف الليل وحدها بكل هذه الجسارة كأنها تمشى على ضفاف نهر السين وهو أليق بمثلها؟ . . أتكون جنية وعفريتة؟ ربما عفريتة العروس التى أحرقت نفسها واندفنت فى هذه المقبرة المقعية أمامى مباشرة؟ لكن هذه فيما يبدو امرأة ناضجة، بارزة الصدر والأرداف، هيفاء كغصن البان، مديدة القامة . .

ارتفقت إفريز الشرفة، أرسلت بصرى وراءها، صارت نظراتى كالكرة تتقافز تبعا لاتجاهها، فمرة تستقر فوق مؤخرتها وأخرى تنط على صدرها وثالثة تتعلق بجدائل شعرها، تأكدت من أنها حقيقة وليست مجرد وهم . . أتكون إذن ممثلة تؤدى مشهدا فى فيلم يجرى تصويره الآن هنا؟ . . لكنها تباعدت حتى غطست فى منحدر بعيد مظلم . . ظللت طوال ما بقى من تلك الليلة أحاول طردها من دماغى دون جدوى . .

فى اليوم التالى حكيت عنها لعم وهدان، استمع لى فى هدوء فاغر الفم فى قليل من الدهشة إلا أننى شعرت بأنها دهشة مصطنعة يجاملنى بها؛ تأيد هذا الشعور ببرق خاطف غامض لمع فى عينيه ثم اختفى فى حجر الشيشة؛ ثم ناولنى المبسم مشوحا بيده الأخرى تشويحة تأمرنى بأن أشيلها من دماغى، ثم أضاف:

- «الدنيا ملآنة بالبلاوى! . . ربنا يستر على ولايانا!».

قد نسيتها بالفعل طوال الليالى التى يغيب عنها القمر أو يتسربل بعباءة سوداء. وفى ليلة قمرية جديدة من شهر جديد ما أن انتهى أذان الفجر حتى رأيتها تقترب من حوشنا قادمة من جهة طريق الأوتوستراد الجارى تعبيده وتهيئته للرصف، كانت ترتدى نفس البنطلون الجينز

ولكن مع بلوزة سوداء شديدة الفخامة والأناقة والجمال، نفس القوام السمهرى، جدائل الشعر ملمومة هذه المرة بتوكة فضية جعلته يبدو كذيل الحصان، نفس المشية المتأودة الواثقة المطمئنة. . اعترتنى شجاعة متهدجة متوترة، ارتددت إلى الردهة؛ عبرتها فى قفزتين إلى السلم؛ نزلته على أطراف أصابعى؛ رغم ضخامة باب الحوش بشكل مخيف إلا أنه سهل الانزياح بأقل جهد ودون صرير؛ مرقت من فتحته فانغلق ورائى من تلقاء نفسه؛ مشيت وراء الغادة الحسناء محاذرا إصدار أى صوت ينبهها إلى وجودى، محتفظا بمسافة كافية بينى وبينها. لم أعرف إن كانت قد شعرت بى أم لا؛ لكنها كانت لا تلوى على شىء، غير عابئة بأى شىء، مندفعة كالسهم المختال تتراقص به الريح عاوية من الألم إذ هو يشق كبدها. . لهثت وراءها ما يقرب من عشر دقائق حتى أشرفت بى على تخوم طريق صلاح سالم، دخلت فى حى الأحواش الراقية، أحواش تفصل بينها حارات عريضة؛ مما شقق عباءة القمر على الأرض بمربعات متداخلة متعامدة متقاطعة متوازية معا، حيث تكثر الفواصل الظلماء ويتوه الهدف عن الملاحق بين عشرات المنافذ والمداخل والمخارج المؤدية إلى بعضها البعض كالتمويه المتقن. جعلت أتابعها داخل هذه المربعات الحوشية محتفظا بنفس المسافة لدرجة أنها كانت تحود إلى حارة قبل وصولى إلى مدخلها بحوالى دقيقتين من الزمن؛ فى أول تحويدة لحقت بها وهى تكاد تتحول إلى شبح بعيد يمتد ظله القصير على الأرض، إلا أنها حين حودت مرة أخرى إلى اليسار هذه المرة أسرعت الخطى ومع ذلك ما أن وصلت إلى الحارة التى حودت فيها حتى لم أجد لها ثمة من أثر على الإطلاق؛ هل اختفت فى واحد من هذه الأحواش الشبيهة إلى حد كبير بعشش رأس البر فى

عصره الزاهر؟ أم انشقت الأرض وابتلعتها؟ . . لم يكن أمامى سوى الفراغ والصمت المطبق وريح شاردة مازحة تبعثر ما على الأرض من بقايا قمامة. واصلت طريقى إلى الحوش من نفس الطريق دون حاجة للرجوع إلى الخلف؛ هى صحيح تخريمة وعرة ليس يعرفها إلا أبناء المنطقة؛ إلا أننى كنت قد أصبحت معروفا بين أهالى المنطقة السكنية وهم جميعا - تقريبا - من رعاة هذه المقابر؛ ثم إننى لم أكن أشكل مطمعًا لأى لص أو قاطع طريق بل على العكس كان الجميع يتودد إلىّ بلطف ومحبة وهيبة مستمدة من ارتباط اسمى بالصحافة والتلفاز. كان المصلون قد خرجوا من صلاة الفجر فالتقانى فى الطريق عدد لا بأس به من: صباح الخير يا أستاذ؛ فما أن صرت أمام جامع قايتباى حتى هرول نصر العبيط مرتميا فى أحضانى:

- «بـ بـ بـ اح خير يا جاز (يعنى يا أستاذ)».

أزحته من حضنى برفق بعد أن سالت ريالته على كتفى ولطشت ثيابى بطش من وساخته المقرحة؛ كان يحمل على كتفه جوالاً قديما يحتوى خرقه وهلاهيله وأشياءه الغريبة التى يلعب بها؛ إنه فى الخامسة والعشرين من عمره، تقاطيعه مصرية وسيمة جاذبة تفرض عليك حبه بعمق ربما أعمق من حبك لعيالك، توقف عقله عن النمو - نتيجة عيب خلقى ضرب ستة من إخوته الذكور - عند سن الثالثة من العمر؛ أصبح شَابا فتيا بمعنى الكلمة ولكن بعقلية طفل يتعلم الكلام وذاكرة تحتفظ بالكثير من خبرات ومشاهد ومشاعر لا يعرف كيف يعبر عنها بالكلام فتطبع صوته بدفء إنسانى حميم شديد الحرارة. قادنى بنفسه إلى الحوش الذى يدرك بسليقته أننى أتمركز فيه؛ سبقنى إلى الباب ففتحه، دلف داخلاً غير عابىء بظلام العتبة؛ بتلقائية اتجه إلى السلم، صعده

والجوال يكاد ينكفئ فوقه؛ اخترق الردهة إلى الشرفة؛ ألقى بجواله على الأرض لصق الحائط؛ جلس على الكرسى بدلاً من عم وهدان قبالتى؛ وضع ساقا على ساق، صار يبصبص لى من تحت لتحت وحواجبه تتراقص فى عشوائية فوق عينيه الجميلتين جدا؛ فلما اطمأن إلى أننى اتخذت وضعى على الكرسى اعتدل فى مواجهتى هاتفا كأنه لم يرنى منذ سنين:

- «ب ـ ب ـ ب ـ ا ح خير يا جاز!».

ضحكت من قلبى؛ انفجر هو الآخر ضاحكا فى جذل وسعادة وحرارة مادًا ذراعه الصدئ بيده القذرة ليصافحنى تحية على النكتة التى أضحكتنى.

٤
بستان فى العاصفة

البقاء لله.

هذا مدفن المغفور له محمود شوكت ظاظا باشا.

عميد عائلة ظاظا.

تأسس سنة ١٩٠٠ ميلادية.

* * *

. . «هذه الرُخامة ياسعادة الأستاذ كان جدى الكبير أبو القاسم الأباصيرى يمسحها بطرف جلبابه كلما وقعت عينه عليها فى الروحة والجيئة . . الله يرحمه كان يعزها مثل عينيه فما بالك بالراقد تحتها؟ . .

أجاويد عائلة ظاظا كانوا أسياده وأهله فى نفس الوقت! . . جد جدى كان فى خدمتهم من يوم مولده إلى يومه الأخير! . . المغفور له سعادة الباشا محمود شوكت ظاظا كان فيما أسمع مديرا لمديرية المنيا وهو أصلاً من أغنى أغنيائها ولديه أطيان تجرى فيها القطارات فلا تجىء بآخرها . . قصره لا يزال إلى اليوم هناك ولكن يقيم فيه الحزب الوطنى بعد هيئة التحرير والاتحاد القومى والاتحاد الاشتراكى وحزب مصر! . . كم من قصور وأطيان وشركات أخذتها الثورة من العائلة حتى ضاق رجال العائلة فهاجروا بما تبقى من أموالهم إلى بلاد

بعيدة ولا نعرف عنهم شيئا ولا أحد منهم يزور هذا الحوش من عهد الثَورة إلى اليوم . .

«خليها على الله يا أستاذ . . ميراث ماذا؟ . . إن الله يرث الأرض ومن عليها! . . سيبقى هذا الحوش أمانة فى رقبتى ورقبة عيالى من بعدى! . . طب تصدق بالله؟ . . فى الحوش غرفة مكتب فيها مكتبة بدواليب: كتب تفسير وحديث وشريعة وتواريخ وأشعار وروايات وهيصة! . . أصحو فى طفولتى البعيدة - طشاش - للرجال الذين كانوا يأتون فى الأعياد للإقامة هنا جمعة أو جمعتين يقرأون ويقيمون الصلوات والتحيات والحضرات . . لو حلفت لك بالله أننى حرمت على عيالى دخولها للمذاكرة فيها وهم تلاميذ فيجب أن تصدقنى! . . أنا تلقيت هذه الوصية من أبى عيد الذى تلقاها عن أبيه أبو القاسم الذى جرت فى عروقه الأمانة بقدر حبه لعائلة ظاظا أولياء نعمتنا من أول الزمان ليومنا هذا نأكل فى خيرهم! . . خلٍّ بالك إن اسمى عيد وأبى أيضا كان اسمه عيد! . .

السبب - وياللغرابة - أن أبى ولد يوم عيد وأنا أيضا ولدت يوم عيد فى هذا الحوش فى هذه القرافة أيام كنا نسكن مطرح الخفير وهدان! . . يوم العيد هنا تظهر حلاوته كما لا تظهر داخل العمران!! . .

«الذى أعرفه يا حضرة الأستاذ أن الباشا محمود شوكت ظاظا كان ضابطا فى جيش محمد على باشا وزميلا لعرابى زعيم الفلاحين الذى قام بالهوجة الشهيرة، لعل حضرتك تسمع عنها طبعا . . هو كان شريكا لعرابى فى الهوجة على الخديو توفيق حسبما قال أبى! ولَمّا نفى عرابى باشا وصحبته كان من المفروض أن يكون ظاظا باشا معهم ولكن الخديو عمل حسابا لعائلة ظاظا وخربوشها الضارب فى الصعيد من

ناحية ومن ناحية أخرى لأن جده الكبير محمد على كان يحب هذه العائلة وبينه وبينهم ودّ كبير واتصالات ومصالح وجوارى! . . الباشا بتاعنا بدلاً من أن يحمد الله على نجاته من الهوجة ويسكت مكتفيًا بما هو فيه من نعيم راح حضرته يكتب فى الجرانين وفى الكتبات شعراً يشتم ويسبّ فيه الذين نفوا صديقه عرابى! . . الله يرحمه أبى كان قراءً مثل اللبلب وكان يفهم فى مسائل الشعر هذه ويقرأ على صحابه قصايد الباشا بتاعنا! . . لو كان المفتاح معى الآن لفرجتك على كتبات من تأليفه اسمها الدواوين! ويوجد فى قعر الدولاب جرانين قديمة شاط ورقها من الركنة، كان الباشا بتاعنا ينشر فيها جوابات بالشعر لواحد صاحبه اسمه البارودى ولعرابى فى منفاه ولما حاولت أنا قراءتها وجدتها من كلام تخين مجعلص مقفول على نفسه! . .

«الشعر هو الذى جاء بالكفية للباشا بتاعنا . . دبور زَنَّ على خراب عشه! . . نفوه هو الآخر ولكن إلى دولة من قرايبنا : العراق! وسمحوا له بأن يأخذ معه عياله ومن يشاء من خدم وحرس! . . جدى أبو القاسم كان فى أصله خفيرا فى بلدة شارونه التى ولد فيها الباشا ثم ترقى وأصبح شيخا للخفراء . . كان رجلا يعجبك! طول بعرض يفصل عشرة رجال على شاكلتى برغم ضخامة حجمى كما ترى! . . جسارته لا مثيل لها! قوته! شجاعته! أمانته! دخل مزاج الباشا أخذه حارسا خصوصيا له وجاء به ليعيش معه فى مصر القاهرة فلما نفوا الرجل صمم جدى أبو القاسم على السفر معه ليبقى فى خدمته إلى نهاية العمر! . . عاش الباشا وعياله ورجاله بين أحبابه من إخوتنا العراقيين معززاً مكرمًا لمدة سنتين يعطى لعيالهم دروسا فى فنون الحرب وفنون القول ثم كافأوه بالحج مرتين هو وكل من معه! . . و . . رضى عنه خاطر الخديو فصدر العفو عنه فعاد إلى مصر! . . من حسن حظه أنه

كان قد تصوف وهجر السياسة وانقلب حال قصايده فصارت مناجاة في الطريق إلى الذات الإلهية! فبنى هذا الحوش ليكون منتجعه وخلوة شيخوخته فيما تبقى له من عمر! ولهذا راعى أن يكون البناء قصراً بمعنى الكلمة فحجرة الدفن في الدور الأرضي بفسقيتين واحدة للرجال وأخرى للحريم، وأما الدور الثاني فبيت للمعيشة فيه حجرة مكتب جعل منها خلوته يلتقي فيها بنور الله! وأقام مساكن صغيرة على جانبي الحوش وداخل حرمه للغفر والحرس والسفرجي والطباخ والسواق العربجي وكانوا جميعا يرافقونه أينما ذهب! . . كانت زوجته أم عياله قد ماتت بعد عودته من العراق ودفنها في هذا الحوش وكان يقرأ عليها القرآن كاملا ثلاث مرات كل عام هجري طوال شهور رجب وشعبان ورمضان! . . عاش الرجل هنا يقرأ ويكتب ويسبح في ملكوت الرحمن . . الكارتَّة بالجوز الخيل والعربية راكنة في حظيرتها تحت أمره لنقله! . . رزقه الله من الخلفة ولداً وبنتا! أما الولد فقد تخرج في مدرسة المهندسخانة مهندسا معمارياً وأما البنت فتزوجت من أحد كبار المحامين في المنيا! . . مات الولد قبل زفافه بأيام قليلة حيث إنه كان يحب الرحلات والصيد فقرصته الطريشة في صحراء الفيوم قرصة لم يشف منها، فدفنوه في فسقية الرجال كأول استفتاح لها، فكانت هذه الميتة كسرة نهائية للرجل فمات بعد ابنه بعام ونصف! . . لم يعد يزور قبر الباشا إلا ابنته الكبرى تأتي من الصعيد في الأعياد وفي ذكرى رحيله إلى أن ماتت هي الأخرى بعد قيام ثورة يوليو مباشرة ربما في نفس اليوم إلا أنها دُفنت في مقبرة عائلة زوجها في محافظة المنيا! . . ومن ذلك العهد لم يظهر أحد ليسأل عن الباشا حتى زوج ابنته المحامي مات ونسي الجميع أمر هذا الحوش إلا أبي الذي ورثنا عنه تقديس هذا الحوش كأنه بيت من بيوت الله . .

«فُتَّكَ فى الكلام يا عمنا الأستاذ! . . جدى أبو القاسم عبد العزيز الأباصيرى هو الذى ـ بعون الله وبخبرته الواسعة فى فلاحة البساتين ـ أقام هذه الجنة التى تجنن! فكما ترى حضرتك لا يوجد فى الدنيا فاكهة إلا ومنها أشجار هنا! . . هل مشاك وهدان بين أشجار الصبار فى النهار؟ مشه يا وهدان ليرى أشكالاً وألوانًا من أنواع الصبار! أعطه شتلة صبار يضعها فى بلكونة شقته! . . الأستاذ الآن منا وعلينا . . أنا أصلى أحب كل واحد يتخذ من القراءة والكتابة شغلاً له! هذا أكبر دليل على أنه رجل محترم كالباشا بتاعنا نقى النفس صاحب فكر ومفهومية لا يتوصل إليهما الجهلة من أمثالنا! . .

«بالمناسبة ياحضرة الأستاذ! . . ما دمت تكتب فى الصحافة فإنى أريد أن آخذ رأيك فى موضوع! . . إنى طمعان فى مشورتك فحسب باعتبارك صاحب قلمٍ وعقل نَيِّر وبالطبع تفهم فى القوانين وفى سياسة الدولة . . فى قلبى سرٌ يوجعنى أريد أن أطلعك عليه لعلك تشير علىّ بما يخفف عنى ثقل الوجع و . . صدقنى يا أستاذ أنا لا أريد فضيحة! . . موتى وسمى فى الحياة إثارة الفضائح حتى ولو كان فيها مصلحة أو انتقام لى . . خلنى أحكى لك الأمر بالمفتشر . .

«الحكاية وما فيها يا سعادة الأستاذ أن كبيراً من هؤلاء الملاعين الذين لا يُسمون . . يظهر أنه شيخ المهندسين المسئول عن توجيه خارطة الطريق . . طريق الأوتوستراد يعنى . . يقول افحت هنا ولا تفحت هنا . . منظره يقول إنه مهم! طريقته فى الشخط والنطر بعجرفة تقول إنه أهم واحد فى حكومة مصر! . . المهم لا أطيل عليك يا سيدنا الأستاذ . . هذا الرجل بعث لى بمن يناديني! شوف السفالة من أولها: الباشمهندس عايزك تروح له! . . رحت له . . دفعنى إلى خيمته

الخاصة فى الجبل الأخضر قرب نادى المقاولين العرب . . اقعد يا معلم عيد . . قعدت . . فتح خريطة وفردها أمامى على الطاولة وأشار بالقلم الرصاص على مربع مرسوم عند نقطة فوقية! قال بطريقة ضباط الشرطة الغتتة :

ـ تعرف ما هذا طبعا يا معلم عيد! .

ـ والله العظيم يا سعادة البيه ما أعرف ! إيش عرفنى؟! .

«انشدَّت عضلات وجهه وطفح الخبث من عينيه :

ـ هذا هو البستان! حوشكم! حوش ظاظا باشا! .

الذى آلت ملكيته إليك بالهناء والشفاء! .

« والله دارت بى الأرض ياحضرة الأستاذ! . . من شدة غيظى منه وغليان الدم فى رأسى فكرت أن أنط فى كرشه أفرتكه ويكون بعدها ما يكون! . . إنما أهلى علمونى الصبر وطولة البال على آخر ما فى جهدى . . لكن المهندس الملعون لا تكف عينه عن رشقى بحجارة من نظرات مدببة! شككتنى فى أن يكون قد تخرج فى كلية الهندزة أو عاشر طلبة من ولاد الناس الطيبين! نظرات صياعة قرارية! والله يا أستاذنا لو طلع بنظراته هذه فى الليل فى الطرب على أصيع صياعها لجعله يفعلها على نفسه من شدة الرعب! نظرات قاطع طريق يا جناب الأستاذ ميت القلب . . آخر ما زهقت منه شخطت فيه شخطة نشفت الدم فى وجهه :

ـ يا سعادة الباشمهندز هل أنت ضابط وأنا متهم بشىء؟!

«فشخ حنكه كأنه يبتسم لكنها ابتسامة صفراء باردة تُشخَّ الكلام شخا عدم المؤاخذة :

- حتى الآن . . لا . .

«وجعتنى الغمزة، وجعتنى أكثر نظرة صياعة تفح منها سموم الاتهامات! أفقت لحظتها على شىء تعجبت منه : إن اسم حوش ظاظا انمحى من الوجود منذ سنين طويلة حتى من إدارة الجبانات نفسها فمن أين عرفه هذا الشيطان إلا أن يكون واحد من الصياع المتمسحين بالحزب الوطنى من أهالى المنطقة أو من مقاطيع رئاسة الحى أعطاه فكرة ودبر معه مؤامرة لحرق دمى؟! . . سايسته :

- تقول يا باشمهندز إننى حتى الآن لست متهما بشىء! .

هل تقصد أننى يمكن أن أكون متهما؟! .

«شوح بذراعه! قال كأنه يردح لى :

- طبعا! . . إذا لم تعطنا عنوان ورثة حوش ظاظا! . .

«صرخت فيه من وجعى وغيظى :

- يمين المصحف ما أعرف! . . العائلة كلها ماتت! وأنا مجرد حارس للأمانة حتى يظهر من يثبت لى أنه من الورثة! . .

«قال كأنه المحكمة :

- إذن! لا شىء يمنعنا الآن من الهدم!

- هدم؟! هدم ماذا يا رجل ياطيب؟! .

هدم الحوش يا معلم ! أنت بعينيك شفت الطريق على الخريطة يخترق حوشكم هذا! . . يعنى لا مفر أمامنا! . . لابد أن نسلخ منه شريحة تتسع لفردتى الطريق العكسيتين يفصل بينهما حوض مزروع بعرض خمسة أمتار! . .

«قال هذين البُقَّين وأعطاني قفاه ليغادر الخيمة تاركني في ذهولي! وأراد أن يكمل قتلي فنطحني بنظرة من فوق كتفه وهو يصدر أوامره:

- المكن قدامه أسبوع كامل من اليوم حتى ينتهي من دك منحدر الجبل الأخضر وبعدها يدخل عليكم مباشرة! . . ليكن عندك علم بهذا لكي تترك العمال يؤدون واجبهم الوطني في سلامة الله بدون شغب ولا شوشرة! أنت تعرف مصير من يقاوم السلطات! . .

«علق النظارة المعظمة في رقبته والكاميرا في كتفه ومشى حتى باب الخيمة ثم وقف يعدل الطاقية الأمريكانية الزرقاء فوق رأسه جاعلا مظلتها فوق عينيه! . . لما رآني تسمرت في وقفتي مشلول الدماغ سحب نظارته الشمسية الخضراء القاتمة بإطارها الذهبي البراق ثم وضعها فوق عينيه وأشار لي بحركة من يده في سأم معناها: تفضل اخرج يالوح! . .

«شحاتة افندي السكران أمين الحزب الوطني عن الدائرة تبعنا أبوه ابن خالة أمي لزم! وطربة عائلتهم تبعي . . خطفت رجلي إليه في السر! عزمته على واحد شاي وحجرين معسل على قهوة أبو ياسر . . انزويت به بعيدًا! فضفضت معه . . حضرة جناب اللي خلفوه تقمص شخصية رئيس الجمهورية! قال بجدية محسومة بملامح وجهه المقفولة:

- ما دام كبير المهندسين قال لك هذا الكلام وأطلعك . . كتر خيره . . على خريطة الطريق فإنها تكون الحقيقة! يعني عليك أن تسلم بها بالرضا والتسليم! يعني أنك . . وأنت مثل الباشا . . تقول للعمال: تفضلوا شوفوا شغلكم يا رجال، فالمشروع وطني كبير! . . تكون رجلا وطنيا بمعنى الكلمة لو دخلت عليهم بصينية

الشاى على سبيل التحية على الأقل إذا لم يكن فى مقدورك أن تولم لهم وليمة غداء! . . ثم إنك يا أخى . . عدم المؤاخذة يعنى . . ماذا يهمك من أمر الحوش وأنت حيا الله مجرد خفير تحرسه أبا عن جد؟! أنت لا مسئولية عليك! الحكومة قررت! الحكومة أخذت! انتهى الأمر! احمد ربك أنها حكومة حنيِّنة لم تأخذ الحوش كله! . . فاتق الله واهمد! لا تكن كالدبور الذى زنّ على خراب عشه! اعقل يا رجل ودعهم يأخذون ما يشاءون لا تفتح فمك بكلمة وإلا دهسك وابور الدك فأنت لست أفضل من العظماء الذين دك عظامهم وطحنها! . . «ابن اللبؤة كان يكلمنى بعصبية ويأمرنى كأننى موظف عنده وأغضبته فى ذنب لا يغتفر . . فلما رآنى كشرت فى وجهه استفرغ شحنة العصبية المتبقية فى العبث بحجر الشيشة! رمى اللىّ فى سأم، نادى على الجرسون كأنه يسبُّه على عدم الركوع تحت قدميه طوال الوقت . . جاءه الولد الجرسون مأخوذا من المباغتة، تتساءل تقاطيع وجهه عما عساه يكون قد فعله من جريمة تستوجب هذه الغضبة الحادة العنيفة . . اضطر شحاته افندى إلى فشخ حنكه بابتسامة لزجة صدئة الأسنان كأنها ملمومة من صفيحة الخردة! وطلب حجرين جديدين على نار صاحية تليق بضيافة المعلم عيد أبو القاسم على سن ورمح . . شوف الجليطة . . وطلب مع الحجرين فنجان قهوة على الريحة يسترد به توازن دماغه الذى صدعه المعلم عيد!! شوف قلة أدب الخسيس ابن اللئيمة : يضربنى ويأخذ كراء يديه!! طب وماله . . أنا أجدع منه ومن الذين خلفوه على كل حال : هات ياعم كل ما يطلبه شحاته افندى السكران تحية للحزب الوطنى واسم الحزب الوطنى! . .

«الغمزة لم تُحوِّق فى عضمه ابن المبرشمة! بل ركب عليها ليبيع لى اسم الحزب الوطنى:

ـ الحزب الوطنى هذا يا معلم عيد يستطيع أن ينقذك من الورطة التى أنت فيها! يؤمن جانبك القانونى!

«صفقت هاتفا فى اتجاه النصبة:

ـ هات الطلبات بسرعة يا ولد يا دقدش!

«مدّ أصابعه الطويلة الصدئة من طول ما شحمت ولحمت وفكت وربطت وضربت بالمرزبة فوق الكاوتش الخارجى للعجلة المعطوبة أيام كان صاحب ورشة للحام الكاوتش فى حى الدراسة قبل أن يدخل فى زوارق عضو مجلس الشعب عن دائرتنا ويساعده على النجاح بشكل حسم المعركة الانتخابية لصالحه، وكان النائب فنانا طيب القلب مع أنه ضابط بالقوات المسلحة إنما هو كان يؤلف التمثيليات للإذاعة بكثرة فأعجبته شخصية شحاتة السكران ولباقته التى تأكل الجو من جميع المتكلمين مع أنه لا يقول إلا خرفًا فى خرف إنما هو بصوته العالى الصفيق مفيد للانتهازيين النصابين فى السيطرة وفرض الرأى والشوشرة وإفشال المؤتمرات! أجمل وصف له قاله ابنى الدكتور هانى: إنه صفيحة زبالة الصحافة المصرية والتليفزيون يحفظ منها العبارات ويرددها كيفما اتفق ولكن بثقة كثيرا ما تخدع الكثيرين وخصوصا من العامة الذين ينصتون إليه فى شغف وتركيز، فإذا سألتهم بعد فراغه: ماذا فهموا من كلامه قالوا بصريح العبارة: لاشَىء!! كان قوة غاشمة فى يد من يجيد استخدامها لتحقيق غرض شرير! كما أن وجهه المكشوف الميت الملامح يؤهله لأن يطلب ما يشاء من تبرعات أو إكراميات أو حتى رشوة من أى ناس وباسم أى مشروع وهمى!!..

المهم أنه مد أصابعه الطويلة الكالحة فلمست يدى بما يشبه أن يكون دعوة لأن أسلمه أذنى من أجل أن يفضى إلىّ بسر خطير :

ـ الخدمة الكبرى التى يمكن أن يؤديها لك الحزب الوطنى هى أن يمكّنك من امتلاك وثيقة حكومية رسمية تثبت أن الحكومة هى التى أمرت باستقطاع مساحة من الحوش قدرها كذا لإدخالها فى خريطة طريق الأوتوستراد وأن الحكومة مستعدة لدفع تعويض عن المساحة المقتطعة من أملاك الباشا ولكن بشرط أن يظهر للعيان واحد معه إثباتات رسمية بأنه ينوب رسميا بتوكيل رسمى عن جميع الورثة ! حلو الكلام؟! يبقى أن تكون أنت الآخر حلوا . .

«صار يدعك بأطراف أصابعه شعر شاربه المبروم كأصبع الكفتة مبرقش بألوان من الأبيض والرمادى والحنائى . . قلت مشغوفا بطرافة اللعبة حتى وهى نصب فى نصب :

ـ حلو ! حلو فعلا يا شحاتة افندى! هل تستطيع أن تجيئنى بهذه الوثيقة؟

« كاد يختنق من زحام الدخان والكلام فى حلقه :

ـ إه! هذه شغلتى يا رجل! كأنك لا تعرفنى إذن؟!

« نظراته الصفيقة صارت تشيلنى وتحطنى! نظرات ولد معظم زبائنه كانوا من سائقى التريلات والشاحنات والنقل الخفيف! نظرات خشنة كأصابعه شعرت بها يا أستاذ تندب فى عينى بقسوة وتعربد فى داخلها حتى تمسك بالكاوتش الداخلى لتنزعه ثم تنفخه وتضعه فى حوض المياه القذرة ضاغطة عليه بقوة ليقتنص البقعة التى تصدر عنها فقاقيع فيدب فيها مسماراً يحدده به إلى أن يستكشف ما قد يكون من

فقاقيع أخرى . . إلخ إلخ . . صدقنى يا حضرة الأستاذ إننى كنت شاعرا بضرب المرزبة فوق دماغى وشحاتة افندى يحاول تخليص غلافى الخارجى من إطارى! كل ذلك بأسئلة عن مدى ما فى عروقى من دم يكفى للبراغيث التى ستنتشر فى ضلوعى إذا نشًفت رأسى . . وأنا يا حضرة الأستاذ تغابيت حتى صرت غبيا بالفعل، أصابنى الخرس والاشمئزاز وهو يشفط الأنفاس بشراهة ويقلب بنظراته فى جيوبى! . . فطنت إلى أنه على وشك أن يطلب حجرين للمرة الثالثة وربما طلب معهما زجاجة حاجة ساقعة! ناديت الجرسون :

- تعالى خذ حسابك يادقدش خلينى أقوم أشوف شغلى!

«ساعتها رمى باللىّ وطوى جريدته الكالحة تحت إبطه ثم وقف قائلا بلهجة مشمولة بنظرة ثعبانية :

- فكر فيما قلته لك أحسن لك طاوع أخاك السكران وإلا ندمت وربما بكيت على اللبن المسكوب! . . سهرة سعيدة يا معلم عيد!

«مشى! . . لعب الفأر فى عبى يا سعادة الأستاذ! . . فشحاته افندى السكران يستطيع أن يفعل كل شىء كما سبق وكلمتك! . . لا يهمه أن يورط المسئولين الكبار فى أشياء بشعة يعجزون عن أخذ موقف حاسم بشأنها حرصا على سمعة الحزب . . لحظتها يا سيدنا الأستاذ فهمت الفولة من أساسها : إن شحاته افندى السكران هو الذى خطط للمهندز وزوده بكل المعلومات المفيدة وتكفل بأن يقوم بتكسير عظامى بشكل ملفوف حتى أرتعب وأصير قابلا للمساومة على رشوة كبيرة يتقاسمانها معا! . . إنها فعلا ورطة ولا تنسى ياسيادة الأستاذ أننا فى عصر الفساد لا عنوان يصلح له فى كتب التاريخ إلا : عصر ازدهار الفساد فى أرض مصر الطيبة المحروسة باللصوص

الأفاقين! . . قل إن الدوامة ركبت دماغى من لحظتها وشعرت بأن الهواء يستغفلنى ليسرق نفسه من خياشيمى وأننى يجب أن أصحو بتركيز لأسحبه بالقوة إلى صدرى . .

«معروف أبو ياسر صاحب المقهى شافنى من بعيد فخيل إليه كما صاح من بعيد إذ هو يقترب أن صواميلى كلها تفككت فجاء يربطها لى! . . غمز للواد دقدش بأن يجىء بالشيشة التى يسمونها بالخطيب نسبة إلى لاعب الكرة الهداف الأهلاوى الشهير محمود الخطيب تعبيرا مجازيا عن أن هذه الشيشة السالكة دون غيرها بارعة مثل الخطيب ـ وكلهم أهلاوية ـ فى تسجيل الأهداف فى الدماغ بسرعة . . على إيقاع ضربها الأليف قال معروف :

ـ صاحى أنا لشحاته افندى يزنقك فى هذا الركن وهات يا ودودة! إياك أن يكون برم دماغك! احذر أن تتورط معه فى أى شىء! أما علمت بأن الحزب الوطنى فصله منذ ما يقرب من سنة؟ . . أووهوووه! ورفع قضايا لما شبع وأخذ فى النهاية خازوقًا بالغراء! . . شغل الصياعة والبلطجة له ناس وأماكن وحدود!

أما فى حزب كالوطنى فكان لابد أن يضربوه شلوتًا يعيده إن شاء الله إلى ورشة الكاوتش يقلب عيشه! . . من فات قديمة تاه يا رجل!

«بقيت من شدة الذهول فاشخا حنكى إلى أن انتهى أبو ياسر من تدخين حجره! بحلق فى وجهى بعينيه الخجولتين المسالمتين الحكيمتين المظللتين بأهداب وحواجب غزيرة الشعر ذى الشقرة الشامية الموغلة فى القدم فى مصر :

ـ على فكرة يا عيد ، أنا سمعت بعض حديثكما! . . أنت عدم المؤاخذة نقرت على الباب الغلط! أنا سمعت أن مهندز الطريق

سيهدم مساحة كبيرة من البستان! . . يا للكارثة! شجر نادر الوجود فى العالم العربى كله! فاكهة ممتازة الاسعار لها طالبوها من معامل الأدوية يعنى ثروة ربنا يزيد ويبارك! المسألة ليست المساحة التى يأخذونها إنما الكارثة فى قطع الشجر النادر وهو يستحيل تعويضه بأى فلوس! كنت أتخيل أنك لو استنجدت بالصحافة تنبه الحكومة إلى هذه الثروة المفيدة للبلد ولكننى تذكرت أن الحكومة فرطت فى أكبر وأهم جنينة فى العالم العربى كله كانت تحيط الحوش الخديوى! إنها حكومة مالها من غال عليها! الخسة والنذالة فيها طبع موروث! يا رجل بلا وطنية بلاً زفت! عليه العوض فى كل حاجة فى مصر! . . شوف حالك يا معلم عيد! الباب الذى يوصلك إلى سكة التفاهم موجود تحت أيدينا: سيادة اللواء متقاعد رشاد مختار نائب رئيس الحى إنه خدوم ومحبوب أكثر من رئيس الحى وعمل الحى كله يقوم على كتفيه! الأنكت من كل هذا أنه رجل نظيف اليد! . . رأيى أن تذهب إليه تعرض الأمر عليه من طقطق لسلامو عليكم وأجبه عن كل ما يسألك بشأنه! . . وبعدها استمع إلى ما سيقوله لك جيداً وستجده غاية المصلحة! إنه لن ينصحك إلا بما يوافق ضميره وإن كان فى يده شىء لمصلحتك سيفعله وبدون مقابل!

«بينى وبين سعادتك يا سيدنا الأستاذ . . . هل أنا طولت عليك؟ ضايقتك؟ مستعد للسكوت فى الحال! ماشى يا عم تشكر . . كلام الواد معروف أبو ياسر دخل دماغى . . ذهبت إلى سيادة اللواء فى مكتبه برئاسة الحى! . . وجدت بابه مفتوحا على البهلى! حتى خيل لى إنه مدير مكتبه فضحك فى طيبة قائلا إنه هو بعينه سيادة اللواء . . أهلا وسهلا مرحبا! . . الحكاية والرواية . . كان لطيفا! يساعدنى

على إيجاد الكلمة المناسبة حين أتلعثم فى طلب الوضوح . . أخيرا قال الرجل :

- شوف يا معلم عيد! لا شيء هناك الآن يدعى خارطة الطريق! . . إن الطريق لن يكون مستقيما أبدًا! إنما سيتعرج ويتلولب أحيانا! يرتفع فى مناطق وينحدر فى مناطق أخرى! وكذلك يضيق أو يتسع! . . الحاكم بأمره فى تحديد كل هذه الأمور ليس الباشمهندس ولا حتى جميع المهندسين! إنما تتحكم فى ذلك الأرض نفسها! فهى رخوة فى مكان! صلبة صخرية ضيقة وصعبة فى أماكن أخرى! . . ولم يبدأ الشق بالفعل إلا بعد أن درست هذه الأرض كلها بقعة بقعة بمجسات وأدوات معملية علمية حديثة! من مطار القاهرة إلى حلوان! ومعروف سلفا خط سير الطريق وقبل الشق معروف أيضا كل ما سيتم إزالته من مقابر عريانة أو أحواش بغض النظر عنها كتحف معمارية وعن شخصيات المدفونين فيها فحتى لو كانت لأحد عظماء التاريخ ستنقل رفاتها إلى مقابر جديدة فى القطامية أو فى أى مكان يشاؤه الورثة طالما أنهم سيتقاضون تعويضات مناسبة وملائمة لكل حالة! . . حوش ظاظا باشا لم يكن واردا من الأصل بين الأحواش المطلوب إزالتها ثم إن هذه الوصلة من الطريق تم تحديدها على الأرض منذ فترة وتوشك أن تكون جاهزة للرصف وهى بعيدة عن الحوش بمساحة كبيرة جدا جدا! بل إن هناك عدة أحواش متجاورة ستفصل بين حوش ظاظا والأوتوستراد عند اكتماله! أما هذا الذى تسميه بكبير المهندسين ورمى عليك كارت الإرهاب فى خيمته فى مشهد بلطجة فإنه بكل أسف المدير التنفيذى للمشروع كله، يعمل الجميع تحت إمرته! . . إنه والعياذ بالله كتلة جراثيم من كافة

أمراض المجتمع المصرى ابن خطيئة الانفتاح أو بمعنى أصح الانفشاخ الاقتصادى! وهو من السفلة الذين علمتهم الدولة بالمجان فأصبح خبيرا فى شغلته ولكن بلا تربية ولا أخلاق ولا ضمير! . . هو لن يتركك فى حالك خل بالك! . . لقد وضح أنه جمع عنك وعن الحوش والبستان معلومات وتحريات يرهبك بها طمعا فى قرشين! . . المصيبة أنه بحكم موقعه العملى قادر على الإضرار بك! فلو أنت تحديته ففى استطاعته اختلاق ضرورة فنية يقنع بها أمثاله الأدنياء من رجال الإدارة حتى يباح له الاعتداء على البستان بأى شكل تخريبى مقصود! والجرافات والكاسحات وبوابير الدك كلها آلات لا عقل لها خصوصا إذا أشرف عليها الأدنياء معدومو الضمير! . . فى الواقع يصعب علىّ أن أقول لك هذا ولكن المثل يقول إذا وجدت نفسك فى بلد لا تعرف الله فأنت لن تواجه بتهمة الكفر! . . ونحن اليوم فى زمن العهر بكل المعانى: البغائى والسياسى والاقتصادى والفنى والأداء الوظيفى فى كل مكان! . . الشرفاء محاربون واقعون بين حجرى رحى: الثروة مع انعدام الضمير! أو الفقر والعوز والاضطهاد إذا تشبثت بالضمير!! . . رأيى يا معلم عيد أن البستان ثروة حتى على المستوى الوطنى لا يجب أن تفرط فيها بأى شكل!! حرام! لا تترك سافلا كهذا يخربه بالمجان! . . دافع عن مملكتك بكل الأساليب الممكنة! . . من حسن حظك أن عدوك واضح وأغراضه الدنيئة فائحة وهو يساومك على بلاطة! . . نصيحتى وهى أخوية محضة ولا دخل لها بموقعى الرسمى هنا أن تعود إلى التفاهم مع زفت الطين هذا! . . أنت وشطارتك معه! إنه كلب شم رائحة شواء ولن يغادره إلا إن ألقيت إليه بلقمة ما أن يأكلها

حتى يصير من كلاب حراستك! ولسوف تفاجأ بأن قاطع الطريق هذا قد تحول مائة وثمانين درجة وعندها ستشعر أن الثمن الذى دفعته للكلب كان بخسًا تافهًا!! . .

«كلام الرجل الطيب دخل دماغى يا أستاذ! كان الرجل من عيلة الدوغرى! وموجوعا مثلنا من الفساد! . . اطمأن بالى إلى أن هذا الرجل الطيب ليس يدبر للإيقاع بالمهندس إياه متلبسا بالرشوة على قفاى! . . حسبتها فى دماغى يا أستاذ: شيخ المنسر هذا دائم الاحتياج لى كل يوم تقريبا كلما اقترب زحف الشق بالهديم نحو مقبرة من المقابر التابعة لى حيث إننى كما تعلم مسئول عن مقابر هذه المنطقة المحيطة بالحوش وفى درج مكتبى مفاتيح أبوابها وسجلات بأسماء المدفونين فيها مع تاريخ الدفن والتصريحات والأوراق اللازمة وعناوين وأرقام تليفونات أصحاب المقابر والأحواش! كما أن الصلة قائمة بينى وبينهم أنا وصبيانى طوال معظم أيام السنة إذ إن الكثيرين يأتون لزيارة موتاهم يوم الخميس من كل أسبوع والبعض منهم يفضل قضاء كل أيام الأعياد فى رحاب موتاهم! ولو ساءت علاقتى بشيخ المنسر هذا سيخلق لى مشاكل مع أهالى الموتى تقلق راحتى! . . قل إننى اضطررت إلى فرد ملامح وجهى تحت بصر شيخ المنسر! . . لاطفنى بكلمة فلاطفته بعبارات ضيقت المسافة بيننا! لبّى دعوتى على الغداء فى بيتى! . . المدهش أن أخلاق قاطع الطريق كانت حاضرة على المائدة! نظراته الشرهة كانت تفتش فى كل شىء تراه! تثمن كل شىء لافت لنظرها! حتى الملاعق والسكاكين والشوكات الفضية كاد يخفيها فى شنطته! . . جليطة لم أرها فى حياتى:

ـ سامحنى يا معلم عيد! لم أكن أتوقع أن تكون رجلا متحضرا هكذا وبيتك فخيم وأهله كرماء!

«قلت فى عقل بالى : قربنا! وعندما نظر فى طبق الفاكهة أصابه ذهول من هذه الأصناف التى لم يسمع عنها طول حياته! قلت له :

- أعطنى عنوان بيتك الذى يقيم فيه عيالك وأنا أرسل لكم طرداً من فواكه نادرة تكفيكم لوقت طويل! . .

«فى الحال كتب عنوانه فى الإسكندرية وهو يقول :

- فعلا فعلا! هذا البستان خسارة فى الإعدام! . .

«أعطانى الورقة وانجعص :

الود ودى أن أنقذ لك البستان من الإعدام ولكن الود ليس ودى مع الأسف! . . هناك عيون تترصدنى لو أننى والست معك وأزحت الطريق بعيداً عن حرمة البستان علما بأنها عيون شرهة تندب فيها رصاصة لكننا نستطيع استبدال الرصاصة بلقمة عيش نسد بها أفواههم تنزل الغشاوة فى الحال على عيونهم!! . .

- يعنى يكفيكم كم؟ . . خمسة آلاف جنيه مثلا؟ . .

«قال رافعا ذراعه المتختخ من أكل السحت :

- حيلك حيلك يا معلم عيد! خمسة آلاف ملطوش مبلغ لا يملأ عين أصغر موظف يؤدى أتفه عمل فى المشروع! . . إنى قد استرحت لك وسأريحك فى اختصار ودون لف أو دوران! . . لكى أضمن لك العفو التام عن البستان والحوش لا أقل من مائة ألف جنيه تحت يدى أوزعها بمعرفتى على كل واحد حسب درجة أهميته وسوف أسد بعض ثقوب فى رئاسة الحى، أما جهودى فى كتابة التقرير العلمى الذى سنستند عليه فى صرف النظر عن أخذ شريحة من البستان فلا أجر لى عليها! هذا كل ما فى صدرى

وأنت حر التصرف وأنا خدامك فى كل الأحوال إكراما للعيش والملح الذى أكلناه اليوم معا!!..

«استهولت المبلغ طبعا يا أستاذ!.. رد فعلى كان فزعا أفزعه! رقق ملامحه! لمست فيها - لأول مرة - الشعور بالإشفاق علىّ! عززه بقوله:

- طيب ماذا فى مقدورك أن تدفع؟..

« قلت إن سقفى ينتهى عند عشرة.. خمسة عشر ألفا هى كل مدخراتى الآن، وأنه لا يجب أن يغتر فى البستان لأن فواكهه كلها أرستقراطية وغريبة ولا ثمن لها فى أسواقنا، ولهذا نقدمها هدايا لمن يفهمون قيمتها الغذائية كما أن محصول الفواكه البلدى يستهلكه الجنايني والسماسرة والأعطاب التى تضرب نصفه!..

من هنا إلى هناك توصلنا إلى الاتفاق على عشرين ألفا أدفعها مرة واحدة!.. ولكن! من يضمن لى أننى بعد دفع المبلغ لن أفاجأ ذات لحظة بالبلدوزر ينطح جدران بستانى فى مقتل؟!.. قال إن الحل سهل وبسيط: يتعين علىّ أن أتقدم بطلب استفسار إلى الإدارة التنفيذية للمشروع أقول فيه إنه قد نمى إلى علمى أن حوش ظاظا باشا الواقع تحت إشرافى والشهير بحوش عيد مرشح لاقتطاع جزء منه يدخل فى طريق الأوتوستراد فهل هذا الخبر صحيح لأخطر ورثة الحوش بذلك أم أنها مجرد شائعة؟ أرجو الإفادة والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته! إمضاء: المعلم عيد عيد أبو القاسم الطربى الشهير فى منطقة طرب المجاورين!.. ولسوف أتلقى نفس ورقة الطلب وقد أضيفت عليها تأشيرة بحاشية من مدير إدارة التنفيذ تقول بصريح العبارة إن الحوش المذكور خارج خط سير الطريق وليس صحيحا ما يشاع بأن المشروع سيقترب منه! إمضاء: سيادة المدير ممهورا بالخاتم الرسمى للشركة

صاحبة الامتياز . . أسلمه الطلب! ثم أعود بعد يومين لأسلم وأستلم! . .

«الخدمة التى أطلبها من حضرتك الآن بما أنك صحافى وكاتب وعقلك لاشك أكبر وأوسع من عقلنا أن تنيرنى : هل أكمل المشوار للنهاية؟ وهل أكون معذوراً لو فعلت؟ أم أننى أكون مشاركا فى الفساد؟ أنا على العموم لا أزال على البر . . فإن كنت حضرتك تؤيدنى فيما أنوى أن أفعل فسأكون شاكرا لك الجميل لو تفضلت حضرتك وكتبت لى صيغة الطلب بشكل يحمينى من المغارز القانونية التى يمكن لمثلى أن يقع فيها متصوراً أنه الفائز فى الصفقة وهو لا يدرى أنه قد جلب على نفسه مصيبة والعياذ بالله! . . أنا عارف أنى فاجأتك . . على كل حال أمامنا يومان ثلاثة تكون حضرتك فكرت فى الموضوع وليكن فى معلوم حضرتك أننى لن أتصرف أى تصرف فى هذا الشأن إلا إن قلت لى : افعل . . تصبح على خير! . . خليك مع الأستاذ يا وهدان! بالأمانة خليك . . سلام عليكم» .

٥
واجهة مُبهجة

أحببت «أسعد البساتينى» أو أسعد الدُّهُلّ كما يحلو للجميع اختصاره. هو يمت بصلة قربى للمعلم عيد أبو القاسم؛ يفخر بأنه من حملة الشهادة الابتدائية القديمة التى هى بمقام جامعة اليوم، وبأنه يقرأ لطه حسين ونجيب محفوظ والمنفلوطى والعقاد ومحمود تيمور وأنيس منصور؛ ولقد يتضح بعد حين أنه لم يقرأ لأىٍ من هؤلاء أكثر من بضع صفحات على سبيل الصدفة التى ألقتْ به بين بعض من يحترفون القراءة؛ إلا أنه على درجة جيدة من اللباقة وزرابة اللسان؛ لكنه لابد أن يشعرك بين لحظة وأخرى بأنه ملطوش فى عقله بعطب ما؛ فهو على خصومة دائمة - بحق أحيانا وفى معظم الأحايين لله فى لله - مع كافة الأعراف والتقاليد والقوانين والسلوكات والأقوال المأثورة. . ثائر هو على كل شىء دونما وعى حقيقى يبرر ثورته فإذا هى ثورة فكاهية مسلية جداً. ورغم أنه كأبيه كجده كجميع أفراد عائلته ولد مثلهم فى بستان، يعمل أبوه فيه بستانيا، له فيه مسكن ومتاع فإنه - دونَهم جميعا - قد تمرد على شغلة البستنة مع أنه - وياللعجب - أنبغ إخوته فى فنون زراعة ورعاية البساتين فطره الله عليها بالمولد والنشأة؛ قيل لأن مخه فى الأصل ضارب ولا يطيق الوجود تحت أى مريسة أو نظام يخضعه لأى واجب أو مسئولية قد تنقَّل بين جميع

الحرف، من إصلاح بوابير الجاز إلى بيع أنابيب البوتاجاز؛ نجح فى كل حرفة مارسها إلا أنه مال إلى البحث عن المهنة المربحة بأقل مجهود؛ فإذا تجمع فى جيبه مائة جنيه رقد فى بيته يأكل ويحشش حتى آخر مليم؛ عندئذ يتكل على الله وينزل إلى الشارع متأهبا للعمل فى أول مهنة تلتقيه فى الطريق طالما أنه بات يجيد فى كل المهن الشعبية الدارجة. مع كل ذلك هو موظف حكومى يصفه بالمحترم وعلى درجة وظيفية: ساع فى هيئة الاستعلامات؛ إلا أن ملفه الملىء بأغرب المخالفات، وتاريخه الوظيفى الحافل بالصدامات المجانية، وإصراره الدائم على مناقشة البديهيات والدخول فيما لا يعنيه وفرض نفسه على أى حديث بين اثنين لا لشىء إلا ليثبت أنه أبو العريف. . كل ذلك أدى إلى أن طهقت الهيئة كلها منه ومن سيرته، فأمره رئيس الهيئة شخصيا بأن يبقى فى بيته لا يريهم وجهه إلا ليقبض مرتبه بالبدلات والحوافز والعلاوات الدورية. .

كان المعلم عيد أبو القاسم يستخسر «هذا الولد» فى قعدة البيت؛ فبحكم القرابة بينهما يعرف أن أسعد قد ورث عن أجداده خبرة واسعة وعميقة بفلاحة البساتين لا يقدرها حق قدرها إلا من قُدِّر له أن يشهد حى البساتين أيام أن كان اسما على مسمى، محيطا عريضا متراميا من حدائق غناء، بساتين، بساتين، بساتين، جنات يجرى من تحتها نهر النيل كما شافها المعلم عيد فى طفولته أواخر عزها فى ثلاثينيات القرن العشرين. وكان المعلم عيد يعرف أن أسعد غير مرغوب فيه من أحد، وأنه تزوج وأنجب ثلاث بنات من امرأة طيبة غلبانة مقطوعة من شجرة ولكنها حكيمة فى تصرفاتها فاحتملت نزقه بصبر وقاومته بالدفء والحنان، أسكنته فى حوش فى قرافة الإمام الشافعى يملكه أحد أقارب

أمها من بعيد جدا، وهو من كبار أثرياء حى البساتين، لديه مزرعة كبيرة للماشية وعديد من محلات الجزارة فى جميع أحياء القاهرة، ناهيك عن مطعم شهير للكباب والكفتة فى رحاب المشهد الحسينى؛ وهى - أم جيجى زوج أسعد الدهل - تعمل شبه خادمة فى بيته تمكث فيه من الصباح إلى قرب صلاة المغرب ثم تعود إلى الحوش لتجد أسعد جالسا يحشش فى هدوء ويرعى البنات الثلاث وطائفة من الأرانب والبط والدجاج ويستمع إلى الراديو الترانزستور الموصول بالكهرباء، فيطمئن بالها. ومنذ استقر أسعد وركن إلى جوار عياله دعا المعلم عيد وصحابه للتحشيش عنده فى السر والكتمان؛ فجرب المعلم قعدته فأعجبته فأدمنها وبات يصطحب صديقيه الحميمين الملازمين له كل ليلة: الحاج حسين الوراق الذى يعمل فى تجارة الورق ويملك ورشة ومطابع فى أعماق عطفة دفينة فى حى العتبة يصنع الكراريس والنوت والنتائج والأجندات السنوية بجميع أشكالها وأحجامها وأغراضها الدعائية، وله إلى ذلك أنشطة تجارية غامضة ومتداخلة؛ يُشطِّب شغله فى الثامنة مساء كل يوم فيدخل استراحته الملحقة بورشته ليستحم ويغير ملابس الشغل باللبس البلدى المعتبر، يركب سيارته المرسيدس متوجها إلى صديق عمره المعلم عيد أبو القاسم. أما الصديق الثانى للمعلم عيد فهو أبو ميمى، رجل خفيف الظل، طويل فارع كالنخلة، أسمر محروق، لهجته كلهجة الحاج حسين فيها التطجين البلدى الذى برع فى تشخيصه الممثل عبد الفتاح القصرى فى أفلامه؛ وبقدر ما فى وجه الحاج حسين بلحيته السنية المشذبة من علامات صلاح وتقوى وورع تظهر على وجه أبو ميمى علامات الشقاوة والخربشة؛ الحاج حسين موهوب فى حفظ الأحاديث النبوية المسندة وشروحات المفسرين

للقرآن الكريم، بارع كل البراعة فى ربط الآيات القرآنية والأحاديث القدسية بمجريات الأمور فى حياتنا؛ أما أبو ميمى فموهوب حقا فى حلاوة الحس الغنائى إذا اندمج فى دندنة ألحان عبد الوهاب لأم كلثوم تتحول خشونة صوته إلى نعومة شديدة التأثير على المستمع تجعل جسمه يقشعر من فرط التأثر؛ قيل إنه كان فى الأصل عربجيا لكنه فى أواسط سبعينيات القرن العشرين باع عربات الكارو بجيادها ثم اشترى بدلاً منها ثلاث سيارات نقل خفيف ماركة سوزوكى كانت وجه السعد عليه فإذا هو فى بحر سنوات عشر يصبح صاحب عدة شركات للنقل الثقيل يمتلك أسطولاً من التريلات والملاكى والباصات لنقل موظفيه وعماله. . ثلاثتهم يدخنون أفخر أنواع الحشيش والأفيون؛ وثلاثتهم يتبارون فى تغيير موديلات سياراتهم الملاكى. عبر قعدات طويلة متكررة استطاع المعلم عيد أن ينفذ ما خطط له: إغراء أسعد الدهل بالشغل عنده فى بستانه الكبير المحتاج لبستانى مثله؛ دخل من الباب الرئيس، انفرد بأم جيجى وأقنعها بأهمية الانتقال إلى بستانه حيث أعدّ لها فيه بيتا محترما بعفشة مياه صحية وحيث قرر لزوجها راتبا شهريا مغريا بخلاف منح من خيرات المحصول السنوى للفاكهة. .

بالفعل أقام للدهل وعياله بيتا داخل البستان لصق بوابته الكبيرة من الجهة الشرقية وهى تبعد عن الحوش حوالى كيلو متر داخل الامتداد الطولى للبستان الذى تبلغ مساحة عرضه نصف مساحة طوله تقريبا. . وفيما مضى كان النظام اليومى للمعلم عيد يجرى على هذا النحو: يجىء من بيته فى الضحى إلى مكتبه أسفل الشرفة ليباشر عمله فى استقبال أى طارئ، يكون فى استقبال أهل الميت ليشرف بنفسه على عملية الدفن، وفى توديعهم بنفس الحفاوة الرصينة اللبقة الرجولية التى

تنجح دائما فى إقناع أهل الميت أنهم من أكابر القوم حقًا لا مجاملة؛ من ثم فإن ميتهم سيلقى فى رقدته الأبدية رعاية تليق بعلية القوم. وإنه لجدير بالملاحظة أن الكثيرين من أصحاب هذه الأحواش والمقابر - كما لاحظت بنفسى - قد لا يكون لديهم إلمام كامل بتاريخ عائلاتهم ووجوه أعيانها على مدى الأجيال؛ وإنهم لينصتون إليه بشغف عظيم وهو يحكى لهم أطرافًا من أمجاد أجاويدهم الذين ربما سمع عنهم من أبيه وربما شافهم فى طفولته البعيدة ولم ينسهم، وربما كان على صداقة ببعض من عاصرهم. . ذلك فن خطير ذو مهابة حقا: أن يجعل الطربى من نفسه واجهة مبهجة للعالم الآخر المجهول الذى سننتقل إليه جميعا بعد الموت؛ إن المعلم عيد أبو القاسم كان ذا موهبة عظيمة فى هذا الصدد، يعطى لذوى الموتى - الذين حتما سيموتون إن عاجلا أو آجلا - شعوراً شبه يقينى بأنهم عند موتهم سيعبرون إلى عالم عائلى، فيه ناس تعرفهم جيدا ولسوف يأتنسون بهم فتزول الغربة؛ إن الهم الأكبر عندما يفكر أحدنا فى الموت ينحصر فى ضيق القبر وغربته؛ فكان المعلم عيد يوحى لذوى الموتى بأنهم حينما يحين دورهم فى المجىء إلى القبر سيجدون فى انتظارهم روحا إنسانيا واسع الصدر يمنحهم الدفء والحنو فينسيهم ضيق القبر وغربته؛ لا غرابة فإن المعلم عيد من فرط عشقه لعمله ووعيه الروحى الفطرى به كان لا يكف عن التقليب فى أوراق وبيانات المدفونين فى أرشيفه العتيق الحافل بغرائب المعلومات عن أسباب الوفيات، وإذ ينتهى المعلم عيد من شغل المكتب ينصرف ماشيا داخل البستان على قدميه، واحدة، واحدة، منها رياضة ومنها تفقُد لأحوال الشجر والثمار، يرفل فى القفطان البلدى السخى الواسع الذيل يتضوع منه العطر، وإيقاع العصا الأبنوس على حصباء الممرات يصنع لمشيته إيقاعا لطيفا مميزا، يصل إلى البوابة الشرقية ليجد السائق

بالعربة المرسيدس الخنزيرة فى انتظاره، يقوده إلى مقابر الإمام الشافعى حيث يصطبح على السريع بحجرين يسقيهما له أسعد الدهل فى رواقة، ثم يرحل عائدا إلى بيته فيتغدى ويتكوع على السرير مدة ساعتين ثم يصحو ليشرب الشاى بالحليب مع البسكويت أو الكيك، يتوجه إلى مسجد قايتباى ليصلى المغرب جماعة، من المغرب إلى العشاء يجلس بين صحابه وزملائه ومحبيه على مقهى أبو ياسر؛ يخرج من صلاة العشاء ليجد «أبو ميمى» فى انتظاره على المقهى يسلك صدره بنفسين شيشة من المعسل القرديحى؛ ما يكاد هو الآخر يشرع فى التسليك حتى تزحف نحوهما سيارة الحاج حسين الوراق الذى يستحسن فكرة التسليك ولو بنفس واحد على الطاير؛ إن هى إلا دقائق وتنسرب سياراتهم الثلاث واحدة وراء الأخرى فى اتجاه مقابر الإمام الشافعى لإدراك السهرة عند أسعد الدهل. .

بعد مجىء أسعد الدهل إلى البستان تغير النظام اليومى للمعلم عيد، أصبح يأتى من منزله إلى البوابة الشرقية رأسا، ليعرج على تعريشة أسعد الدهل يسقيه عشرة حجارة فى السريع لزوم الاصطباحة والاستعداد لمواجهة ما قد يطرأ من أمور تقتضى طول البال وهدوء الأعصاب؛ يتوجه سيرا على قدميه إلى حجرة المكتب ومن المكتب يرتد عائدا إلى تعريشة الدهل فيسقيه عشرة حجارة أخرى تفتح شهيته للغداء وتؤهله لنوم قيلولة مريح. لم يعد ضروريا أن يتلاقى الصحاب على المقهى؛ فلقد أقام لهم الدهل مصلاة غاية فى الجمال وخفة الظل والنظافة. كانوا يذهبون تلقائيا إلى البستان الذى نظفه الدهل وأضفى عليه رونقا بأحواض متعددة لجميع أصناف الخضروات والزهور والورود البلدى؛ صنع من الصخور والأشجار الميتة وشرائح وأبواب

من خردة السيارات التالفة مقاعد وخمائل فولكلورية الشكل. أما التعريشة التى يسكنها فقد أحالها إلى كهف سحرى لا تقاوم جاذبيته؛ فناؤها غير المسقوف فى غير حاجة إلى سقف إذ تلتف حوله أشجار وارفة تصنع فوقه قبة خضراء من فروع خضراء معبأة بالثمار وبالمشاعر الكثيفة..

أنباء هذه القعدة السحرية الشديدة الخصوصية كانت تبلغنى عن طريق الحدس والتخمين، كأن تسقط كلمة عفوية من حنك الخفير وهدان إذ يبرر سبب تأخره عنى فى بعض الليالى قائلا إنه كان مع المعلم عند أسعد فى البستان، أو أراه أحيانا ممسكا بباكو من المعسل فيما يهرول داخل البستان فيتأكد لى أن ثمة قعدة خصوصية فى مكان خفى فى أعماق هذا البستان حيث لم تكن علاقتى الحديثة بالمكان تسمح لى بالتجوال فى أحشائه البعيدة. والواقع أننى سمعت كثيرا آنذاك عن أسعد الدهل، إذ إنه وارد فى أدبيات أهل المنطقة كشخصية بدت لى فولكلورية يعرفها الجميع كبارا وصغارا رجالاً ونساءً، ويبدو أن الجميع قد تعامل معه بشكل أو بآخر، فليس ثمة من أحد ممن ألتقيهم على مقهى أبى ياسر أو أى مقهى فى المنطقة إلا ولديه نادرة أو أكثر عن أسعد الدهل حتى خيل لى ذات لحظة أنه من طراز شخصيتى جحا وأبى النواس فى المأثور الشعبى الموروث.. إلى أن قُدر لى أن ألتقيه وجها لوجه وأن أحظى بالقعدة فى كهفه السحرى..

فى ذلك اليوم كنت قد رافقت المعلم عيد أبو القاسم إلى المخيم الذى يقيم فيه شيخ المهندسين إياه لنتسلم الطلب الذى كتبته بخط يدى ثم على الآلة الكاتبة نستفسر فيه عن وضعية حوش ظاظا من طريق الأوتوستراد؛ انتظرته فى السيارة حتى جاء منشرح الصدر، حين مشت

السيارة أعطانى الطلب لأراجعه فوجدته موثقا بالختم وعدة توقيعات، أعدته إليه. مشينا بحذاء سور البستان ببطء لشدة سوء الأرض تحت السيارة. عند البوابة الشرقية للبستان توقفت السيارة فى ركنتها المعتادة؛ نزل المعلم عيد قائلا فى دفء وأريحية:

- «انزل . . أنت الآن منا وعلينا! سأريك قعدتى الخصوصية السرية، فإن أعجبتك فهى حلال عليك تأتيها وقتما تشاء وتبقى فيها كيفما شئت! هى على فكرة ستشدك وستأخذك من نفسك ومن الدنيا كلها!».

وقد صدق؛ قفز قلبى من بين أضلعى وتربع فوق كرسى داخل جذع الشجرة؛ كان أول خاطر طاف بذهنى لحظتذاك هو كيفية اختراع وسيلة تطمئننى على أولادى عندما تستلبنى هذه القعدة تماما. بقدر سعادتى وابتهاجى بالقعدة من أول وهلة خفت إلى حد الارتعاش خشية الاستسلام التام لسحر هذا المكان فتنقطع صلتى بالحياة خارجه؛ لكننى . . كعادتى دائما - كان لابد أن أخوض التجربة لأتأكد مرارًا وتكرارًا أن الجمال الخالص فى كل شىء ليس يوجد - ربما - على الإطلاق؛ فكل جمال لابد أن يتضح لنا خلال تذوقه أن فيه عطبًا ما، نقصا ما، تشوها ما، شيئا ما مثيرا للقلق، للوجع، للصدمة للنفور، وأن القول المصرى المأثور «الحلو ما بيكملش» ليس يأتى من فراغ . . فلقد كان أسعد الدهل بالنسبة لهذه القعدة الساحرة هو الداء العضال الذى يجب أن نحتمل ثقله بصبر أيوب من أجل خاطر عيون جمال المكان . . هذا على الرغم مما فى أسعد الدهل من طيبة قلب مفرطة!.

٦
عزف منفرد على مقبرة

المشهد كان غريبا بل وشاذًا غاية الشذوذ، ليس ينبو عن الذوق فحسب بل ويتنافى مع السلوك.. هكذا بدا لى المشهد من أوله؛ وإذ رفضت تصديقه وهو تحت بصرى وسمعى، رنّ فى رأسى صوت ساخر بحدة تشبهنى وتتماهى مع شخصيتى: أنت يا من جئت إلى حوش فى القرافة لكى تبدع فيه أعمالا أدبية تطمح أن تكون ذات أبنية فنية يعتد بها، إذا كانت تجربتك أنت نفسك شاذة وغريبة فما الغرابة فى أن تريك تجربتك هذه مشاهد أغرب وتجارب أكثر شذوذا؟!..

فى تلك الليلة كان القمر فى كامل صفائه يطرح على كل المرئيات ملاءة شفافة من الضوء النقى. كانت الشلة قد انصرفت فى التاسعة مساء لتلحق بمراسيم الليلة الكبيرة لمولد السيدة زينب؛ وعند منتصف الليل ازداد تململ أسعد الدهل ثم نهض قائلا:

- «البيت بيتك! إياك أن تمشى قبل أن أعود لك ومعى الحمص والحلاوة الشعر لعيالك!».

لم يعطنى فرصة للاعتراض، فى لمح البصر اختفى تاركا لى الحجارة مرصوصة جاهزة. وكنت أعرف أن أم جيجى وبناتها سيقضين الليلة فى رحاب السيدة فى خدمة يقيمها جزار البساتين الذى تعمل فى بيته أم

جيجى. صار الهدوء سكينة كأن جميع ما على الأرض من كائنات وأرواح انصرفت إلى مولد السيدة زينب؛ شعرت بدبيب الرهبة؛ استرخيت فى قعدتى مغمضا عينى لبرهة؛ قاومت الخوف بانتحال الجسارة فوقفت لتليين مفاصلى؛ مشيت رائحا جائيا داخل التعريشة؛ ضاعف ضوء القمر من جسارتى، فتحت البوابة، خطوت خارجا؛ انتبهت إلى شىء لم يلفت نظرى من قبل وإن كنت قد لاحظت وجوده؛ كوخ مبروم مستطيل مبنى بالأسمنت بداخله مصطبة أسمنتية من المفترض أن يجلس فيه خفير أو بواب أو حارس ليلى، ظهره للمقطم وفيه نافذة صغيرة كاشفة، ووجهه فى اتجاه القلعة، الجالس فوق مصطبته العالية يكشف المقابر كلها على امتداد البصر حتى طريق صلاح سالم. . جلست على هذه المصطبة مفعما بمشاعر مضطربة بين لذة ممارسة الجسارة والخوف مما قد تتمخض عنه خيمة القمر الضوئية من مفاجآت مفزعة؛ إلا أن جمال القمر وانفساح الفضاء والهواء النقى الرهيف كل ذلك أغرانى باستعذاب الجسارة فى مواجهة المجهول الذى أتوق دائما لملاقاته بشغف أيًا كان خطره. . كانت نظراتى تسقط من علٍ تتكسر فى مهاوسحيقة تتكوم فى سفحها مدينة القاهرة العتيقة الشائخة، كأن عربة قمامة خرافية الحجم دلقتها فى هذه الوهدة وتركتها مئات القرون من الزمان حتى تعفنت وامتلأت بألوان لا حصر لها من الحشرات السامة. .

بشعور من الإحباط المؤلم سحبت نظرتى، لمتها حوالى، صارت تتلكأ فى المرئى المألوف الذى اكتسب حميمية شخصية حتى وإن كان مجرد مقابر باركة على الأرض تتخللها حجرات وأكواخ وخرائب. .

على الأرض ظهر خيال شبح يزحف راسما على الأرض ظل امرأة تحمل على صدرها طفلا؛ ما لبث الظل حتى تجسد فى صورة حية لرجل غاية فى الرصانة والأناقة يرتدى قميصا وسروالأ فاخرين يحتضن على صدره آلة الكمان فى علبتها المخروطية؛ كان يمشى بهدوء وروية ووثوق من سلامة الطريق. . مر من أمامى دون أن يلحظنى فلفحنى جانب وجهه الأيسر بغزارة شعره الفضى وفورمة تسريحته المشهورة المألوفة لى جداً جداً. ما إن رأيت ظهره ومشيته من الخلف حتى تأكدت أنه يظلع فى مشيته؛ عرفته فى الحال؛ هبت على وجهى بعض أشعته. . إنه عازف الكمان الشهير إلى حد النجومية المبكرة وسط عماليق ضخام. . شريف الحنفى؛ والسر فى مشيته الظلعاء هذه أن الأصبع الكبير لقدمه اليسرى مبتور إثر جرح رفض الالتئام بفعل مرض السكر. . يا إلهى! ما الذى يأتى به إلى مكان كهذا فى هذه الساعة المتأخرة من الليل وحده، دونما رفيق أو مرشد فى سكك كهذه شديدة الوعورة برغم ضوء القمر والنور الضئيل المنبعث من البستان؟! إن شريف الحنفى ليس من طبقة العوالم لأتوقع أن يكون ذاهبا إلى فرح فى الدويقة أو لعله ضل الطريق!! إنما هو نجم محترم، من أرقى عازفى الكمان فى الشرق الأوسط كله، كما تشهد بذلك المقالات المنشورة عنه بلغات كثيرة حيث تقام له وحده حفلات خاصة على مسرح الأوبرا ومعظم مسارح العواصم العالمية يصول فيها ويجول بآلة الكمان مع بطانة موسيقية صغيرة ترافقه لكى تسلطنه وتمهد له دخلات يمتطى فيها صهوة النغم، يفتتح في كل صولة عالما من الأنغام، وفى كل جولة عالما من المشاعر القوية المجددة للدماء فى عروق سامعها؛ ثم إنه يضرب به المثل على رقى السلوك وحسن السمعة وإلا ما حظى بشرف العزف

وراء سيدة وكل سيدات الغناء العربى ناهيك عن سادته؛ لا مخدرات لا كحوليات لا خبص أو لبص، لا شىء يدعوه أو يقوده أو يرغمه أو يزين له أن يضل هكذا فى مثل هذا المكان الرهيب!!..

كنت على وشك أن أناديه؛ لكننى فضلت التريث تاركًا له حرية التصرف فيما يكون قد جاء من أجله هاهنا على أن أتابعه بكل دقة بحيث أتمكن من إدراكه إذا ما وقع فى شر أعماله أو أعمال الآخرين. تحفزت كل ملكاتى، جهزت أعصابى للتدخل بلباقة عند اللزوم حتى لا يتعرض هذا الرجل المحترم ذو القيمة الفنية الثمينة للهوان. استدرت واضعا رأسى كله فى النافذة المفتوحة على المقطم فصار الفنان تحت طائلة البصر مهما جاس بين طائفة المقابر فى هذه الهضبة الصغيرة.. ها هو ذا يتوقف أمام شاهد رخامى ضخم مهيب يتميز بالنظافة وبعدة أشجار من الصبار حواليه؛ هذه المقبرة تدخل فى تبعية المعلم عيد أبو القاسم ومن الواضح أنه يعتنى بها عناية خاصة، فلا بد إذن أن يكون شريف الحنفى علىَ صلة ما بهذه المقبرة، ومن ثم فلا بد أن يكون على اتصال دائم بالمعلم عيد يغدق عليه الهدايا والعطايا من أجل خاطر عيون الراقد تحت هذا الشاهد الرخامى المهيب. ها هو ذا يضع صندوق الكمان فوق سطح الشاهد؛ ثم وقف خافض الجبين كأنه يصلى، الأرجح أنه كان يقرأ الفاتحة فى تأثر يبدو عميقا مرعشا لبدنه النحيل. أخذ يمسح بكفيه على وجهه، يرفع رأسه للسماء مبتهلا فى ضراعة، جعل يلف ويدور حول المقبرة، عدة مرات لعلها سبعا، أخيرا ارتكن بكوعيه على سطح المقبرة، اندمج فى شرود أشبه بالغيبوبة المتجمدة فبدا لى شكله فى غاية من التعاسة؛ ياربى! هذا النجم المرموق فى بقاع كثيرة من العالم وتذوب فى غرامه أجمل الجميلات من كل جنس ولون

وهو محروم مقهور بالسكر اللعين، ينفس عن كل مكبوتات الناس جميعهم بأوتار كمانه العبقرى؛ ها هو ذا الآن مجرد كائن ضعيف بائس تعيس!! . .

ما لم أكن أتوقعه على الإطلاق أو حتى أتصوره قد وقع: فتح علبة الكمان، رفع الكمان، نتش أوتاره فى دعابة من أنامله مثلما يلكز الواحد منا طفله برفق لإيقاظه من النوم. . ردُّ فعل الأوتار أنبأنى بأنها لا تزال ساخنة مشدودة وأنها على أهبة الاستعداد لأن تسرج له خيول النغم من الجياد الأصيلة الرامحة بسرعة البرق، أسند الكمان بذقنه؛ امتد القوس، ألقى على الأوتار تحية سلام الفجر، عافاها بالعافية؛ زغردت مغتبطة فى ترق استهدف تصعيد النغم إلى كرسى العرش الجالس فوقه القمر. . ماً لبث الوجود كله حتى انصهر فى بوتقة النغم صار ألوانا طروبة مبهجة فى حدائق شاسعة فيها أسراب حمام وسنابل قمح وموارد ماء رقراقة صافية وكواعب حسان. . صار الكون وجداً خالصا، ذائيا فى ابتهالات وترانيم. . صارت طبقات الظل والغبار تنزاح عن الشواهد. . زحفت البهجة على كل شىء، صارت رقاب الشواهد الرخامية تتمايل والظلال تتراقص وأفرع الصبار تبدو كأنها أحد مصادر النغم.

بعد برهة وجيزة صرت أمامه؛ تعانقنا؛ وجهه كان يزدحم بمشاعر الدهشة والاستنكار من وجودى هاهنا فى مثل هذا الوقت من ساعة السحر؛ لكن يبدو أن ملامح وجهى كانت هى الأخرى طافحة بنفس المشاعر، فحدث ما يشبه «القفلة» فى النظام الكهربى، اصطك الشعوران ببعضهما وجها لوجه ثم ارتد كل شعور إلى صاحبه قانعا بأسبابه. . قلت له:

- «ما كل هذه التجليات المروعة؟».

وضع رأسه على صدرى؛ انفجر باكيا بحرقة كطفل بائس يتيم الأبوين؛ قال خلال الدموع:

- «أمى ترقد تحت هذه القبة منذ عشر سنوات! ومنذ خمس سنوات لم أفلح فى زيارتها مرة واحدة من كثرة السفر وازدحام برنامجى اليومى والليلى على جسد عليل بمرض السكر!.. نالنى عقابها فى الشهور الأخيرة!.. جاءتنى فى المنام عدة مرات أراها جالسة فى حجرتها غاضبة تنتظر أن أدخل عليها لأصالحها فأشعر بأن هناك شيئا مجهولا يشل قدمى عن الذهاب إليها فأصحو من النوم مغتاظا من نفسى!.. أخيرا أدركت سر إلحاحها علىّ والليلة عيد ميلادها الذى لا بد أن أحتفل به كل عام أينما كنت! لكننى هذه المرة قررت حسم الأمر مهما كلفنى من مشقة أو وضعنى فى سوء فهم والتباس!.. خرجت من الحفل السيمفونى إلى هنا مباشرة!.. تركت سيارتى فى شارع صلاح سالم وجئت ماشيا!.. الحمد لله لم أخطىء الطريق رغم أننى كنت أمشى كالأعمى!!».

- «ولم تخف من قطاع الطريق والمخربشين الذين لا يتفاهمون إلا بالمطواة والسنجة!!».

- «إطلاقًا! وإن قابلنى أحد منهم لن أتركه يقتلنى أو يعتدى علىّ! سأعطيه كل ما معى من أموال وأربت على كتفه أدعو الله أن يسهل له!.. لا لا!.. فى مثل هذه المواقف أنا أعجبك! قطاع طرقنا لن يكونوا أقسى من عصابات شيكاغو التى عرفتُ كيف أتعامل معها!.. يدى ممدودة للغير على طول الخط وكل الناس

تحبنى بفضل دعاء هذه السيدة العظيمة التى احتفلتُ الآن بعيد ميلادها!».

دعوته على كوب من الشاى فى مخدعى؛ لبّى دعوتى فى الحال. رشف من الكوب الصغير جرعة ماء ثم أوصانى بألا أضع سكرا على شايه فقلت له: انى فطن. كان كأنه فرحان بأن عقدة ما قد انفكت؛ فاضت ينابيع الإلهام فى أنامله؛ أمسك بالكمان بحركة من يمسك بفكرته ليدون خاطرا أو فكرة طرأت على باله.. و.. راحت الأنغام الساخنة تستبق ضوء النهار إلى أن احتلت بيضة الشمس المفقوسة أريكة القمر؛ كسرت قشرتها الأنغام فأطل كتكوت الشرق يصدح فى الأفق وهجا من الطرب الشجى، تتسلق الأنغام أفرع الشجر تتلوى بين كثافة الخضرة كتموجات الحرير كرجَّة الخيزران؛ من بين أجفانى المرخاة حياءً من النغم رأيت أشباح جماهير محتشدة حائرة الأعين تريد أن تقبض على الأنغام الجميلة لتراها رؤية العين؛ كان أسعد الدهل وزوجه وبناته قد وقفوا عند باب التعريشة منبهرين مبتهجين مغتبطين، تتدلى من أيديهم سلال الحمص والحلوى.

٧
قطوف دانية

شجرة النبق العتيقة الوارفة تحتوينى تحتها؛ مسند الكرسى الخيزرانى الذى يكاد يقاربها فى العمر يفصل بين ظهرى وجذعها الضخم المفتول العضلات الصلبة، لونها لون الحديد وبأسها أيضا شديد؛ تمتد هذه العضلات الجذعية نحو الأرض فى شعب ذات مخالب بأحجام خرافية غائصة فى باطن الأرض بقوة باطنية جبارة تحتمل كل هذه الطوابق من الأفرع الكثيفة المحملة بالثمار. فى مساحة واسعة بين عضلتين من عضلات الجذع يستقر مسند الكرسى. . أكاد أكون جالسا فى كابين محكم داخل جذع الشجرة؛ أمامى ترابيزة من الخيزران بسطح دائرى وحوامل مجدولة بشرائح الخيزران الأشد بأسا من الحديد فى مرونته ومتانة قوامه العصىّ على أسنان الزمن. أوراقى وأقلامى مفرودة فوق سطحها فى انتظار أن تنضج فى داخلى شحنة الحماسة للكتابة؛ على مقربة من يمينى دعائم سور من الحديد والأسلاك الشائكة تم حجبها من الداخل برقاع من أبواب سيارات قديمة متشابكة متلاحمة. على يسارى مساحة واسعة جدا بسور مبنى يبدأ من خلف الشجرة ويمتد إلى الداخل بلا سقف إلا فروع الشجر المخيم فوقه. . تمرح قطعان من البط والدجاج والأوز والأرانب من تربية أم جيجى. . أمامى ركن عريض أقيم فيه فرن للخبيز وخُنّ للدواجن وبجواره عديد من الحفر

هى فتحات خنادق حفرتها الأرانب كى تلد فيها وتحمى عيالها . عن يسارى تنتهى المساحة غير المسقوفة بممر يشبه المدق، يؤدى يمينا إلى حجرة داخلية بها سرير ودولاب ينام فيها مع زوجه، لصقها حجرة موصولة بها بباب داخلى مغلق نهائيا، هى الأخرى بها سرير كبير ودولاب ينام فيها بناته الثلاث : جيجى وهى صبية فى الإعدادية، ولوزة وهى فى قبول إعدادى، وموزة وهى فى السنة السادسة الابتدائية . . يؤدى ذاك الممر - يسارا - إلى حجرة كبيرة ذات شباك مستطيل بقضبان حديدية له شيش وزجاج ودرفتان من شبكة سلكية دقيقة الثقوب لمنع البعوض، يطل على ما يوشك أن يكون شارعا عريضا داخل البستان تصطف على جانبيه أشجار الصبار ؛ فى هذه الحجرة طاقم للجلوس من الطراز الأسيوطى المتين من خشب الزان المدهون بالأويمة، له بياضات فوق الشلت نظيفة دائما مشجرة مضمخة بعطر مسحوق الغسيل ؛ إليها تنتقل القعدة فى السهرة بمجرد حضور المعلم عيد أبو القاسم ورفيقيه الحميمين الحاج حسين الوراق - السنى - وأبوميمى . . نادرا جدا ما يزيد عليهم واحد أو اثنان من ذوى الحيثية لأى منهم، إلا ليلة الجمعة يغزونا وفد من الجواهرجية أصحاب ورش الذهب والفضة فى خان الخليلى وهم من جلب الحاج حسين الوراق ويشاع بأنه شريك لهم فى بعض ورشهم . يتعرف أسعد على شخصياتنا من نقرات أصابعنا على الباب الصفيح للتعريشة ؛ يقول إن النقرة عنده كبصمة الأصبع لا تتشابه مع غيرها من البصمات النقرات ؛ لم يكن يهزل كما تبادر إلى ذهنى، إلى أن اكتشفت شدة حساسته لنقرات الأصابع ؛ أقربها اليوم مثلا حينما وصلت منذ ما يقرب من نصف ساعة وتعمدت أن أغيّر إيقاع نقرتى على الباب فإذا هو يصيح من الداخل من أول نقرة : ادخل يا فلان . .

كان من المتوقع أن أجد فى انتظارى طبق الفول المدمس - البيتى - مع الخبز البلدى الأسمر كما هو برنامجنا اليومى، وأن يكون سخان الشاى الأحمر الثقيل مسنودا فوق جمرات الفحم يطيب على مهله، وأن تكون الشيشة قد جىء بها لزوم الحجر المعسل القرديحى من أجل الكحة لتنفيض ما تراكم فوق الصدر من بلغم متكلس من قعدة الأمس.. إلا أن شيئا من ذلك لم يحدث؛ إنما كان هناك جو غريب غامض يشى بتوتر خفى ذى نكهة مثيرة. كان أسعد الدهل مرتبكا، يركض إلى الداخل فيختفى لبرهة ثم يظهر عائدا فى شرود مشدود عضلات الوجه يهمهم فى برطمة غير مسموعة جيدا، مع أن تلك الابتسامة العريضة البلهاء كانت لا تزال معلقة تحت أنفه كلافتة عتيقة فقدت توازنها فمالت حتى لتكاد تقع على الأرض؛ ما يكاد يصل إلى عشة الدجاج حتى يبدو أنه تذكر شيئا فيرتد عائدا إلى الداخل ثم يضرب جبهته بيده ويغير اتجاهه على نحو ما.. صرت أتابعه فى محاولة لاستيضاح الأمر؛ أول خاطر طقّ فى رأسى هو أن يكون أسعد متورطا فى موقف يبدو سخيفا؛ لعل لديه امرأة ساقطة فى الداخل ويريد أن يسربها قبل مجىء زوجه؟! فعلا إن شكله المتوهج هذا، المرعوش فى لذة لا معنى له إلا أن يكون فى الأمر شىء من هذا القبيل.. أخيرا فتح الباب الصفيح، وقف فى فراغه ناظرا فى البستان، جعل يطرقع بأصبعيه فى حركة تنبيه، يطلق صفيرا بفمه؛ الأمر إذن لمريب؛ ولكن ما سر هذه الكسرة من الخبز المغموسة فى إدام شهى الرائحة؟ لو لم تكن كلبته زوبةَ منطرحة على جنبها لصق الكرسى الذى أجلس عليه لقلت إنه يلوح لها بالكسرة تلك لكى تعود من الخلاء.. سرعان ما اتضح أنه يلوح بها لذلكَ الكلب الذى التقيته عند وصولى

يتلكأ فى الحوش؛ ها هو ذا يقترب من الباب فى وجل وتوجس شأن جميع الغرباء عن المكان من كافة المخلوقات.. أسعد يمد اللقمة للكلب؛ مدّ الكلب بوزه يتشممها، تراجع بها أسعد إلى الوراء ساحبًا الكلب وراءها؛ ما أن صار ذيل الكلب داخل التعريشة حتى أغلق الباب من الداخل ورمى إليه باللقمة وقد انشرح وجهه كمن حقق انتصارًا؛ ثم رمى إلىّ أنا الآخر بلقمة من الترحيب السريع: أهلين، بلهجة تصبيرية مع هزة من رأسه كأنه يريد أن يقول: سأفرغ لك حالا، لكنه كان شاردًا عن قولها؛ إلا أنه أراد تدعيمها بأن صبّ الشاى فى كوبة صغيرة وضعها أمامى شاردا، ثم نادى كلبته الراقدة بجوارى مصفقا بيديه فى تنبيه حاسم حاد:

- «زوبة!.. زوبة!.. زوبة!»

انتفضت الكلبة رافعة رأسها فى انتباه وتحفز ثم نفضت لحمها واقفة فى تأهب؛ يا إلهى، لقد كبرت زوبة صارت ضخمة الحجم مع أنها منذ شهور قليلة كانت لاتنى تصوصو وتسرسع فى نباح يقرف مزاجنا فى خلوتنا الليلية المقدسة حتى تضطرنا إلى الإلقاء بها فى الخلاء ثم يشفق أسعد عليها بعد قليل فيفتح لها الباب لتدخل.. ها هى ذى الآن صارت رشيقة جميلة بالفعل؛ ياعجبا! أول شىء لفت نظر زوبة هو وجود كلب ذكر فى مخدعها؛ ياربى! لقد وقف شعرها، ضوعف حجمها، انطبع على وجهها ما يشبه الخجل والحياء؛ بريق نزق ينضح بهجة وانتشاءً راح يلمع فى عينيها بشكل خاطف؛ ما لبث حتى اختفى تحت رموشها الساجية إذ هى تخطو فى هدوء ودماثة نحو هذا الضيف المرغوب فيه الذى هبط عليها من السماء.. راح كل منهما - زوبة وضيفها الكلب - يتشممان بعضهما فى كل بقعة كأن كلاً منهما بالنسبة للآخر سلعة سيشتريها بحر ماله ومن حقه أن يتفحصها جيدا..

عندئذ ظهر الاطمئنان على وجه أسعد الدهل بل على كيانه كله؛ أقعى أمام منقد النار، بحيوية أخذ يمروح عليها بورقة من الكرتون؛ رص حجرين بالمعسل القرديحى على شيشتين، وضع واحدة أمامى وانتحى بالأخرى بعيدا وانبرى يدخن ويراقب الكلبين فى حالة استمتاع فائقة تفضحها ملامح وجهه والابتسامة البلهاء كاللافتة المعلقة من أحد طرفيها فى مسمار واحد صارت كالبندول رائحة جائية صاعدة هابطة كأن ريحا خفية تطوح بها من جميع الجهات . .

شمس العصارى الذهبية تفوقت على الجواهرجية من أصدقاء الحاج حسين الوراق الذين يؤمون هذا المكان مساء الخميس من كل أسبوع بانتظام؛ طرحت شمس الأصيل عباءتها القرمزية فوق أشجار النبق والكريز والبرقوق، سال ضوؤها الذهبى البندقى على الأرض متخللا الأفرعِ والأوراق والثمار، سائل الضوء صار أشكالاً زخرفية وفصوصا من الدرِّ والياقوت منثورة على الأرض وفوق الزير وطلمبة المياه الجوفية وعشة الدجاج والكلبين اللذين قام بينهما حوار صاخب فيه قفز وتنطيط ونفور يعقبه تصالح . . لحظتئذ كانت خواطرى قد بدأت تشتبك بعبارات آتية من داخل ما يعتمل فى مخيلتى تمهيدًا لكتابته بعد قليل. كانت حبات النبق والكريز الناضجة تتساقط فوق رأسى وأوراقى كقطرات المطر فوق زجاج النافذة؛ نحيت مبسم الشيشة أخذت أجمع الحبات الناضجة وأمسحها جيدا بمنديل ورقى ثم أطوح بها فى فمى ألوك حلاوتها الرضية الجاذبة اللاذعة؛ استشعرت آفاق جنة الخلد ذات القطوف الدانية، فتهدجت مشاعرى فيما أحاول تصورها كما وصفها القرآن الكريم قياسا على هذا البستان الأرضى، فإذا بالأرض تستردنى إليها قبل السباحة فى حالة صوفية. أفقت على

المشهد العبثى: أسعد الدهل فاقد للإحساس بوجودى، كل حواسه منصهرة فى بوتقة التركيز فى انتباهه على حركة الكلب فى محاورته الجنسية مع كلبته زوبة، بشغف لا مثيل له تنساب نظراته مع الكلب إذ يعاود المحاولة من جديد يتشمم مؤخرة زوبة؛ يكاد أسعد يصفق هاتفا بالتشجيع له؛ وإذ يفاجأ بأن زوبة نفرت وابتعدت تلتوى فى الحال ملامحه تتعصر فى بعضها تكاد تبخ سمًا؛ فى عصبية لاهثة قام، قبض عليها، طوق عنقها بذراعيه فى حضنه راح يقبلها فى رأسها يتحسس لحم فخذيها بتحنان غاية فى الرقة، يصدِّر مؤخرتها لبوز الكلب المحظوظ الذى يستأنف هذه المرة فى نشاط كلاعب أدرك أن للعبة بعداً جماهيريا مشاركا فيها بالتشجيع فقرر أن يلعب بإرادة الفوز وأن يكون حريفا بمعنى الكلمة؛ وإذ شعر منها ببوادر استجابة صار فى قمة البهجة يصّر ويتقافز؛ أدى أمامها وحولها رقصة بديعة انتهت بأن غافلها واتخذ وضعه الدقيق من خلفها قافزاً بإصرار هذه المرة ناشبًا مخالب أماميتيه فى جلد صدرها؛ ارتج رجات الطعن إلى أن دفن خنجره فى الجوف المظلم ثم تهاوى بها راقدين على الأرض فى وضع التحام تام . .

صفق أسعد الدهل فى ابتهاج عظيم صائحا فى وجه زوبة:

- «صباحية مباركة يا عروسة!»

ثم نظر لى فكأنه قد غيَّر دم وجهه بدم أنقى:

- «كانت عذراء كما تعرف!»

ثم كأنه انتبه إلى وجودى لأول مرة:

- «يا مساء النجف! آسف يا سعادة البيه! فى ظرف دقيقة واحدة تكون البوصة بين شفتى سعادتك أما طبق الفول فأم جيجى تجهز

لنا طبقا أهم ولكن للعشاء بعد قليل زمانها آتية به! ربما تكون الآن تسخر مني سعادتك! لا يهمني على كل حال! . . يجب أن تعرف سعادتك أن ما قمت به الآن عمل مهم جدا جدا سعادتك! يعني كأنني ألفت رواية مثل سعادتك!»

خلال دقيقتين صار كل شيء على ما يرام. وعندما شرعت في توليع الحجر العاشر كانت زوبة قد فكت عقالها وانفصلت وجعلت تعوي عواءً كالغنج، تتقافز في نشوة، تتشمم المساحة التي كان فوقها الالتحام؛ كانت كأنها تغني، تتحكك في الكلب تهارشه، تنطحه في مداعبة، تهوهو؛ أخيرا انتبذت ركنا قصيا ارتمت فيه على بطنها رافعة رأسها مدلدلة لسانها تلهث ترمق الفضاء بنظرات زهو متطامن يضفي على وجهها مسحة من الانتعاش النشوان.

٨
بتاع أسعد الدُّهْل

ربما بدا لى أن أسعد الدهل مجنون رسمى يوم زرته أول مرة فى معية المعلم عيد أبو القاسم، سيما أن ما سبق أن سمعته عنه من نوادر وطرائف كانت كلها تدور فى المنطقة الوسطى بين العقل والجنون؛ إلا أن جنون أسعد الدهل قد بدا لى فى ذلك اليوم فاتنًا وساحرًا؛ إنه حين ينفرد بك متحدثا يبدو حديثه منطقيا متماسكا محكوما بعقلانية متمرسة لدرجة أنك تستنيم إلى حديثه تعطيه أذنيك باهتمام فى انتظار أن يرسو بالحديث على شاطئ معين لعلك تهتدى به إلى أصل الحديث وفصله وسككه ومراميه؛ لكنك بعد لأى عظيم تستبين شيئا فشيئا أنه جنون يقود إلى غير سكك على الإطلاق، إلى الهواء الطلق؛ سيتضح لك بشكل محدد وحاسم أن حديثه برغم حماسته لا هدف من ورائه، ليس يريد إبلاغك بشىء أو توضيح شىء. ولقد تحاول أن تتعرف على مغزى حديثه بأن تسأله بعض أسئلة فيبدو كأنه يرد على أسئلتك فيما هو يتحدث فى مواضيع لا رابط بينها ولا شأن لها بسؤالك من قريب أو بعيد. وفى النهاية لابد أن تعتاده كما هو، يجىء عليك وقت لا تعرف لماذا يتحدث ومتى بدأ الحديث إلا أنك تستطيع أن تنهيه بإرادتك، تقول له اسكت فيسكت ولكن إلى حين؛ غير أنه لن يثير ضجرك بل يكون فى أحيان كثيرة مسليا مزيلاً للسأم

ببراعة فائقة بشرط أن تتركه يتكلم كيفما شاء دونما مقاطعة أو تعليق أو استيضاح؛ حينئذ قد يطوف بك حديثه فى حدائق تخضوضر فيها الإنسانية البدائية على أفرع الحكايات، وفى مغامرات خرقاء لعلها الأصل البعيد لحكايات ألف ليلة وليلة مع أن أبطالها ناس معاصرون ربما اكتشفت أنك تعرفهم حق المعرفة، قد يقودك إلى خرائب تضيع فيها محفظة النقود فى سبيل متعة سريعة تافهة مع متسولة ساقطة.. إلخ.. المعنى الوحيد الذى يمكن استخلاصه من صنبور الثرثرة المتدفقة من حنك أسعد البستانى هو أنه ليس يحقق ذاته إلا بالاستمرار فى الكلام والتربص بالآذان وبالمتكلمين ليعرف كيف يتلقف كرة الحديث بعبارة أو بحركة ليدخل كالخفاش ينشب أظافره فى الآذان لا يتركها إلا بالطبل البلدى كما يشاع فى أسطورة الخفاش، سيما أنه لا يتخاطب بحوار مباشر، فكل حواراته حواديت سائحة على بعضها؛ إن طلبت منه عود كبريت لإشعال سيجارة حكى لك حدوتة عن العلبة التى وقعت فى حلة الغسيل وباظت؛ إن قلت له افتح هذا الشباك لو سمحت حكى لك حدوتة عن ليلة نام فيها تحته فانقصم ظهره ورقد فى الفراش شهرا.. إلخ؛ إنه من خريجى دروس الوعظ فى المساجد، من ضحايا الوعاظ الجهلاء الذين يخلطون الحقائق بالشعوذة ويؤلفون معجزات خرافية ينسبونها إلى حضرة النبى..

فى ليلة من ليالى الخميس حيث يكثر عدد الصحبة فتفقد القعدة كثيرا من خصوصيتها فى مقابل ما يطرأ عليها من مرح وتجدد وسرعة إيقاع وحيوية فنضحك كثيراً ونستمع إلى غناء كثير من شرائط أتوا بها معهم لأم كلثوم وأحمد عدوية وأنور العسكرى وكتكوت الأمير ومحمد رشدى؛ يتخلل ذلك لحظات تتفكك فيها دائرة الوصل

الحميم، يشتبك كل اثنين فى حوار جانبى بأى كلام، تعلو الأصوات تلقائيا لتسمع بعضها بعضا، يتكلم الجميع فى آن واحد وليس ثمة من منصت سواى وإن كنت غير قادر على التركيز إلا مع نفسى حيث أشعر بالتوحد فى مثل هذا اللغط الحماسى الصاخب الذى من المؤكد أنه ليس يقول شيئا على الإطلاق أو لا يقول شيئا ذا أهمية، إنما هو التهدج العاطفى المصرى الساخن يظهر فى مثل هذه اللحظة التى يلتئم فيها جمع على درجة ما من التناسق والتآلف والصفاء الأخوى . .

لحظتذاك كنت جالسا فى صدارة الحجرة فوق الكنبة الأسيوطى وقد أنيط بى إمضاء الحجارة من عديد من قطع الحشيش ألقى بها المعلمون أمامى فى طبق فنجان القهوة؛ لصقى مباشرة على نفس الكنبة جلس أسعد الدهل متوليا أمر النار يسحبها من الوجاق ويطحنها برأس الشاكوش فوق رخامة ثم يجرفها بسيف الورقة الكرتونية إلى المصفاة ثم يهزها فوق الوجاق يخلص الجمرات من الهباب الأسود فتصير كحفنة من الرمان يغرف منها بملعقة الشاى ويدلق فوق الحجر؛ على الشلتة الثالثة لنفس الكنبة جلس الحاج حسين الوراق متوليا أمر الحجارة يرصها بالمعسل القص المخصوص الذى يبعث فى شرائه بالصفيحة من مدينة المنصورة المشهورة بتصنيع المعسل القص النقى من الأعواد والشوائب . . كنت منذ برهة طويلة لا أزال مأخوذا بالغناء الذى استمعنا إليه منذ قليل من شريط نادر سجلت عليه - من أسطوانة قديمة جدا - مواويل للمغنى البلدى عبده الدمرداش الذائع الصيت فى أواسط القرن العشرين؛ كان صاحب مقهى فى كفر الطماعين بحى الجمالية، لا يغنى إلا فيها، تمتلىء بعتاة الساهرين من كل المستويات لشعبيته الكاسحة آنذاك، يرتجل التأليف والتلحين فى إتقان أصولى مذهل؛

وربما لا يعرف الكثيرون أن جميع المواويل التى غناها محمد عبد الوهاب هى من تأليف وتلحين عبده الدمرداش حققت ذيوعا كبيرا؛ أما الموال الذى استمعنا إليه منذ قليل فكان تحفة فنية بمعنى الكلمة، عبارة عن مجموعة من عناوين سور قرآنية كريمة قام الفنان بنظمها ـ فى مهارة فذة ـ فى عنقود شعرى على ميزان الموال يتغزل به فى هوى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ بقيت أصداء النغم قوية فى أذنى لكن الصخب شوشر على كل انتباهى فسبحت فى موجه لبرهة ثم رسوت على أقرب الأصوات إلىّ، صوت أسعد الدهل الذى كان يتكلم هو الآخر بصوت مرتفع نسبيا، اعتمادا على أن الصخب من حوله يعطيه فرصة للتكلم بحرية يستخدم فيها ما يشاء من الألفاظ التى قد نراها نابية وهى عنده غير ذلك؛ كان يتكلم بحماسة وجدية هائلتين، حتى وهو ينفخ فى النار بشفتيه . .

سرعان ما فهمت من السياق أن فى الأمر صفقة تستحق هذا الجهد من أسعد . . اتضح لى أن الدهل قد سرح بالحاج حسين الوراق ـ وهو ابن السوق السارح بمصر كلها ـ سرحة طويلة مركبة وغاية فى الطرافة لدرجة أننى صرت أرفس الأرض من عمق الضحك الذى يزحم صدرى مما أثار انتباه الجميع . كان أسعد يحاول أن يبيع للحاج حسين الوراق دهاناً اسمه عش البلبل له سر باتع وسحر ناجع فى ممارسة الجنس على أكمل وجه يجعل المرأة ترقع بالصوت الحيانى من فرط اللذة وتقول لك بالفم المليان : قطعنى! . . راح يعمل على إيهام الزبون بأن هذا الصنف قادم من الهند رأسا مع ناس من طائفة البهرة يعرفهم وأنه يختلف عن عش البلبل التقليد الذى يباع على الأرصفة فى شارع الأزهر والغورية والعتبة . .

ثم إن الدهل - وتلك إحدى براعاته - سرعان ما افترض أن الزبون قد اقتنع تماما حتى وإن لم يفتح فمه بكلمة، بل اعتبره قد اشترى بالفعل دونما احتياج للفصال والمساومة شأن الباعة السريحة، وحق له حينئذ أن يزوده بنصيحة ما بعد الشراء. . راح يشرح للحاج حسين طريقة الاستخدام الصحيحة الموثوقة بالتجربة؛ وإذ شرع يصف له عملية الدهان بالتفصيل لم يجد مانعا من التمثيل الحركى لتشخيص الإيضاح. . فشخ ساقيه، افترض أن عضوه صار ممدودًا فى قبضة يده اليسرى. . أوصى - كجملة اعتراضية - بالضغط على الأنبوبة برفق حتى تبرز القطعة التى تحتاجها فحسب وهى فى حجم الحمصة، جعل يريه كيف يلقط القطعة الصغيرة على طرف سبابة اليد اليمنى، ينبه عليه أن يبدأ بدهن رأس القضيب بتدليك ناعم، وأن يأخذ قطعة أخرى مماثلة فى الحجم للسابقة ويدهن بها «الشنكل»؛ وعلى سبيل الإرشاد راح يمرر أطراف أصابع يمناه على بطن ما يفترض أنه العضو هابطا من الرأس إلى بقية العرق النازل وسط الخصيتين؛ ذلك هو ما أسماه بالشنكل على أساس أن القضيب على هذا النحو الذى وصفه يأخذ شكل الشنكل. . لم يعبأ الدهل باستغراقنا فى الضحك من وصفه للقَضيب بالشنكل؛ بل اكتست ملامح وجهه بعباءة فضفاضة من الجدية كأنه جرّاح نطاسى مهيب راح يحذر تلميذا له من الخطأ فى عملية جراحية دقيقة؛ أخذ يلوح بأصبعه فى حركة بإنذار فيما ينقل البصر بيننا؛ فبدا كأنه يشهدنا جميعا أنه قد خلص ضميره بأن أخلص فى النصح:

- «بس خلّى بالك! . . بس إيه؟ خلى بالك! إياك إياك أن تزيد القطعة التى ستدهن بها عن حبة الحمص!».

وصمت هنيهة ليختبر وقع الإنذار على وجوهنا الشغوفة المتحفزة للاستماع؛ ثم استطرد نفس الاستطرادة المألوفة المتوقعة دائما فى مثل هذه النصائح المأخوذة عن تجربة شخصية سابقة والتى تبدأ عادة بعبارة: أحسن أنا فى مرة . .

ـ « . . سبق أن وقعت كالدهل فى هذه الغلطة الفظيعة:

الجهل صور لى أننى لو دهنت بتاعى كله بكمية أكبر فسيبقى طول الليل قائما على حيله مزنهرا فأمتع وأستمتع! و . . أجارك الله! . . أجارك الله مما حدث لى! . . ».

ثم سكت مستمتعا بانبهارنا وبأبصارنا المعلقة بشفتيه فى انتظار أن يقول لنا ماذا حدث له؛ لكنه باستمتاع أخذ يوحوح، بتأوه، ينفخ من شدة الألم كالملسوع بالنار . . كان يمثل ما حدث له بكل جدية كأنه يمثل أمام النيابة كيف ارتكب جريمته البشعة؛ وكان لا يزال قابضا بيسراه على ما يفترض أنه قضيبه؛ فلما اندمج فى الوحوحة المؤلمة فكّ قبضته وأمسكه بطرفى أصبعيه علامة على شدة سخونته، جعل يصيح:

ـ «أجارك الله يا جدع! . . أية نار هذه التى اشتعلت فى قضيبى؟! تخيل نفسك لو شفت بتاعك انتفخ وصار مثل بتاع الحمار! والنيران تأكل فيه!».

ـ «المهم ماذا فعلت؟ قل وخلصنا!».

هكذا صاح الحاج حسين الوراق نيابة عنا فى ضجر . . فاستطرد أسعد الدهل وهو فى غاية الهدوء:

ـ «ربنا ألهمنى! . . ملأت الكوب ماء من الثلاجة! . . غرست

قضيبى فى قلب الماء المثلج فقال طش ش ش!! ولولاها كان بتاعى زمانه فى خبر كان!».

زُلزلت الجدران من أصداء ضحكتنا الجنونية الصاعقة؛ ثم تلاقت أعيننا على نظرة ماكرة اتضح منها أننا بالإجماع على يقين تام بأن بتاعه صار فى خبر كان منذ وقت طويل مضى.

٩
البوابة

صديقى سمكرى السيارات الأسطى حسين قشطة يزعل منى إذا لم أمر عليه فى الورشة كل يوم لنتناول اصطباحة العصارى معا فى الكوخ الملحق بورشته كبوفيه بدائى يخدم الزبائن والصنايعية بتقديم المشروبات الساخنة كالشاى والقهوة مع الدخان المعسل على الشيشة أو الجوزة حيث نجلس خلف الكوخ فى ممر بين حوشين مستطيلين، فوق كراسى من القش أو مستطيلات حجرية، حبذا لو انضم إلى القعدة كل من الحاج حسين الوراق وأبو ميمى وهما من أحباب الأسطى حسين قشطة وسيارات كل منهما - الخاصة بأشغالهما - لا تذهب إلى سمكرى سواه، إذ إنه متخصص فى السيارات العتيقة ذات العضم الناشف تحتاج لسمكرى عفى الساعد قوى الشاكوش راسخ السندة؛ إنهما كثيرا ما يمران عليه مرور الكرام، لا بغرض السمكرة وإنما - أحيانا - لمجرد إذاقته تعميرة طيبة جاءتهما من باب الله من بيروت رأسا، يضربان معه ثلاثين أربعين حجرا على الطاير فيما بين صلاة العصر وصلاة المغرب وهى الفترة النشطة المبهجة فى هذه القعدة الحميمة؛ يكون الواد سيد ابن عم على صاحب الكوخ قد أغلق باب المدرسة التى هو فراشها الأوحد وجاء ليساعد أباه فى شغلى المساء والسهرة مستقطبا معه محمود ابن عمه. قد ينضم إلينا الضابط وجيه الملازم الأول فى شرطة النجدة وابن

واحد من أصدقائنا من رجال الشرطة القدامى ويسكن فى حى العطوف بالجمالية؛ وقد يلحق بنا المعلم صابر حمؤه، ضخم هو كالفيل إلا أنه خفيف الظل، كان اليد اليمنى لأحد كبار مهربى الأفيون المتمركزين فى حى الباطنية وقد صاع وتلطم فى موانئ ومطارات تركيا وإيران وأفغانستان والهند ولبنان وقبرص واليونان، فى جعبته حكايا عن مغامرات لا تنتهى ذات سحر لا يقاوم حين يحكيها تنعش الدماغ بهذه الصنوف من الحيل التى ينجو بها المهرب من حصارات المتربصين به، سواءً من الشرطة الدولية أو المنافسين الغيورين وهم عصابات متصلة بالمافيا؛ يجيء دائما بزجاجة ويسكى بلاك ليبول يداريها تحت إليتيه بين الصخرتين الكبيرتين؛ يوزع علينا الأفيون جدعنة ومحبة، يوصى الولد الساقى بأن يرفع حشيشنا - لامؤاخذة يارجالة - عن الحجارة ليرصّ هو بدلاً منها تعميرة من الهبو البريمو ينظف صدورنا من بلغم الفشْل الذى يبيعه لنا تجار لا ضمير لهم. . عندئذ قد تمتد القعدة إلى ما بعدَ منتصف الليل. .

من ناحيتى لست أحب أن يزعل منى الأسطى حسين قشطة أو حتى يأخذ على خاطره؛ فلقد كان هو البوابة التى دخلت منها إلى هذه المنطقة التى كنت أظنها شديدة الوعورة فبواسطته اكتشفت أنها شديدة الأنس والجدعنة. .

عرفت الأسطى حسين قشطة عن طريق صديقى الممثل محمود الشامى، الذى عرفه بدوره عبر صديق له صاحب ورشة لإصلاح وتجديد شكمان السيارات فى حى الدرّاسة، كان قد باع لصديقى الممثل سيارة فيات صغيرة كالنملية بموجب توكيل مؤقت فأصبحت السيارة ذريعة تقوده إلى الدراسة مساء كل يوم ليجلس على رصيف الورشة

يدخن حجرين على الشيشة مع الأسطى حنفى صاحب الورشة، ينتظران الأسطى حسين قشطة حتى يشطِّب الشغل فى ورشته، ويأتى إليهما لبدء السهرة. أيامذاك كانت ورشة الأسطى حسين قشطة على الطريق العمومى فى حى الدراسة لصق الجبل، بينما هو يسكن فى قلب القرافة؛ إنه فى الأصل من أبناء القرافة؛ أبوه المعلم محمد قشطة كان من كبار الطربية وله فى نفس القرافة حوش خاص به كمدفن لأسرته وله، قد اشترى أرضه وبناه من حر ماله إلا أنه اختار لسكناه حوشا من أحواش علية القوم الواقعة تحت مسئوليته، شكله يشبه شكل البيت المستور يطل على رحبة واسعة، تتحلقها الأحواش العتيقة بألوان كالحة وبوابات حديدية صدئة وشبابيك حائلة اللون مما يجعل الداخل إلى هذه الرحبة من عطفة غير ملحوظة فى أول السكة البيضاء على اليمين يتصور أنه دخل حيا عتيقا من أحياء بولاق أبو العلا أو أى مدينة إسلامية قديمة، وسيشعر بأن ثمة أنفاسًا بشرية تتردد لابد تحت هذا الصمت المريب، يتأيد هذا الشعور بصدور أصوات لبكاء أطفال من حين لآخر أو صوت غناء فى راديو أو يفاجأ بسيارة ملاكى فاخرة ركنت أمام أحد الأحواش ونزل منها نساء يرتدين الملابس السوداء مع رجال من أولاد البلد أو من البكوات؛ فى هذه الرحبة على مقربة من الحوش المسكن أقام المعلم محمد قشطة دكانا محندقا له باب بدرفتين وقفل بدرفيل كأبواب دكاكين القرن التاسع عشر، وضع فيه كنبة ونصف دستة من الكراسى الخيزران وحصيرة وطاولة يوضع عليها التليفون ودليل التليفونات الضخم ودفتر لتسجيل الوارد من الموتى الذين يدفنون فى معيته، للدكان شباكان متقابلان لزوم خلخلة الهواء فى الصيف وإن كانت مروحة ماركة توشيبا العربى قد أضيفت إلى

محتويات الطاولة ؛ فلما مات المعلم محمد قشطة دفن فى الحوش الذى أعده من قبل ؛ ولأنه فيما يبدو كان رجلا طيبا فإن الله قد زحزح طريق صلاح سالم بعيدا عن حوشه أثناء إنشاء هذا الطريق الذى اخترق القرافة هو الآخر قبل الأوتوستراد بما يقرب من ثلاثين عاما ؛ حتى وإن لم تكن الزحزحة من أجل خاطر جثمان المعلم محمد بل من أجل خاطر ضريح المغفور له أحمد حسنين باشا الذى ضرب الطريق حرمته.

كان من المفترض أن ابنه الكبير الأسطى حسين سيخلفه فى المهنة إلا أن حسين الذى أصبح أسطى ذائع الصيت فى سمكرة السيارات وكسيبا تنازل عن شغلة الطربية لأخيه الذى كان قد تزوج من عائلة اشترطت عليه أن يسكن بزوجه فى عمارة سكنية محترمة اعتمادا على أنه موظف حكومى محترم إذ يعمل مطبعجيا فى جريدة يومية حكومية وهو نفسه لم يكن راغبا فى البقاء فى المنطقة، ولهذا سافر إلى ليبيا لمدة ثلاثة أعوام فتمكن من دفع خلو رجل فى شقة عتيقة فى كفر الطماعين فى الجمالية، فلما أسندت إليه مهمة الطربى بدلا من أخيه حسين حمد الله على مسكنه القريب الذى استطاع منه إدارة عمله فى القرافة بجانب عمله كمطبعجى، كل ما هنالك من تغيير أنه ثبت نفسه فى المطبعة على الوردية المسائية. كانت سفريته إلى ليبيا قد أغرت أخاه حسين فسافر هو الآخر إلى ليبيا، فكان أول سمكرى سيارات يدخلها، شارك أحد الليبيين فى ورشة افتتحاها معا فحققت أرباحا كبيرة كانت كفيلة بإغراء الأسطى حسين بالبقاء فى ليبيا مدى الحياة لولا أن شريكه كان يطمع دائما فى عرقه ولا يعطيه له إلا بالضالين، فما صدق أن جمع مبلغا محترما، فقفل عائدا إلى مصر ليستأجر هذه الورشة عند كيمان الدراسة ويشترى عدة سمكرة حديثة متطورة تعمل فصائل منها

بالكهرباء، وتزوج، قام بتجديد الحوش الذى ولد فيه؛ وفيه دخل على عروسه؛ أنجب ثلاثة صبيان وبنتا واحدة؛ اتخذ من حجرة المكتب الفردانية متنجعا للتحشيش مع شلة من أصدقائه المقربين فى السهرة من كل يوم، منه مزاج ومنه حس وحركة وونسة للعيال. فى صبيحة أيام الأعياد يدركهم الضوء الفضى وهم جلوس فى سمر وتحشيش، يستقبلون أهالى الموتى الوافدين من جميع أنحاء القاهرة؛ عندئذ يحلو للاسطى حسين أن يساعد أخاه شعبان فى العناية بالوافدين وتوفير الكراسى لهم وتلبية طلباتهم من رش مياه وتقديم ورود وشاى وقهوة وقراء قرآن، وفى تحصيل هداياهم من أرغفة وفطائر وتمر وخروب وكرملة وقروش وبرايز فضية..

فى هذه الحجرة الفردانية التى اقتادنى إليها الأسطى حنفى صاحب ورشة الشكمان فى صحبة صديقى الممثل محمود الشامى توطدت العلاقة بينى والأسطى حسين قشطة بلغت حدود الأخوة بمعنى الكلمة بل تجاوزتها كثيرا. أمسيت أذهب إليه كل يوم فور انتهائى من العمل فى مكتبى؛ أنزوى فى عشة عم على التى كانت مقامة آنئذ بين كيمان الدراسة فى الحدود المواجهة لورشة الأسطى حسين الكائنة بين صف طويل من ورش مختلفة الأعمال: مفاتيح ودوكو وكهرباء وميكانيكا وألوميتال وكل ورشة تستغل ما أمامها من مساحات من كيمان الدراسة يلقى فيها بمخلفاته وخردته حتى باتت الساحة قرافة للسيارات التالفة وأشكال غريبة من المخلفات الثقيلة صارت أشبه بغابة تخترقها ممرات تقود إلى بؤر وقعدات وكهوف يختلى فيها الصنايعية بمقطوعياتهم من الشغل لإنجازها بعيدا عن دوشة الدماغ.. كانت عشة عم على مدفونة بين تلال من الخردة الخشنة بل كانت هى نفسها مصاغة من هذه الخردة

حتى كراسيها مأخوذة من قرافة السيارات؛ محمود ابن أخيه يشتغل معه فى الأرضية، يطوف بين الكهوف والعشش بغرزة متنقلة كصندوق ماسحى الأحذية يتسع لسخان الشاى وعدة أكواب وطريحة من حجارة المعسل وبيده جوزة ومصفاة نار، يسقى هذا الصنايعى خمسة حجارة وذاك عشرة وهكذا. القعدة فى عشة عم على تلك كانت موحية لى وجاذبة لمزاجى تعطينى فرصة طيبة للانغماس فى قاع الحياة الملىء بالرواسب الإنسانية؛ كنت لا أكف عن تدوين الملاحظات والأفكار والخواطر فى أجندة، وعم على الذى تواءم مع مزاجى بسرعة فائقة يوالينى بما يشعر أننى صرت محتاجا إليه دون أن أطلبه باللسان أو حتى بالعين؛ حتى إذا ما جن الليل جاءنا الأسطى حنفى والممثل محمود الشامى؛ ننتقل بالقعدة إلى الحجرة الفردانية فى القرافة نكمل السهرة حتى مطلع الفجر.. إلى أن فوجئنا ذات يوم بأن جميع ورش وكيمان الدراسة طالعة فى التنظيم لتجميل المنطقة وإقامة بناء مقر قوات الأمن المركزى وتحويل بقية المساحة المطلة على طريق صلاح سالم إلى موقف لأتوبيسات هيئة النقل العام. أزيلت كل التعديات بما فيها الورش؛ لم يجد الأسطى حسين قشطة مفرا من اقتطاع جزء من الحوش المدفون فيه أبوه وتحويله إلى ورشة: لامؤاخذة ياوالدى الحى أبقى من الميت كما أن الورشة ستكون بعيدة عن مرقدك.. استفاد الأسطى حسين من الممرات الكثيرة العريضة بين الأحواش لاستيعاب السيارات الكثيرة الواردة للتصليح؛ ونقل عم على بعشته إلى ركن قصى من الممر الملاصق لحوش الورشة؛ انتقلت القعدة إلى هنا فى أول المساء، ثم إلى الحجرة الفردانية فى السهرة المتأخرة..

فى سهرة سعيدة الحظ من سهراتنا التى كانت محدودة بنا نحن

الأربعة: الأسطى حنفى والأسطى حسين والممثل محمود الشامى وأنا، إلا فى حالات نادرة يضاف إلينا رهط من الفنانين أصدقائنا..
ظهر وجه جديد على القعدة لم أكن رأيته من قبل: شاب فى حوالى الثلاثين من عمره أبيض البشرة ذو مهابة وجمال رجولى محترم، يرتدى جلبابا من اللينو الشوربجى، لونه سمنى شفاف بياقة وأساور بزرار مطعم بحجر كريم، فى معصمه الأيسر ساعة ماركة رولكس، فى جيب صدره مفكرة جلدية ثمينة وقلم ماركة كروس، فى يده كتاب سرعان ما تبينت أنه واحد من كتبى التى نشرت قبل عامين؛ قدمه لى الأسطى حسين قشطة فى حفاوة وإجلال:

- «الدكتور هانى! فى الألسن!».

تبسم هانى فى خجل، صحَّح:

- «أستاذ فى كلية الألسن! أستاذ الأدب الإيطالى!».

- «يااااه!.. فرصة سعيدة جدا!.. هانى مَنْ مِنْ فضلك!».

- «هانى عيد أبو القاسم!».

هتف الأسطى حسين قشطة فى غبطة:

- «المعلم عيد أبو القاسم الطربى حضرتك تعرفه طبعا!».

- «أعرفه! جلست معه فى الورشة أكثر من مرة!.. رجل لبق ولطيف جدا على فكرة!».

قال الأسطى حسين:

- «الدكتور هانى ابنه! المعلم عيد نسميه ابو الدكاترة!».

- «أهلا وسهلاً!».

ـ «الدكتور هانى لمّا عرف أننى صديقك لم يصدق! قلت له: اسأل المعلم! . . سأله فعلا! . . ف . . استأذن أن يجىء ليتعرف على حضرتك! أصله طلع من قرائك وعنده كتب كثيرة من تأليفك!».

مددت يدى وصافحت الدكتور هانى بحرارة:

ـ «أنا سعيد الحظ جدا يا دكتور هانى!».

قدم لى الكتاب:

ـ «بالمصادفة لقيته اليوم أثناء مرورى على مدبولى لأسأله عن رواية [اسم الوردة] الإيطالية لأعرف كيف ترجمت إلى العربية فلم أجدها ولحسن الحظ وجدت هذا الكتاب ولم يكن عندى فاشتريته! ليت حضرتك تكتب لى إهداء عليه!».

بترحاب شديد وحماسة أشد سحبت القلم الكروس من جيبه والكتاب من يده، كتبت له إهداءً جميلا ساخن الشعور؛ حين أعدت القلم إلى جيبه منع يدى صائحا فى حسم لطيف: خلاص هو أليق بحضرتك! والله ما يلزمنى! ومثلما سحبته من جيبه بعشم الأخوية أخذه من يدى وفتح حافظتى ووضعه فيها ثم أغلقها. طوال السهرة لم أصرف أذنى عنه، حدثنى عن إخوته الذين تعلموا جميعا صبيانا وبنات تعليما عاليا ومنهم من يعيش فى أمريكا بزوجة وجنسية أمريكيتين، ومنهن من تزوجت صحفيا إنجليزيا تعيش معه فى لندن، ومن يدرس الآن للدكتوراة فى باريس، منهم ومنهم ومنهم حاجة تفرح فعلا أن قرافة المجاورين المصرية تهدى للعالم عقولا نيرة، حدثنى كذلك عن رحلاته العديدة إلى دول حوض البحر الأبيض المتوسط، عن زوجه

الإيطالية، عن غرامهما معا بالموسيقات الشعبية العربية والأغنيات الفولكلورية، عن مجموعة الفيلات التى أقامها أبوه لهم ملمومة فى عمارة واحدة بباب واحد فى شارع عباس العقاد بمدينة نصر، عن مكتبته الكبيرة بعدة لغات، عن عشقه للمكتبات منذ طفولته بسبب من مكتبة كان يراها فى طفولته فى حوش من أحواش أبيه المعلم عيد. . عندئذ استدرك فجأة وقد لمعت فى عينيه نظرة ضاوية كبريق اللؤلؤ المبهج؛ بدا أنه يريد أن يقول لى شيئا ما من المتوقع أن يسرنى؛ لكن التردد أوقفه عن قوله، ربما بدافع الحياء الذى احمرت منه وجنتاه. إلا أنه حاول النطق من جديد، بل نطق همزة مكسورة: لكنه سكت؛ رحتُ أستحثه:

- «كنت ستقول شيئا. . قله أرجوك!».

مال نحوى لكى يهمس لى مع أن الجميع يسمعه:

- «بودى أن أعرض على حضرتك خدمة تذكرتها الآن بمناسبة المكتبة!».

كفت الأصوات كلها فى انتظار ما سيقول الدكتور هانى وقد ظهر الفضول على وجوهنا جميعا فى محاولة للتكهن بنوع هذه الخدمة؛ وهانى الذى لا يحشش ولا حتى يدخن لديه مع ذلك مناعة ضد التأثر بدخان الحشيش فلا ينسطل على الريحة مثل الخفاف؛ من ثم ليس ثمة من شبهة تتوقع كلاما معسولا بفعل السطل. . متلذذًا بفضولنا، تمهل الدكتور هانى ثم قال فى جدية ممزوجة باللطف:

- «عندى لحضرتك مطرح تكتب وتقرأ فيه كما تشاء وتهوى فى منتهى الهدوء الذى يليق بفكرك! ستجد فيه مكتبة كبيرة جدا

تهيئ لك جوا للكتابة وفيها مكتب وأباجورة أثرية تحفة! كل هذا كوم والجنة من ورائك كوم آخر . . البستان كبير يستحق الفرجة!».

قلت ـ وقالت النظرة الشغوفة فى عيوننا جميعا :

ـ «أين؟!».

لوح هانى بذراعه الأيسر فى اتجاه المقطم :

ـ «حوش عيد! بتاعنا يعنى!».

وكما يهدر المصلون خلف الإمام بصوت جهورى خرافى مهيب : آآآآ ميـ يـ . . يـ ن، هتفوا جميعا كالكورس :

ـ «اللـ اااه! يا عينى!».

ـ «الجنة فعلا يا أستاذ!» .

ـ «حقا هى خدمة وأعظم خدمة!».

ـ «بركة ورثك يا أستاذ!».

ـ «والمعلم عيد لا أظنه يمانع!».

هكذا قال الأسطى حسين قشطة؛ فنظر له الدكتور هانى نظرة احتجاج حاسمة :

ـ «اعتبره قد وافق!».

ثم التفت لى :

ـ «موعدنا غدا فى الوقت الذى تجىء فيه حضرتك!».

ستجدنى فى انتظارك فى الورشة ومعى وهدان الغفير وهو الذى يتولى خدمتك من مجاميعه!».

كدت أحتضنه وأقبله إلا أنه لم يعطنى الفرصة حيث هبَّ واقفا ضاغطا على كتفى بيده :

ـ «والله ما تقوم . . سلام يا جماعة . . ليلتكم فل!» .

انصرف . .

فى الموعد المحدد فى الغد لم يكن وحده فى انتظارى بل كان معه المعلم عيد نفسه وعم وهدان الخفير الذى كان يبدو مسروراً ولاينى يرد ونحن ماشون فى الطريق إلى حوش عيد : مش قلت لكم إنى عارفه؟ هو الأستاذ اللى كنت باشوفه كتير عند الأسطى حسين : ثم هرول يسبقنا ليفتح الباب .

١٠
التلاقى

لأننى لست أحتمل زعل صديقى سمكرى السيارات الأسطى حسين قشطة فإننى أمر عليه بين يوم وآخر لنقتطف ساعة من شفق الأصيل. هكذا ترتوى مشاعرى من حميمية الممر الذى نجلس فيه بعيدا عن دوشة الورشة وفى دروة ساحرة. كان ذلك أيام كانت قعدتى فى شرفة الحوش حيث أركن سيارتى فى عهدة الورشة وخفيرها ثم أمشى على قدمى من تخريمة توصلنى إلى مدخل الحوش مباشرة بعد ثلاث دقائق؛ وفى آخر الليل يوصلنى عم وهدان إليها تحسبًا لنوم البطارية فى الليالى الباردة، فيشارك خفير الورشة فى دفع السيارة حتى تدور. أما وقد تغير طريقى بحكم ابتعاد المكان فإننى صرت مضطراً إلى الوصول بالسيارة حتى بوابة البستان عبر دحديرة متفرعة من طريق صلاح سالم تنسرب فى نفق بدائى إلى تخوم المقطم أسفل الهضبة الأولى، وهذه الدحديرة صنعها المعلم عيد الكبير بنفسه حيث أتى بنفرمن عمال الطرب فتحوها وعبّدوا أرضها ووصلوها بذلك النفق الذى كان موجودا من قديم الأزل كمغارة أو كهف سار فوقه الطريق آكلا سدّه الخلفى، فبات مجرد فتحة لسرداب نصف مخلق إلى أن أجهز المعلم عيد الكبير على سده الخلفى تماما وحوله إلى نفق مرتفع القامة يتسع لمرور عربة فنطاس الماء التى كان يستأجرها لنقل مياه النهر إلى البستان

نقلة بعد أخرى لتخزينها فى أحواض مبنية بالأسمنت ذات أغطية من القصدير على شكل قباب متحركة وكان يقوم بتكريرها بواسطة الشبة ومسحوق من نوى البلح فتصبح صالحة للشرب، أما الرى والاستحمام فلها أحواض مكشوفة متصلة بمواسير فى قاعها تسرب الماء بحساب دقيق على الأرض عبر جداول تتكون منها شبكة موصولة الخطوط ببعضها البعض تضمن توصيل المياه إلى أبعد مكان فى البستان مع إمكانية حجزه عن أى مكان قد استكفى؛ وبذلك كان يدخر المياه الجوفية القليلة بل النادرة فى بستانه حيث توجد عشر طلمبات فى أماكن متباعدة لم يجف منها سوى ثلاث؛ ثم إن هذه الدحديرة ما لبثت حتى أصبحت وصلة رسمية مهمة بعد إنشاء طريق صلاح سالم وأصبح من الميسور دخول شاحنات إلى البستان لتحميل محاصيل الفاكهة من نتاجه المتواصل طوال العام لكل فاكهة موسمها الصاخب البهيج . .

غصبا عنى تباعدت زياراتى للأسطى حسين قشطة منذ أن اهتديت إلى هذه القعدة الساحرة الساهرة أبدًا فى تعريشة أسعد الدهل فى مدخل بستان عيد الملحق بحوش ظاظا باشا أحد صناع وقادة الهبَّة العرابية الشهيرة فى تاريخ مصر المعاصر. لم أعد أذهب إلى الأسطى حسين قشطة إلا مضطرًا إذا ما نالتنى خبطة فى رفرف السيارة أو كسرة فى أحد المَصدَّين أو أحد البابين. عندئذ، وبطفولة شقية صاخبة شديدة الحميمية يقيم الأسطى حسين قشطة فضيحة من التهليل الساخر الشامت، يسألنى بلهجة مسرحية من أنت وماذا حضرتك تريد؟! يجمع الصنايعية والصبيان ليفرجهم علىّ؛ تلقائيا يندمجون فى المسرحية المرتجلة، يترجونه بحرارة أن يسامحنى ويعفو عنى هذه المرة،

ودائما أبدا: هذه المرة هذه. . ينتهى المشهد عادة بأن يرتمى فى حضنى ثم يسحبنى كأنه ألقى القبض على مجرم هارب من العدالة يذهب بى إلى عشة عم على حيث يلقى عليه بيانا رسميا بأنه قد سامحنى ورفع اسمى من قائمة الممنوعين من دخول هذه البلد. .

اليوم جاء من بيته عند أذان الظهر، وجدنى فى انتظاره منذ وقت مبكر. كانت سيارتى ستدخل الفحص لتجديد الرخصة بعد أيام قليلة، وقد تراكمت عليها الخبطات والخربشات وانعوج المصدان بشكل لا يبشر بإمكانية الإصلاح، كنت متوقعا أن يطلب منى الأسطى حسين أن نقوم بمشوار إلى وكالة البلح لاستلقاط مصدين فى حالة جيدة أو رفرف جديد، ولهذا بكرت فى الذهاب إليه ليكون أمامنا اليوم بأكمله. لكن الأسطى حسين قشطة - ما أجمله من اسم على مسمى - يحنو على سيارتى دائما يعتبرها ابنته يغدق عليها ما فى وسعه من جهد ورغبة فى تخفيف عبء المصاريف عن كاهلى؛ ما كان يبدو لى باهظ التكاليف صار بمجرد معاينة الأسطى حسين له شيئا بسيطا مقدوراً عليه؛ وهكذا جلس بجوارى خابطا ركبتيه بكفيه قائلا بلهجة ذات معنى: خليها على الله؛ ثم سحب قطعة الحشيش من وراء أذنه هاتفا فى عم على:

- «نهارنا فل طبعا يا بوسيد؟!».

أبو سيد يفرح دائما باجتماعنا معا فى مثل هذه القعدة التى يعتبرها استفتاحا له حتى ولو جاءت فى آخر الليل؛ كما أنه يحظى بالأفيون الذى يوزعه أحدهم علينا وعليه إكراما لخاطرنا ومع ذلك نعطيه من أنصبتنا. .

انسرب الوقت دون أن نشعر به، اختفى الأسطى حسين أكثر من

مرة يباشر العمل فى السيارة وأباشر النظر فيما معى دائما من دوريات ثقافية جديدة أصبحت ـ ويا للعجب ـ تأتينا من الدوحة والكويت والعراق وسوريا. وفلسطين؛ رفعت وجهى عن الورق فرأيت الأسطى حسين مقبلا فى هالة من الغبطة الممزوجة بكثير من الحرج؛ من ورائه ظهرت غادة حسناء تنثر فى الجو رائحة فاضحة من أرقى أنواع العطر الأرستقراطى، لم يفلح فى التغطية على عطر الأنوثة الفواح . . امرأة ذات ظل يضاعف من حجمها مع أنها نحيفة البدن ولكن فى صحة جيدة؛ قوام سمهرى ممشوق محدد المعالم تحديدات صارمة، كأن هناك من يسهر يواليه بالنحت المستمر حتى يجعل الصدر نافرا هكذا فى كبرياء شامخ والخصر ضيقا كرقبة الإبريق ينساب مفتوحا قليلا على ردفين مبرومين . .

ـ «مساء الخير!».

قالتها برقة مغمورة برصانة ناعمة كالقطيفة بلهجة السيدات الفاضلات حرائرً البيوتات الكبيرة. هببت واقفا بإحساس من سيتلقاها فى حضنه، تلك أول خاطرة تطرأ على من يقع بصره عليها، كأن هذه الأنثى لم تخلق إلا لتعمير الأحضان بالدفء والبهجة . . الأصابع الطويلة التى امتدت نحوى مستسلمة عن طيب خاطر وأريحية ليدى التى احتوتها، تغرينى بأن أرفعها إلى شفتى لأقبلها، لولا أننى تذرعت بالاحتشام. ثم سرعان ما انتفض قلبى وكاد يختل توازنى من فرط الارتباك والمفاجأة، إنها نفس المرأة التى مرت أمام ناظرى ذات ليلة قمرية ساطعة فيما كنت واقفا فى شرفة حوش الباشا، ليلتها خطفت قلبى بإشعاعها، فما صدقت أن رأيتها فى ليلة تالية حتى تتبعت خطاها فى حراسة القمر محاولاً معرفة المكان الذى ستئوب إليه إلا أنها اختفت

ليلتذاك فجأة دون أن أدرى أين، تماما كالنداهة التى تلهج بذكرها الحواديت فى بلدتنا . .

صافحتها بحرارة واحترام محاولاً اصطياد عينيها لعلنى أستكشف من إنسانيهما شخصيتها أو حتى مفتاحا لفهمها سيما وقد اتضح من دخلتها علينا الآن أن أى غموض حولها يمكن أن يضمحل تماما وبسهولة . . عيناها نقيتان جدا، إلى كونهما جميلتين بشكل أسطورى، واسعتان سوداوان برموش طويلة مشرعة تحت حاجبين محففين فى تقوس ناعم شديد الاتساق مع جبينها الممدود قليلا فى وضاءة، تجسدها خلفية من الشعر الغزير الطويل الناعم المعتقل من فوق الرقبة بمنديل حريرى. رمقتنى بنظرة فهمت منها لأول مرة معنى التعبير الشعرى الدارج عن سهام النظرات إذ إن شكل العين فى الرنوة - أو النظرة الجانبية - يشبه رأس الحربة والسهم معا، تذوقت سحر أن تكون هذه النظرة طبيعية غير مقصود بها التأثير فى أحد. كانت تتلفت دائرة حول نفسها تتحسس بيدها رءوس مسامير أحست بها عندما جلست. قبل أن أتخلى لها عن الكرسى أدركها عم على بكرسى نظيف أتى به مسرعا من الورشة وراح يمسح قرصه بطرف جلبابه. جلست واضعة ساقا على ساق فى اعتياد وثقة، سحبت علبة السجائر من حقيبة يدها، بالقداحة أشعلت السيجارة، سحبت نفسا رقيقا. كل حركة كل إيماءة، كل لفتة تشى بأنها أصيلة فيها، تشى كذلك بأنها سيدة بمعنى الكلمة بل ومن أصول نبيلة؛ هى إذن وراءها سر لا شك خطير . .

كان الأسطى حسين قشطة قد جلس فوق دلو مقلوب قبالتنا تاركًا مساحة تكفى لأن يتحرك فيها عم على بالجوزة والطلبات خروجا ودخولا. لفت نظرى انتشاء الأسطى حسين وهو يفرد التعميرة بسخاء

فوق الحجارة ويسحب الأنفاس بقوة وتركيز، النشوة تنضح على عينيه الطيبتين بهجة المراهقين العامرة بأطياف شقاوات غابرة تناثرت منها حكايا ومشاهد من مغامرات الصبا التى كثيرا ما حدثنى عنها أثناء مشينا فى دروب القرافة . .

أشار بذراعه الشبيهة إلى السيدة والابتسامة الخجولة بعض الشيء تتراقص فوق أسنانه المقوسة :

ـ «أحب أن أعرفك بالمدام هند» .

هززت رأسى تأكيدا لترحيبى المعلن بوضوح . استدرك الأسطى حسين قشطة بلهجة من يريد أن يكافئنى :

ـ «الست هند سمعتنى أتكلم عنك فطلبت أن تتعرف عليك!» .

ـ «مرحبا! فرصة طيبة جدا!» .

ـ «أنا الأسعد يا افندم!» .

من باب التشبث بأى موضوع للكلام إلى أن أفكر فيما يجب قوله أو فعله سألتها متلطفا :

ـ «هند كده وخلاص؟!» .

انشطر وجهها المستطيل بابتسامة عريضة فوق حنك اتضح أنه واسع جدا ومفتوح على أسنان شديدة البياض شديدة الاتساق، ويبدو أن بياض قلبها الطيب هو الذى يشع بالضوء على هذه الابتسامة الرقيقة جدا، التى تقطر صدقا لا تشوبه أدنى خلاعة ولا تخدشه أية ظلال من طوايا نفس خبيثة . . عندئذ جاءنى شعور طاغ بأننى سوف أصدق كل ما تقول بل قد أتهور وأوقع نفسى فى حبها سيما أننى مولع إلى حد الضعف التام أمام مثل هذه السن فى المرأة، مثل هذا القوام، مثل هذه

الأناقة، مثل هذه الحكمة المسنودة بالثقة فى النفس، مثل هذه الأنوثة المكتنزة المدخرة محمية بجسارة واضحة؛ ذلك أن امرأة بكل هذه المعالم تعيش بمفردها فى محيط من المقابر دون أن تتعرض لعنف أو عدوان بل دون أن تصاب بالجنون تكون بلا جدال امرأة على درجة عالية من القوة ليس لها ثمة من نظير، وبنفس القدر ما تثيره فى النفوس المتأملة من استرابة..

طالت ابتسامتها الصامتة كأنما عن عمد وتركيز، لفحتنى خلالها بنظرة استشعرتُ فيها لمسة العتاب مع الشعور بشىء من الانكسار؛ هل كانت تتوقع أن أكون على معرفة سابقة بها بحيث لا أضطرها إلى ذكر اسمها بالكامل؟! شىء محير! هذا أول غموض يظهر، ملت نحوها أسألها فيما يشبه رنة الاعتذار:

- «هند مين يا افندم؟».

قالت فى رصانة:

- «هند سليمان ثروت!».

تمهلت قليلا وهى ترمقنى بنظرة أفقية مباشرة كأنها تبحث فى عينى عما يكون قد أثاره اسمها بالكامل فى نفسى؛ ثم أضافت والبسمة المغتربة تختلج على شفتيها:

- «أم تحب أن أوصل بك إلى الجد الأكبر البعيد؟».

- «يزيدنا شرف والله!».

- «جدى الأكبر البعيد اسمه ظاظا باشا.. أظنك تعلم أنها عائلة مشهورة فى التاريخ! من أجاويد محافظة المنيا فى الصعيد!».

وجدتنى أهتفت مذهولا :

ـ «معقولة؟! أنت إذن تقربين لحوش ظاظا؟!».

ثم ندمت فى الحال على هذا الاندفاع الغوغائى الذى أدى إلى ركاكة فى التعبير لا تليق بمثلى. أما هى والأسطى حسين قشطة فقد ظهر عليهما الاندهاش. اعتدلت هى فى جلستها صاحت بى وعلى وجهها شغف كبير للاستماع :

ـ «قلت حوش ظاظا؟! حضرتك إذن تعرف حوش ظاظا؟! أنا سألت الأسطى حسين عنه وهو طربى قال إنه لا يعرفه!!».

هتف الأسطى حسين قشطة بجدية وحسم كأنه يدلى بشهادة أمام القضاة :

ـ «يا بيه أنا طول عمرى فى القرافة لم أسمع عن حوش ظاظا!».

أربكتنى الدهشة مع الغيظ من نفسى؛ سلطت نظراتى على عينى الأسطى حسين قشطة لأختبر مدى صدقه؛ فبان لى فيهما أنه يعنى بالفعل ما يقول؛ أدركت أننى قد أتسبب الآن فى مشكلة صاخبة؛ تصنعت أننى أحاول التذكر. أضاف الأسطى حسين جازمًا :

ـ «الحوش الوحيد المحترم فى المنطقة تماً هو حوش عيد! الباقى بالنسبة له عشش!».

هبط الإلهام علىّ؛ هتفت مستدركا :

ـ «مضبوط! تذكرت! أنا قرأت عن هذا الحوش فى مذكرات أحد السياسيين القدامى نسيت اسمه مع الأسف!».

هتفت هند فى تشكك لطيف :

ـ «معقول؟! وما مناسبة أن يجىء ذكر الحوش فى مذكرات واحد سياسى؟!».

دعكت جبهتى بأطراف أصابعى ثم هتفت :

ـ «نعم! بالأمارة كان ظاظا باشا فى أواخر عمره يقيم فى هذا الحوش إقامة تامة بجوار زوجته المدفونة فيه! . . و . . . و . . وكان الباشا قد تصوف وصار يقيم الحضرات والأذكار . . وكان هذا السياسى صاحب هذه المذكرات يجىء لزيارته فى الحوش مع بعض مريديه! . . ».

كان وجهها يتلون بانفعالات جياشة رطبت عينيها ثم قاطعتنى هاتفة بانفعال بهيج :

ـ «مضبوط يا أستاذ! فعلا فعلا كل ما قلته صحيح! حاجة عجيبة! ألا تتذكر اسم هذا السياسى؟ أهو من رجال الثورة العرابية؟ مؤرخ؟ إنه يعرف جدى الباشا حق المعرفة! ياربى! كان لابد أن يكون هذا الكتاب فى بيتنا! أهو صادر حديثا؟ هل تسمح لى بتصوير نسخة منه؟!».

ـ «عفوا مدام هند! هو لم يطبعه فى كتاب! إنما روى هذه المذكرات لكاتب شهير لعله . . لعله . . تقريبا محمد لطفى جمعة . . لا والله ليس هو . . لأ . . المهم أن المحرر كان ينشر هذه المذكرات فى مجلة الهلال ربما . . على كل حال أعدك بأن أبحث عن هذا العدد وآتيك به!».

ـ «يا ريت! أكون ممتنة جدا يا أستاذ!».

راح الأسطى حسين قشطة ينقل البصر بينى وبينها فى انبهار من يستكشف أصل الحكاية؛ سألها بلهجة أولاد البلد الناضحة بالود والعشم :

ـ «هل أنت تقربين فعلا لهذا الباشا؟!».

ضحكت في سخرية :

ـ «إنت شايف إيه؟ أنفع ولا ما أنفعش أكون قريبة واحد باشا؟» .

ضحك الأسطى حسين في حرج :

ـ «تنفعين ونصف! إنتي نفسك باشا يا باشا!» .

خاطبته في تباسط :

ـ «شوف يا اسطى حسين! . . الباشا الذى تكلم عنه أستاذنا اسمه محمود باشا شوكت ظاظا! . . صح يا أستاذنا؟» .

هززت رأسي مؤيداً :

ـ «بالضبط! شيء عجيب فعلا!» .

أضافت هي بلهجة الواثق من نسبه الملم بشجرة عائلته إلماما كاملا :

ـ وأنا جدى الكبير . . أظنه الخامس رجوعا إلى وراء اسمه سليم شوكت ظاظا! . . الشقيق الأكبر للباشا محمود شوكت ظاظا وكان هو الأغنى لعلمكم! صاحب أطيان واسعة وعيال كثيرة وكان هو السند الساند لأخيه الباشا! حلو الكلام يابك؟» .

قلت : «حلو ومدهش ومثير!» .

اتسعت ابتسامتها وشعَّت منها دمائة تشي بأنها بنت ناس فعلا ، وهى بالقطع لا تدعى الانتساب لهذه العائلة سيما أنه ادعاء مجانى ولم يعد له ثمة من قيمة . قالت :

ـ «إذن يا أستاذنا يكون اسمى من الآن إلى الجد السادس هو : هند سليمان ثروت عبد الحق عبد الحميد عثمان سليم شوكت ظاظا! . . ابنه البكرى عثمان . . جدى الخامس يعنى . . كان

متزوجا من بنت عمه الباشا وأنجب منها جدى عبد الحميد ومن هذا الفرع المختلط ببنت العم جاءت أمى من ذرية الباشا حفيدة حفيدة حفيدة حفيدة حفيدة (وجعلت تعد على أصابع يدها السرحة) حفيدة ابنة الباشا! . . ولولاها . . أمى يعنى . . ما عرفت شيئا عن عائلتى! كانت تحفظ شجرة العيلة بكل أفرعها وأوراقها كما تحفظ سورة البقرة وتظل ترددها علينا لترغمنا على حفظها لأن حفظها هو الذى سيدربنا على حفظ سور القرآن تتذكرها فى كل وقت!».

صرت على يقين تام من أنها شخصية بمعنى الكلمة على درجة من العلم والثقافة واضحة بل إنها تتحدث بلهجة المثقفين، فماذا وراء هذه الشخصية العجيبة يا ترى من أسرار؟ هل يمكن أن يجور الزمن على مثلها إلى حد إرغامها على سكنى القرافة؟! هذا أمر ليس يقنعنى الآن على الإطلاق؛ إن مجموع الملابس البسيطة على جسدها ثمنها يساوى إيجار شقة مفروشة فى أرقى أحياء مصر، معنى ذلك أنها ميسورة، الدليل على ذلك هذه السجائر الأجنبية التى تدخنها بغزارة، والبقشيشات السخية التى تدفعها - فيما أسمع - للصبيان الذين يقضون لها بعض الطلبات؛ وها هى ذى يتضح أنها تنتمى إلى عائلة كبيرة محترمة، وإذن فغموضها ليس قابلا للاضمحلال كما توهمت بل يزداد تلبكا وانبهامًا؛ فى المقابل فإن منهجى فى فك شفرات الناس وإزالة ما حولهم من غموض يتجنب توجيه أى أسئلة مباشرة للشخص عن حياته لأنه لن يقول الحقيقة مطلقا؛ إنما الحقيقة أترصدها حتى أستخلصها من مجموع سلوكه ومواقفه وأحاديثه العابرة؛ بالذات أحاديثه العابرة؛ هذا - بالطبع - إذا ما كنت معنيا به

لسبب من الأسباب؛ ولست أظنني معنيا بأمر هذه السيدة المدعوة هند سليمان إلا بقدر ما عناني من أمر ظروفها هذه الغريبة المريبة المحيرة؛ على أية حال - قلت لنفسي - لا تتعجل. ومدت هي خطاف عينيها فاصطاد عيني فقالت:

- «شوف الصدفة! طلبت أن أتعرف عليك فإذا بك تريد أن تتعرف عليّ! . . جميل! بصرة!».

- «بصرة لصالح من فينا؟».

- «لصالحي طبعا! فأنا أصلا يهمني جدا أن تعرفني! أما حضرتك فإني أعرفك جيدا!».

- «هذا مكسب كبير لي!».

- «ربما أحتاجك في شيء مهم!».

- «أنا تحت أمرك يا مدام هند!».

سطع في عينيها استدراك ذكي:

- «أقصد! أحتاجك كصحفي! أقصد كصاحب قلم وأديب محترم!».

- «أنت تأمرين وأنا أنفذ في الحال!».

للمرة الثالثة وربما الرابعة تمهل عم علي ببوصة الجوزة عند شفتيها رغم أنها رفضت الشرب من أول محاولة وبشكل حاسم؛ مما وشى لي بأن عم علي يكاد يمارس الجنس معها بهذه الكيفية: يجعل البوصة تلامس شفتيها رغم علمه مقدما بأنها سترفض لكنه سيجد لذة فائقة من نقل البوصة عن شفتيها إلى شفتيه هو ليشعل حجره الممنوح له في نهاية كل دورة. كدت أزجره، لكنها سبقتني، دلقت فوق وجهه نظراتها

المغلية الغاضبة فيما تبعد البوصة بظهر يدها فى حدة كادت توقع بالجوزة كلها على الأرض؛ إنما وقعت ساعة يدها التى لم تكن جلدتها مشبوكة فى الأبزيم جيدا، انحنت والتقطتها، ساعة من الذهب ماركة أوميجا، حبكتها حول معصمها؛ رفعت رأسها نحوى فشعرت أنها فى لمح البصر تحولت إلى رجل بمعنى الكلمة:

- «شرفنى فى أى وقت يعجبك! متى وجدت نفسك راغبا فى مقابلتى.. هات الأسطى حسين وتعال! شرط أن يكون الموعد بعد العصر لأنى فى الصبح مشغولة! وإن أحببت أن تواعدنى فى مكتبك أجىء لك! أو فى وسط البلد أهلا وسهلا!».

- «وهو كذلك! بعد كم يوم سأفوت على الأسطى حسين ألتقطه ونجىء لحضرتك! بكل سرور!».

- «أنا تشرفت بكم! عن إذنكم!».

غمزت عم على بربع جنيه مطوى ثم وقفت فكأن موكب الأنوثة يتأهب للزفاف على فصل الربيع؛ صافحتنا على الهواء، مشت، مع ذلك وقف الأسطى حسين على باب الكوخ وشيعها بنظراته حتى انسلخت عن زمام الورشة فأخذ يضرب كف يسراه بقبضة يمناه وهو يزأر كثور حبيس، أمسك ببوصة الجوزة، شد نفسا عنيفا حوَّل المعسل إلى لسان من اللهب يعلو ويهبط، ثم انفلق الحجر إلى نصفين.

١١
تباريح العشاق

في المساء وقبل بداية السهرة في تعريشة أسعد الدهل في البستان بحوالي ثلاث ساعات فوجئنا بالمعلم عيد أبو القاسم يدخل علينا التعريشة الخارجية. كان العطر يفوح من أعطافه؛ وجهه الدائري مثل الفطيرة التي لسوعتها حرارة النار القوية فتفحمت حوافها وبقع من سطحها لكن الوجه مع ذلك يبكّ منه دم الصحة والعافية، مبروم الرقبة طويلها، يرتدي جلبابا من الحرير السكروتة بلون سكري، من تحته الصديري الشاهي، الكلسون القطني واصل إلى قدميه يحيط بالكاحلين، مثلما أحيط رسغاه بأسورتي كُم الفانلة القطنية من نفس ماركة الكلسون: «أنتر لوك كابو». واضح أنه قد استحم بالعطور وحلق ذقنه حدّ التنعيم، حفف شاربه الممتد على حنك شهواني واسع؛ كان ممسكا بكيسين من أكياس الفاكهة ملآنين بالكريز الأرجواني القاتم والمشمش الفاضح الرائحة: قال إنه أراد أن يذيقنا بشائر محصول أشجاره الجوانية المصانة تحت حراسة مشددة بما تحمله من نادر أصناف الفاكهة. .

أسعد الدهل الغشيم ما إن رآه داخلا علينا بالكيسين حتى هتف قبل أن يرد السلام:

- «إه؟! غيّرت رأيك؟!».

رمقه المعلم بنظرة استخفاف خانقة :

- «غيرت رأيي فى ماذا يا ثور الله فى برسيمه؟!» .

حملق فيه الدهل ببلاهة رافعا حاجبيه بأحمال ثقيلة من التجاعيد الذابلة :

- «المشوار الذى كهربتنى بسببه سعادتك لكى أنتقى لك هذه الحبات من الكريز والمشمش والبرقوق والقشطة . . بالأمارة قلت لى : انتق حبات تليق بحبيب عزيز!» .

بطرف عصاه الأبنوس الطويلة بما يلائم طوله، زغده فى كتفه بقسوة ملفوفة فى مزاح مرح :

- «حَبك بُرصْ! إسكت بقى! إسكت! صدق من قال : لا تلوط بالأهبل ولا تجعل الأهبل يلوط بك!» .

ثم شخط فيه بغيظ شكله عشم :

- «قم! قم اغسل هذه الفاكهة وضَعها فى المخروبة الثلاجة!» .

ناولنى الدهل مبسم الشيشة، نزع عنها الحجر المحترق ثم أتى بالحجر الطازج وبحرفنة قلب حجر النار فوق حجر المعسل وثبته فى رأس الشيشة وهب واقفا تطرقع جميع مفاصله. تناول الكيسين بغير حماسة ومضى يجر ساقيه مغمغما :

- «والله ما كان هناك داع لهذا التعب!» .

لسعه المعلم عيد فوق ما طالته العصا من مؤخرته، ثم انعطف نحوى وهو يلم جلبابه بين ساقيه؛ وضع يده فى سيالة الجلباب :

- «عَصَّرتْ؟» .

يعنى هل تناولت أفيونة العصارى؟ قلت له إنه كان معى عدساية تقاسمتها مع الدهل منذ حوالى ساعتين. شوح بكفه الطويلة العريضة مثل بلطية متجمدة، تشويحة معناها: إردم على ما تناولت. . برزت فى راحة يده كلكيعة أفيون من النوع الأزميرلى الأسود اللامع كأنه عجينة من مسحوق الضوء وما اللون الأسود إلا كسرة من الظلال المموهة فى أعيننا بفعل الإبهار. قطع المعلم شريحة من ورق السوليفان بأسنانه؛ بظفر إبهامه اكتسح ذيلا سمينا ممطوط القوام ذا لمعة مموهة بالبنى الغامق؛ قطعة تزن رُبع أوقية تقريبا لو اشتريتها من البائع أدفع فيها أربعمائة جنيه. قال:

ـ «ضع هذه فى جيبك!».

لفها لفة كلشنكان متعجلة؛ ثم اغترف مما معه نصف ملعقة شاى وركنها على الترابيزة بحذاء أوراقى وصاح:

ـ «الشاى بسرعة يا حيوان من غير سكر!».

فك أصابع يمناه عن قطعة من الحشيش اللبنانى الفاخر جعل يقتطع منها ويرص فوق طبق مفلطح. بعد سرحة شرد فيها لبضع ثوان قال كأنه يستدرك على ما كان يدور من حديث لحظة قدومه:

ـ «أصل الحكاية أن شخصا عزيزا علىّ قالوا لى إنه عمل عملية جراحية فى مستشفى القصر العينى!. . نويت والنية خير أن أزوره اليوم!. . وبعد أن جهزت نفسى للركوب إلى المستشفى التقانى صديقه الحاج عباس الجداوى وقال لى إنه خرج من المستشفى البارحة، قلت بركة يا جامع وجئت لأصطبح معك!».

ـ «من حسن حظى! يا ألف مرحب!»

ولكن ذهني كان شاردا وراء شعور غامض بالخوف ينتابني كلما أغدق عليّ المعلم عيد أفيونا بغير حساب؛ مصدر الخوف أن يكون المعلم عيد مهربا للمخدرات مستترا وراء مهنته كطربي ومتخذا من هذا البستان الواسع الأسطوري المخيف مخازن سرية للبضاعة إلى أن يتم توزيعها على كبار تجار المخدرات في حي الباطنية وهم جميعا على صداقة متينة معه يحترمونه إلى حد التبجيل . . على أن خاطرا ذكيا نبهني إلى أن هذا مستحيل تقريبا في ظل وجود هذا الدهل الفاجومي أسعد؛ إنه شخص لا يستقيم مطلقا مع أي سر، كفيل هو بفضح الدنيا كلها بسلامة نية ودون أن يدري بل وربما لرغبته في تقديم خدمة لم تطلب منه أصلا، ولولا أننا نشكمه باستمرار وبقسوة أحيانا لكان تسبب للجميع في سوء تفاهم لا ينتهي إلا بمصائب . . وإذن فمن أين للمعلم عيد بهذه الوفرة الملحوظة من الأفيون والحشيش المعتبرين؟! أما أنه يشتريها بحر ماله لكي يهديها لأصدقائه بهذا السفه فهذا ما لا يمكن تصديقه . .

حقا إن النفوس حين تتقارب وتتشافّ يمكن أن يقوم بينها على القرب أو البعد معابر تنتقل عبرها الخواطر والأفكار من شخص إلى آخر بل قد يقوم حوار صامت على البعد بين طرفين. لقد حدث شيء من هذا القبيل: كان المعلم عيد ممسكا بكوب الشاي الخالي من السكر وقد راح يطحن بظهر الملعقة قطعة الأفيون ليذيبها تماما في الشاي؛ السائل الأحمر القاني يأخذ في الابيضاض شيئا فشيئا حتى يقارب لون عصير القصب؛ بوز الملعقة يطوف بقعر الكوب بحثا عن تفل أو خشونة يذيبها فلا يجد؛ المعلم يرمق السائل في انشراح مرددا في غبطة:

- «فعلا أفيون معتبر من الأصلى! علامته أنه يذوب بسهولة ولايترك واغشًا أو تفلاً مما يغشون به الأفيون أولاد القحبة!».

قرَّب أنفه من الكوب، جعل يتشمم السائل بعمق، تنبسط ملامح وجهه، ينشرح هاتفا:

- «اللـاااه!.. شم!».

دفع بالكوب تحت أنفى، نكهة الأفيون الزاعقة توقظ كل ملكات الحس والانتباه واليقظة فى مشاعرى. أمسك هو بالملعقة وناولنى الكوب لأرشف منه ما يكفينى. أنا بطبيعتى طماع فى الأفيون بالذات لأنه يجعلنى فى حالة توافق مع النفس، يدك فيها كل ذرائع الكذب من نتوءات نفسية متورمة فى صدور كل الناس؛ جرعت ثلاث رشفات مليئات، أتبعتها فى الحال بعدة رشفات متتالية من الشاى بالسكر؛ ناولت الكوب للدهل، تناوله بشىء من الأنفة والكبرياء المتعجرف مع أنه ليس يقصد إلى ذلك مطلقا؛ على شدة شراهته التى نعرفها جميعا جرع رشفة واحدة، لا عن قناعة واستكفاء وإنما ليبرز - دونما حاجة لذلك على الإطلاق - أننى جرعت بشراهة وأنه قياسا علىّ يعتبر أكثر قناعة منى؛ لكن المعلم عيد ضحك ساخرا من منظره ثم سحب الكوب إلى جواره ليرشف منه على مهل وهو واثق أن الدهل قد أظهر هذه القناعة الكاذبة كإشارة تلميح إلى أنه يطلب حقه ناشفا، فصادر عليه هذه الخطة الغبية صائحا بلهجة كيدية:

- «بترسم على حتة ناشفة؟ وحياة أمك لادى ولادى!».

وقف الدهل ممسكا بالشيشة ليغير ماءها، رفع ذقنه لأعلى مطوحا بوزه فاشخا حنكه مصدراً أصواتًا تشبه الضحك:

ـ «مش حاهون عليك! أنا متأكد!».

وخرج. . رشف المعلم عيد جرعة أفيون، تلمظ، مزمز وتمطق، أشعل سيجارة طويلة، باس يده وجهًا وظهرًا، قال في امتنان شعرت بأنه حقيقي:

ـ «الحمد لله! رزقي واسع في الأفيون والحشيش تقول إن أمي دعت لي في ليلة قدر بأن يغنيني الله بالكيف؟! رزق الهبل على المجانين صحيح! . . ناس من زملائنا الطربية يستخدمون المقابر والأحواش كمخازن لصالح التجار نظير مكسب كبير! . . هم يعرفون أنني أعرف وأطرمخ! يريدون شراء سكوتي! أو مجاملتي! المهم أنني كلما قابلت واحدًا منهم غمزني بهبرة!».

عندئذ شعرت براحة اهتز منها بدني وانتعشت نفسي بالأمان؛ لقد أجاب على هو اجسي كأنني سألته مباشرة. . تلك كانت أول لحظة منذ وطئت قدمي هذه التعريشة واستكشافي لهذا العمق البعيد للبستان أشعر فيها بالتطامن إلى أن الشرطة لن تداهمنا ذات لحظة لتفتش عن ممنوعات. .

أنعشت الأفيونة نهمنا لسحب أنفاس الدخان كأننا نشرب في آخر زادنا. رفع المعلم عيد رأسه ناظرا إليّ في ابتهاج مفاجئ وقد أشرق وجهه بفرحة صبيانية، بدا كأنه تذكر شيئا مهما، هتف بي:

ـ «إنما قل لي يا عكروت! . . ما رأيك في هذه التناية التي حششت معكم منذ كم يوم عند الأسطى حسين قشطة؟ . . هنيالك يا عم بالمناسبة. . أعجبتك طبعا!».

ـ «من أي ناحية؟!».

- «من كل النواحى! . . نتاية طبعا! تعيد للواحد شبابه! آه لو . . لو . . أنا أصلى . . والله قلبى عليها يوجعنى! امرأة محترمة وآخر حلاوة، منتهى الشياكة عقل موزون وتقبل على نفسها أن تعيش فى القرافة بين الموتى؟! . . أتخيل أنا أن عقلها الموزون هذا ربما يكون هو عيبها الذى يحيرها ويلطمها فى حياتها مثلما نرى! قل لى كيف؟ . . أقول لك إن العقل الموزون يحتاج أحيانا أن نكسره شوية لينصلح حالنا شويتين! يعنى هى مثلا لو شغلت مخها بعيدا عن عقلها الناشف تعيش ملكة متوجة!».

كلامه لولبى وغير مقنع، لكنه نبهنى إلى ملحمة مهمة: هى فعلا تستطيع - بإمكاناتها الذاتية الواضحة للعيان - أن تعيش أميرة فى أفخم القصور إذا هى لانت للذئاب الأثرياء؛ وإذن فكونها تقبل العيش هنا معناه أنها فى غاية من الصلابة والعفة وليست تتنازل عن أى شىء من نفسها من شرفها مقابل أى مكسب من أى نوع؛ مهما يكن من أمر، فإن وراءها - لا شك - حكاية وأى حكاية؟ إن شيئا ما فى دخيلتى يمسكنى عن الإدلاء بأى رأى فيها حتى ألتقيها وأستشف حقيقة أمرها . . ثم انتبهت إلى أن المعلم عيد يكاد يكون ملما بالكثير عنها وعن ظروفها وحياتها، أو هكذا خيل إلىّ؛ سألته:

- «هل تعرفها جيدًا يا معلم عيد؟!».

بدا كأنه نسى:

- «أعرف من؟!».

- «مدام هند سليمان!».

هتفت كالطفل المبهور بكل شىء فيها حتى اسمها:

- «يا سلام! . . وإذن فاسمها هند؟ هند سليمان! . . نعم هذا صحيح! . . حتى اسمها جميل كجسمها الذى أصبحت أخاف أن يسفرنى إلى الخانكة! . . ولربما تكتبون عنى فى الجرائين: مجنون هند!».

انفجر ضاحكا يقهقه بعمق وتدفق فتنتفض الأرض بالترابيزة والكراسى والشيشة . .

- «لم تقل لى: هل تعرفها جيدا؟».

- «أعرف أمها يرحمها الله! والحيوان الجالس إلى يمينك يعرفها أيضا! مدفونة فى الحوش الذى تسكنه الآن مدام هند! . . الأم راقدة تحت التراب وابنتها نائمة فوقها! كل واحدة منهما تؤنس الأخرى وتطمئن عليها! حكمة الله يا حضرة الأستاذ ولله فى خلقه شئون!».

- «هل هى تقرب للباشا صاحب هذا الحوش؟».

- «نعم! من سلالة شقيق الباشا!».

- «إنما هى تعلم أن هذا الحوش حوش شقيق جدها الأكبر محمود شوكت ظاظا باشا؟».

- «لأ طبعا! . . هذا الحوش منذ أكثر من خمسين سنة ليس له اسم إلا حوش عيد! . . لم يعد أحد يذكر الباشا ولا حتى التاريخ نفسه! . . الست أم هند كانت زوجة لواء شرطة، أظنه كان حكمدارا! جاءت لأبى المعلم عيد الكبير ليدلها على حوش جدها لكى تدفن معه! . . أخذت بال حضرتك؟ . . المعلم كان فطينا! خاف أن تنهمر علينا الذرية وذرية الذرية تطلب حق الدفن فى

الحوش! ومتى دفن ولو شخص واحد انتهى الهدوء! يصبح من حقهم الزيارات المتتالية! وقد يحتلون الحوش وينازعوننا فى هذا البستان الذى شقى فى إنشائه! . . أخذت بال حضرتك؟ . . جنينة الحوش الأصلية لم تكن تزيد على عشرين مترا مربعا أى والله! لكن المعلم أخذ يزحف شيئا فشيئا على الأرض الممتدة أمامه بلا صاحب! بالعرق والسهر يستصلح ويضم حتى صارت الجنينة بستانا على عدة أفدنة! ليس له صاحب إلا المعلم عيد أبو القاسم حتى فى سجلات الحكومة! الحوش حوش عيد والبستان بستان عيد! لم يعد اسم الباشا مذكورا حتى فى سجلات القرافة بإدارة الجبانات! . . قل إن المعلم عيد ضحك على الولية وضللها بأن حوش جدها كان فى هذا الهديم! وهذا الهديم . . أخذت بال حضرتك؟ كان حوشا لأسرة من العصر الفاطمى بلا وريث فتحفظ عليه المعلم ولما جاءته أم هند تسأل عن حوش جدها أخذها إلى هذا الهديم وأقنعها بأن زلزالاً أوقع به ثم استصدر لها رخصة حق انتفاع من إدارة الجبانات وأشرف بنفسه على بناء هذا الحوش الذى تقيم فيه الست هند حاليا! . . وعلى فكرة يا حضرة الأستاذ . . أبى وأنا من بعده لم نغدر بالباشا، فأنت شفت بعينك كيف أننا نحافظ على حوشه وجثمانه، إنما المسألة إن أبى المعلم كان يتشاءم من فتح مقبرة الباشا لأن جدى أوصاه بأن الباشا الذى اعتزل الحياة وأقام فى هذا الحوش قد أوصاه بأن يحافظ له على عزلته حتى وهو راقد فى قبره، يعنى لا نفتح عليه القبر مطلقا! وهذا ما فعلناه!».

ما لم يقله المعلم عيد أن أباه العُقر الذى حجب الحوش تماما عن الأنظار بهذا البستان الطويل العريض الكثيف، وبالبناية التى يقيم فيها

الخفير وهدان وتتسع لمبيت عمال جمع المحاصيل فى المواسم مما أخفى الفيلا بحوشها لدرجة أن الشرفة التى كنت أجلس فيها لم تكن ملحوظة كشرفة لفيلا بل تبدو للقادم من سفح هضبة القرافة مجرد سور لسقف الدكان الذى يستخدمه المعلم عيد كمكتب تحيط به أشجار الجميز العتيقة الوارفة النازلة الأفرع فوق الشرفة تحتضنها من أعلى؛ وكان معروفا لأبناء المنطقة المحدثين أن هذه الشرفة هى مسكن الطربى المعلم عيد. . أى أن المعلم عيد الكبير قد ورث الفيلا بالمدفن؛ لذكائه احتفظ بمسمار جحا أو بخط الرجعة تحسبا لظهور مفاجآت أو قضايا تتهمه بأى شىء فها هو ذا المدفن لايزال موجودا فى مكانه وحتى مكتبة الرجل قائمة كما هى لم تتبدد منها ورقة واحدة؛ لقد ترك ذلك الطربى الذكى لطول الزمن فرصة إسقاط الأثر القديم على مهل تحت واقع جديد يأخذ فى الاستقرار بدرجة من الرسوخ تنفى القديم تماما من الأذهان وهذا ما قد حدث بالفعل.

وأصبح حوش محمود شوكت ظاظا باشا أحد رجالات التاريخ يسمى الآن ومنذ وقت طويل مضى بحوش عيد! . . وكم فى هذه المنطقة ومثيلاتها من خطط جهنمية كهذه آلت بمقتضاها ملكيات عائلات تاريخية قديمة إلى أفراد كانوا مجرد خفراء أو طربية أو فواعلية؛ ويبدو أن هذه إحدى سنن الحياة ونواميس الكون: أن يرث الفقراء الأغنياءَ فى نهاية الأمر، وأن يئوب ميراث الأقوياء النشطاء المرموقين إلى أشد الكائنات ضعفا وتفاهة. .

عمُرت السهرة بقدوم الحاج حسين الوراق وأبو ميمى فتجددت القعدة بمعنى الكلمة: أفينة جديدة وحشيشة جديدة وصلت اليوم لأبى ميمى عن طريق صديق له جامد قوى من المخربشين التقال، أمسك عن

ذكر اسمه لكنني - وهم أيضا فيما بدا - فهمت بالبداهة أنه ذلك الرجل الضخم الجثة صبى مهرب الأفيون صابر حموه فهو الوحيد الذى ظهرت معه هذه الحشيشة وهى عبارة عن قارورة صغيرة كقارورة قطرة العين، فى غطائها قطارة تقطر نقطة واحدة فوق حجر المعسل ليدور على جميع الشاربين وتفيض منه أنفاس ينفضها أسعد الدهل فى صدره بشراهة لدرجة أنه يستخسر ضياع الدخان فيكتمه كأنه يصفيه من المادة الغذائية تاركًا العادم يتسرب من منخريه فى بطء شديد. قال أبو ميمى منتشيا بعمق النفس وكثافته:

- «سمعت من ابنتى وهى تقرأ درس التاريخ عن رجل عترة يدعى أبا الحسن الصباح قاد ثورة من الحشاشين! . . فى ظنى يا جماعة أنه كان يسقيهم من هذه الحشيشة! . . لا من غيرها!».

شاركتهم الضحك بابتسامة مسموعة؛ كنت منفصلا عن القعدة وإن كنت فيها؛ بل إننى - ياللدهشة - كنت أجدنى قادرا على الملاحظة والتفكير بعمق تحت هدير الضحكات والمكلمة الصاخبة؛ ربما لأن اشتداد الصخب البعيد عن اهتماماتى هو الذى يفصلنى تلقائيا ثم لا يلبث حتى يصنع عازلاً سميكا كحاجز زجاجى يتيح لكل منا رؤية الآخر ويعزله فى نفس الآن. الوحيد الذى كنت أشعر بانفصاله عن القعدة مثلى كان أسعد الدهل: اتكأ بمرفقيه على ركبتيه، مطّ نفسه واقفا تطرقع جميع أطرافه؛ بصنعة لطافة حمل الشيشة بشكل مسرحى لافت للنظر ثم مضى بها إلى خلاء التعريشة؛ ما لبث حتى عاد بها نظيفة بمياه مثلجة، اختفى؛ عاد يحمل صينية عريضة من البلاستيك فوقها كوم كبير من حبات الكريز والبرقوق المثلجة، وضعها فوق الطاولة الخشبية الملفقة التى صنعها بيديه، بدت الصينية وليمة شهية جاءت فى وقتها؛ صاح الجميع فى ابتهاج:

ـ «ها الله ها الله! يا عينى على الجمال!».

شرعوا فى الحال ينتقون الحبات، ينتقونها لبعضهم البعض فى ود وأريحية، تطوعوا جميعا بالانتقاء لى، حبات ناضجة لست أنسى حلاوتها فى مذاقها الرصين وعمق رحيقها المعطاء، داخلنى يقين بأن فاكهة هذا البستان من طبقات أرفع وأجناس أعلى قيمة من تلك التى نأكلها من الأسواق بنفس الأسماء: برقوق، كريز.. إلخ؛ تذكرت بيت الشعر الشهير للمعرى، إذ يدعونا فيه إلى تخفيف الوطء ونحن نمشى على الأرض فلربما كان هذا التراب جثث أجدادنا السابقين تحللت؛ تذكرت كذلك أن الجثث البشرية أعظم سماد عضوى للأرض؛ اقشعر بدنى إذ تلفت حوالى باحثا عما اعتدت رؤيته من مقابر ففوجئت بها قد تحولت إلى شجر عتيق جارم فارع يطغى على كل شىء حولنا بل ويوجد حتى داخل هذه الحجرة التى تتطفل على شباكها وبابها فروع النبق وعناقيد العنب..

شدنى صوت المعلم عيد يسأل الحاج حسين الوراق بلهجة من تذكّر فجأة فاحتج كأنما بأثر رجعى:

ـ «لكن لماذا تأخرتما الليلة مع أننى هنا من صبيحة ربنا؟ اليوم الذى أجىء فيه مبكرا تتأخرون كل هذا الوقت؟!».

قال أبو ميمى:

ـ «الحياة كلها تمشى بالعكس دائما! نحمد ربنا أننا عرفنا كيف نأخذ منها ما أخذنا!.. صحيح يا جدعان الدنيا ما تديش عايز!.. طب إيه رأيكم؟.. شوفوا أنا فى نعيم قد إيه؟ لا شىء ينقصنى!.. مع ذلك يا أخى فجميع الأمنيات التى حلمت بها لم

تتحقق! لا فى الحب ولا فى الزواج ولا فى الاستمتاع بالدنيا! . . خل بالك يا معلم عيد نحن فى حقيقة الأمر لا نستمتع لكننا نمثل أننا نستمتع! إنما . . قل يا باسط!».

ـ «يا باسط!».

نطقناها جميعا بتلقائية. هتف الحاج حسين الوراق وهو يضيِّق ما بين حاجبيه ويلوح بيده اليمنى فى حرارة صانعا من السبابة والإبهام دائرة تهبط وتصعد بأصابعه النافرة كأنه يعزف إيقاع الإعجاب العميق على طبلة أفريقية مزلزلة:

ـ «أما حتة دين نتفة نتاية يا جدعان! أف ف ف! . . أجارك الله من عذاب جهنم الحمراء! والله كدت أصير مطية لإبليس اللعين فى لحظة! قلت أستغفر الله العلى العظيم! . . فى الحال تمثلت لى جهنم الحمراء طالعة من جسمها الزاعق!».

قامت على وجه المعلم عيد مباراة حامية بين الألوان ما بين الأبيض الشمعى والأحمر المحتقن والأصفر الشاحب والأزرق المبتهج والرمادى المحترق؛ صار فى حالة تحفز شغوف لأن يستطرد الحاج حسين الوراق فى وصفه وتشببه بالجميلة الفاتنة، لكن الحاج حسين فيما يبدو قد أحبطه. فشخ أبو ميمى حنكه، بدت أسنانه البارزة الكبيرة المتكورة يحيط بها حنكه المتكور، تماما كأنه كرة انبعجت ثم فيَّصت فتفتقت عن الأسنان، أعطتها شكل المخالب الحادة، وكانت كرة الحنك هذه كأنها منفصلة عن الوجه النحيف الدقيق الملامح يعلوها دماغ كرأس الهدهد؛ يصير الحنك جرابا مطاطا يتراجع عن الأسنان كلما صهللت ضحكة أبو ميمى؛ أما عند الابتسام فإنها تخرج منفشخة ثم ترتد فى الحال تحت مظلة الشفتين . .

ضحكة قصيرة سقطت من بين أسنان أبو ميمى، بدت كأنه يحرث أرضا سوف يزرعها حالاً ببذور نوادره:

- «أصلنا كنا عند الأسطى حسين قشطة!.. عربة الحاج حسين النصف نقل كانت عنده لتغيير الرفارف!.. الحاج حسين صابه الحول فبدلا من أن يركب عربته جرى وراء عربة أخرى يريد ركوبها! عربة آدمية! وكانت ستكون فضيحة!..».

منعه طغيان الضحك من تكملة المشهد؛ سرت عدوى الضحك فينا جميعا، استغرقتنا هستيريا الضحك بعمق مجهول الأسباب، كلما كففنا استؤنف الضحك من تلقاء نفسه؛ كل الأشياء صارت أسبابا تدعو للضحك بكل عمق وشراسة، ضحكا متوحشا همجيا يتخلله عواء وصريخ ونزق كحيوانات برية مفترسة تصادمت لغاتها المتعددة غير المفهومة إلا لمن يصيح بها.. الوحيد الذى تماسك من أجل أن يعرف حقيقة ما جرى هو المعلم عيد أبو القاسم الذى استطاع أن يكتم الضحك فى صدره بقوة انزرد منها وجهه واحمرَّ؛ هتف فى مرح شغوف:

- «أيوه وبعدين؟!».

تماسك أبو ميمى قليلا، راح يقطع الكلمات بزئير ضحك مكتوم:

- «قلت له: حيلك يا حاج حسين! هذه فرسة وليست عربة!».

استؤنف الضحك؛ واصل أبو ميمى:

- «والحاج حسين.. لامؤاخذة يا حاج.. تقول ثوراً من ثيران أسبانيا شاهد بقرة مباحة فى العراء؟!».

ازداد الضحك صخبا وطبطبة على الركب ودبدبة على الأرض

بالأقدام كأننا أطفال نتكلم فى الممنوع بنصف حرية نريد أن نوسعها إلى حرية كاملة؛ توجهنا بنظراتنا إلى الحاج حسين الوراق نستطلع رأيه فى هذه الأوصاف التى وصفه بها صديقه وصفيه اللدود منذ الصغر . ظهر الحياء على وجه الحاج حسين، مشط لحيته بأظافره، خفض صوته قليلا فيما يشير بأصبعه السبابة نحو أبو ميمى :

- «أصل ده ابن وسخة عربجى ملعوب فى أساسه! أنا صحيح اتفاجئت وانخضيت أول ما شفتها . . لكن ما قاله ابن القحبة هذا لم يحدث طبعا!» .

صار أبو ميمى يضحك بصوت مكتوم فيما انكمش على نفسه يهتز وينتفض من عمق الضحك، وهو منظر كفيل وحده بإثارة ضحكنا المنفلت أصلا؛ لكن المعلم عيد صرف نظره عنه مؤقتا ليسأل الحاج حسين الوراق قبل فوات الأوان :

- «أمال إيه اللى حصل؟! سنصدق كل كلمة تقولها . . فاحك لنا ما حدث بالتفصيل الممل والنبى يا حاج حسين ربنا يخليك!!» .

مط الحاج حسين الوراق رقبته مشدودة نافرة العروق فى اتجاه أسعد الدهل جاعراً فيه بتطجين بلدى حميم :

- «إدينا يا ابنى حجر خلينا نعرف نروح ونيجى مع الناس الغجر دول! . . لامؤاخذة يا أستاذ!» .

- «عينى!» .

هكذا رد عليه أسعد الدهل؛ سلمه مبسم الشيشة؛ ثبَّت الحجر فى البُخْش، غرف النار بالملعقة وصب مسحوقها فوق الحجر بعناية وحكمة حتى يتمزج الحاج حسين فى شفطه للأنفاس بهدوء

واستيعاب؛ راح المعلم عيد يفرفط له فوق نار الحجر سماسم من الحشيش راحت تطشطش تنثر عبقا زكى الرائحة يفتح الشهية للحياة؛ بعد سحبه للنفس الأخير نكس الحاج حسين رأسه لاصقًا لحيته بصدره إذ يدفع الدخان من منخريه فكأنهما صاروخان يغادران الجاذبية الأرضية. هتفنا جميعا فى غبطة: قشطات.. قشطات. تسلق المعلم عيد هذه الأنفاس وذكره برواية ما وقع له عصر اليوم فى ورشة الأسطى حسين قشطة.. راح الحاج حسين يرمق أبا ميمى فى تأنيب واستياء؛ جعل يطوح رأسه فى كل اتجاه كعادته حين يتكلم إذ لا يكف رأسه ولا يداه عن الحركة طالما يتحدث:

- «مبسوط يا ابن الوسخة؟! عملتها حكاية ورواية؟ أصلك إبليس متربى جواك! إبليس مين يا عم؟ دا أنت أستاذه ومعلمه! إنت شيخه! شيخ إبليس يعنى!».

- «تشكر يا حاج حسين! إنت أخ عزيز برضه!».

هتف المعلم عيد فى إلحاح:

- «ممنوع الهرب! قل ماذا حصل؟».

- «ما حصل أى شىء وحياة جناب الله! كل الحكاية إن صاحبتك إياها!.. تلك المرأة المزة ساكنة القرافة عندكم.. اليوم فوجئت بها تمر من أمام ورشة الأسطى حسين بالبنطلون الجينز والبلوزة الصفراء وصدرها سائب تحتها بدون سوتيان! تاه صوابى صراحة ربنا.. هل أكذب؟ الكذب خيبة! وأنا رجل! وهى شىء ما رأيته فى حياتى من قبل!.. ساعتها فقط تذكرت أننى غنى بالمال ومع ذلك متزوج من شيخ غفر!.. من بهرتى قلت كم كلمة غزل:

يا أرض احفظى ما عليك! اللهم زد وبارك! سبحان الصانع! وكذا يعنى! لكن بأدب واحترام! . . الحمد لله ربنا ألهمنى وفكرنى بإبليس فاستغفرت وركبت عربتى ومشيت ! حتى العربة النقل تركتها للسواق يأتى ويأخذها غدا!».

أبو ميمى أرسل إليه من تحت لتحت نظرة ذات معنى كأنه يقول بها: اطلع من دول! لكنه قال:

- «يا حاج حسين! يا حاج حسين من الذى مشى وراءها مثل عبد المنعم ابراهيم فى فيلم بين القصرين؟».

حتى الحاج حسين شاركنا فى الضحكة المنفجرة، إلا أنه صاح من خلال الضحك:

- «يا بنى آدم أنا كنت رايح أعمل زى الناس فى الحارة يعنى لم أكن أمشى وراءها!».

قال أبو ميمى:

- «شفيتم بالمناسبة!».

وزفر المعلم عيد من صدر ملىء بالتنهيد:

- «فعلا يا أخى بنت الكلب موزونة على الآخر! أتخيل أحيانا أن كل جزء فى جسدها له تدريب خاص ليبقى على حاله لا يزيد ولا ينقص!».

لوح أبو ميمى بذراعه فى تشويحة حاسمة:

- « لا تدريبات ولا دياولو! . . هذه المرأة ربنا خلقها نتاية! نتاية وبس! . . الحلو حلو على بعضه من يومه! . . إنها ترش الأرض بالأنوثة وهى ماشية دون أن تدرى! . . هى مخلوقة للسرير

وبس! . . وعلى فكرة! ربما كان من تزوجها حيوانا لا يعرف قيمة أن يعطيه الله صُرَة أنوثة كهذه! . . مثلها ليس يقال له كانى ولا مانى! الرجل الفاهم الداير يكون على هواها لتبقى هى دائما على هواه! يكون حماراً إذا تكلم معها فى أمور المعايش أو أى أمور! عليه أن يركز على العجن والدك ولكن بحنية! يكفيه أن مثلها يرضى له وينكمش فى حضنه! وهل هذا بقليل؟ طلاق تلاتة لو رضيت هذه الفرسة أن تتزوجنى لجعلتها تستحم كل يوم فى نهر من عطور جديدة، فكله فى النهاية لى! . آه! آه . . ضاع العمر قبل أن أشبع من المرأة!».

شوح الحاج حسين فى وجهه بقرف:

- «احمد ربنا أن لقيت من ترضى بالزواج منك وتنجب لك عيالا كالورد خسارة فى عضمك! أنت نمرود! . . أنا تايه عنك؟ . . اخز الشيطان بدلاً من أن أسلط عليك أم العيال تضربك بالمتوفلى على دماغك!».

قال أبو ميمى:

- «أم العيال لم تعد زوجتى ياحاج سحس! اليوم هى واحد صاحبى لا أكثر ولا أقل! كل واحد ينام فى حجرته! حتى لم تعد تخدمنى بعدما دخل الخدم بيتنا ومسخوا طعم البيت جعلونى أحس دائما كأننى مسافر فى فندق!».

سأله المعلم عيد باهتمام شديد:

- «إنما هل أنت جاد يا أبو ميمى؟ يعنى لو دخل الكلام فى الجد تتزوجها فعلا؟!».

- «طلاق تلاتة فى الحال! أكون امرأة لو أجلت عقد القران ساعة

واحدة! . . ولماذا التأجيل؟ . . كل شيء موجود بوفرة: بيوت وعفش وفلوس وصحة على خيرها . . فعلام التأجيل؟! ابعت هات المأذون وحياة أبوك!».

تابعه المعلم عيد في انبهار يعكس قناعته المتماهية مع قناعة أبي ميمي؛ قال:

- «معك حق والله!».

هتف الحاج حسين ساخرا:

- «خلاص على بركة الله! المعلم عيد ياخد الأستاذ ويروحوا بكره يخطبوها لك من نفسها!».

اعتدل أبو ميمي صائحا في حرارة:

- «يا ريت! يا ريت!».

رمقه الحاج حسين في بلاهة لكن شعورًا بالحسد راح يترقرق في عينيه يكاد يحقد على أبي ميمي. أما المعلم عيد فقد أطرق في صمت كأنه تلقى صدمة؛ خبط ركبتيه بكفيه، ثم شرع يقتطع التعميرة ويرص في الطبق بشيء من العصبية الطارئة.

١٢
فى مخدع الأنثى

كنت أتعجل النزول من غرفة مكتبى فى الطابق السادس من مبنى الجرنال قبل أن يدهمنى زائر يعطلنى عن النزول؛ ولكن ما أن هممت بالانصراف حتى رن الهاتف بإلحاح فيما أنا مصرٌ على تجاهله؛ إلا أن خاطرا تسلل إلى قلبى، أوحى لى بأن هذا الإلحاح المتواصل فى الرنين ربما كان وراءه صوت يهمنى الرد عليه. رفعت السماعة بعصبية:

- «مرحبا!».

جاءنى صوتها عريضا ناعما رصين القوام، صوت ذو كبرياء حميم مؤثر بقدر ما فيه من رقة ودماثة:

- «أستاذ أدهم فتحى أنا فى منتهى الأسف لأنى اقتحمت عليك مكتبك من غير ميعاد!.. لكن.. سعادتى بالتعرف عليك أزالت الحواجز بيننا بسرعة! اعذرنى إن تصرفت معك كالأصدقاء!..».

- «مدام هند؟».

- «نعم أنا هند سليمان!».

- «من حقك طبعا أن تكلمينى متى شئت فى أى وقت!

إننا أصدقاء بالفعل! وأنا الذى يجب أن يعتذر عن تقصيرى فى الاتصال بك!».

- «هل ستمر اليوم على ورشة الأسطى حسين؟».

- «سأمر طبعا!».

- «خلاص! اتفقنا!».

- «على ماذا!».

- «على أنك ستمر على الورشة كى أراك!».

- «إن شاء الله مسافة السكة!».

- «إلى اللقاء!».

كان الأسطى حسين قشطة يراقبنى وأنا أركن سيارتى فى الممر الجانبى بحيث تكون مرئية لكل من فى الورشة؛ فلما نزلت وجدته واقفا بجوارى مقربا رأسه من رأسى مسلطا عينيه فى عينى فى غبطة جهنمية كطفل يحسد أخاه على هبرة لحم جاءته من باب الله. تعاشقت أيدينا، راح يهزنى مهمهما فى عواء وهمهمة وحمحمة مثل كلب مبتهج:

- «هنيا لك يا عم!.. بس على فكرة!.. أنت تستأهلها ونُص! أمال يا جدع!.. أقل منك ما يصحش!.. هى كمان صيَّادة!.. تعرف مين اللى هى تستاهله وتنشن عليه.. عيب يا با الحاج أنا شفت السهم بعينى وهو طالع من خريطة عينيها طاير على عينين حضرتك!.. تعال!.. دا احنا ليلتنا فل ان شاء الله!.. هدية الصاحب لصاحبه تلاتة: دى أهم واحدة فيهم!».

سحبني من ذراعي الأيسر؛ مضى في منحدر يؤدي إلى ما يشبه الحي الأرقى؛ بالفعل نشعر من أول وهلة أننا كنا في مقابر شعبية عشوائية متراكمة فوق بعضها كيفما اتفق ثم انتقلنا إلى حي أرقى حيث لا مقابر في العراء مطلقا، إنما هي أحواش أحواش أحواش، مبنية كلها بالحجارة، يبدو عليها ما يبدو على الأحياء النظيفة المتميزة الهادئة من تشكيلات متعددة في المعمار؛ ثمة ما يشبه القصور والفيلات والبيوت المتوسطة؛ جميعها، حتى المتواضعة منها، محندقة وجميلة ومهيبة، ممراتها حافلة بشجيرات الصبار والحسك والأشواك؛ لكن الشمس التي تنصبُ أحد معسكراتها هنا طوال اليوم جعلت كل شيء في منتهى الوضوح حتى في جنح الظلام؛ تطفش الثعابين تموت العقارب يرحل البعوض والبق والقمل والبراغيث وكافة الحشرات سيما والمنطقة مرتفعة عن سطح وادي النيل بما يوازي ارتفاع جبل المقطم أي أن الهواء هنا نقي جاف صحي. . ها هي ذي شمس الأصيل تطرح أطرافا من عباءتها البرتقالية الواسعة على جدران الأحواش التي تذكرني بالمدينة الإقليمية الهادئة قبل اختراع السيارات، وعلى واجهات الأحواش الحافلة بالنقوش الزخرفية والتماثيل الجبس الملتصقة بها، وعلى البوابات الحديدية الموصدة. . بدت مدينة الأحواش برتقالية اللون ساحرة، مفعمة بإحساس رمضاني من ذكريات طفولتي البعيدة حيث تسكن الحركة تماما في الشوارع في مثل هذه الحصة في انتظار مدفع الإفطار؛ لحظتئذ شعرت بأن وراء هذه الجدران والبوابات أرواحا بشرية تتأهب الآن لتجهيز الإفطار؛ يا للغرابة؛ أكاد أشعر الآن بأن للموتى أنفاسا يشعر بها بعض الزوار وهم سائرون؛ أشعر كذلك بالأمان المطلق؛ أتذكر أنني جست خلال

هذه الأحواش ذات ليلة بعيدة مضت متتبعا خطى هند سليمان حينما رأيتها تدخل هذه المدينة ثم تختفى دون أن أقفو لها أثرا . . مع ذلك سُقْت اللؤم على الأسطى حسين قشطة :

ـ «إحنا رايحين فين يا اسطى حسين؟!» .

سلت ذراعه من تحت إبطى ، جعل من أصبعه السبابة تندةً فوق عينيه متخذا بذلك وضع الردح البلدى ؛ ردح بالفعل :

ـ «نعم نعم نـ ع اا م؟! جرى إيه يا عووومر؟!

مش كفاية يا عرس عليك؟! . . موديك لحبيب القلب ياحبيبى!» .

حود فى الممر إلى اليمين ، توقف عند شباك ، نقر بأصبعه على درفة الشباك الخشبية ، مشى خطوات نحو بوابة نفس الحوش الواقع على ناصية الممر الذى دخلناه ، مع ملاحظة أن كل حوش يقع على ناصية ممر . بعد برهة وجيزة انزاحت درفة البوابة الحديدية الثقيلة ؛ ظهرت من ورائها مدام هند سليمان مبرومة فى روب دى شامبر من النوع الأنثوى الفاخر ، قالت فى ثقة يحلم بربعها زعيم من أولاد الليل :

ـ «مرحبا! . . تفضل حضرتك! . . تفضل يا اسطى حسين! . . أهلا وسهلا!» .

سبقتنا إلى باب داخلى من الخشب المخروطى المسبوك ؛ صعدنا درجتى سلم رخامى ؛ صافحتنا باليد فى حرارة واحترام لا مجال لإنكارهما . وسعت لى ، دلفت إلى الداخل ؛ دلف الأسطى حسين من ورائى ؛ إذا بنا فى ردهة لا فرق بينها وأية ردهة فى أية شقة سكنية تستخدم الردهة كغرفة للمعيشة ؛ على الأرض سجادة وطاقم أنتريه

عتيق «خرج بيت»، فى الركن كنبة استديو تصلح للجلوس والنوم معا فى أعلى مسندها الخلفى رف صُفت عليه مجموعة من الكتب ذات الأغلفة والكعوب الحميمة التى أعرفها جيدا: روايات لإحسان عبد القدوس ويوسف السباعى ونجيب محفوظ وعبد الحليم عبد الله ويحيى حقى وتوفيق الحكيم وطه حسين وبعض مؤلفاتى الحديثة النشر؛ أربعة مقاعد من نفس طراز الكنبة كلها منجَّدة بالساتان الأصفر المنقوش بالأسود، فى الوسط ترابيزة وسط مستطيلة عليها مجلات روز اليوسف وصباح الخير وجريدة الأهالى وكل جرائد اليوم؛ فى الركن المقابل مكتبة عريضة محندقة مكونة من عدة طوابق، واحد فيه جهاز تليفزيون ملون أربعة وعشرين بوصة من ماركة شهيرة جدا وكان مفتوحا على المسلسل اليومى بصوت واطئ؛ فى الثانى جهاز ريسيفر وسلكه الواصل إلى الطبق على سطح الحوش واضح للعيان؛ فى الثالث جهاز فيديو كاسيت من نفس ماركة التليفزيون، يوجد رف آخر منفصل من طابقين عليه جهاز راديو كاسيت وعدد هائل من شرائط الفيديو كاسيت والراديو كاسيت.. يطل على هذه الردهة ثلاث فتحات طولية، الأولى إلى اليسار عبارة عن ممر قصير يفضى إلى حجرة كبيرة هابطة عن أرض الردهة بثلاث درجات رخامية، فى وسطها تقوم قُبة المقبرة يرتفع على رأسها الشاهد واقفا، فى واجهة القبة رخامة عريضة مثبتة بترميم حديث منقوش عليها اسم السيدة المغفور لها جمالات هانم ظاظا عقيلة اللواء سليمان بك ظاظا حكمدار البحيرة.. إلخ؛ الفتحة الثانية إلى اليمين تؤدى إلى تقفيصة أعدت حديثا لقضاء الحاجة، من الواضح أن الحوش قد أضيفت له الحياة فى تجهيزات كثيرة لحل مشكلتى المياه والصرف الصحى؛ أما الفتحة الثالثة فإنها فتحة

حجرة النوم؛ لم تتحرج مدام هند من فتحها لنا على وسعها ودعوتنا للفرجة عليها: سرير نحاسى بعمدان بكامل فرشه، إلى يمينه دولاب مشغول بالأويمة فى قلب درفته الوسطى مرآة بيضاوية عريضة أصيلة؛ فى هذه المرآة تظهر على اليسار شماعة بحامل نحاسى مضلع؛ قالت مدام هند إن هذه الحجرة وهذا العفش كله من تجهيزات أمها، نقلتها هنا قبل موتها، لكى يستريح من يجيئون لزيارتها بعد موتها فتغريهم القعدة بالبقاء بجانبها أطول فترة ممكنة، وكأنها كانت تعلم أن ابنتها سوف تضطر إلى البقاء هنا بقية عمرها. . لكننا، حسين قشطة وأنا، كلانا كان مفتوح العينين على كل ما يرى بشغف غريب؛ تجمدنا من الذهول فى وقفتنا، لاشىء فينا يتحرك إلا نظرات مخضوضة مرتبكة؛ كان الجراب الجلدى معلقا من حزامه على الشماعة فوق ثياب داخلية راعشة لبدن الأسطى حسين؛ يحوى الجراب مسدسا ـ طبنجة ـ مقاس تسعة مللى؛ شعرنا بموكب الضوء الأنثوى يصافح ظهرينا، وبوجه مدام هند ـ وإن من بعيد ـ بين كتفينا، صوتها الجامع بين الأرستقراطية وأريحية الطبقة الوسطى يهدر فى أسماعنا:

ـ «كانت هذه الرخصة باسم أبى اللواء سليمان ثروت عبد الحق ظاظا! . . وجددت باسم أمى! . . وتمكن أخى ضابط الشرطة ومدير علاقاتها العامة يرحمه الله من توريثها لى باعتبارى ابنة ضابط ومعرضة للعدوان فى أى وقت!».

تشككت فى أن يحدث هذا التوريث للسلاح من الناحية القانونية فليس لى خبرة بهذا الأمر، لكننى تقبلته بصدر رحب دون مناقشة لاجدوى منها؛ استدرنا إليها فإذا هى قد سبقتنا إلى الردهة؛ جلسنا كيفما اتفق؛ سحبت من تحت كرسيها صينية عليها إبريق نحاسى

للقهوة العربية؛ سخنته على السبرتاية خلال عبارات الترحيب؛ شربنا عدة فناجين متتالية؛ وقفت، قالت للأسطى حسين إن عليه أن يسبقنا ليجهز لنا كرسيين منعزلين وراء حوش خوند لنجلس هناك خمس دقائق . .

عندما جلسنا وراء حوش خوند كانت وفود باهتة من ضوء عواميد النور فى طريق السكة البيضاء تمر من فوق أسطح الأحواش القزمة لينحدف فوقنا تحت جدار حوش خوند، يجعلنا بالكاد نرى بعضنا بوضوح، الجو ساحر جدا؛ الولد محمود سقانى عشرة حجارة فى خيط واحد ثم انصرف على ألا يعود إلا إذا بعثنا فى طلبه؛ فلما انفردنا ببعضنا بمعنى الكلمة اعتدلت مدام هند فى جلستها أكثر من مرة، زفرت بعمق، أخيرا نطقت:

- «لن أكلمك الآن فى أمر الخدمة التى قلت لك إننى سأطلبها منك! . . إنما طلبت مجيئك اليوم . . عفوا إنى فى غاية الأسف . . لأكلمك فى مشكلة أخرى طارئة!».

عدلت جلستى لأواجهها باهتمام شديد شاعراً بأنى صرت طاقة من التحفز والانتباه لما ستقول . أشعلت سيجارة، قالت:

- «صاحبك الذى تجلس عنده! المعلم عيد أبو القاسم!».

- «ماله؟!».

- «تجاوز حدوده معى!».

- «كيف؟!».

- «منذ كم يوم! بعد أذان العصر بقليل! كنت لا أزال جالسة على سجادة الصلاة أنهى قراءة التحيات! . . إلا وأسمع خبطا على

الشباك! . . بعد أن سلمت خرجت إلى البوابة . . من؟ . . ظهر أمامى: أنا المعلم عيد أبو القاسم! حوشك هذا تحت مسئوليتى! . . أهلا وسهلا! ماذا تطلب يا معلم عيد؟ . . قال: كلمتين اتنين! . . خير؟ . . افتحى! . . كيف أفتح يا معلم عيد؟ أتظنها وكالة من غير بواب؟ قل ماذا تريد بالضبط وأنت فى مطرحك! . . رفع يده بكيسين من الفاكهة: خذى هذا أولا! . . تركت يده معلقة فى الهواء بالكيسين: عن إذنك! وفى قفزة واحدة دخلت حجرة نومى وعدت إليه بالطبنجة ويدى على الزناد! قلت: هذا مسدس مرخص أدافع به عن نفسى ضد أمثالك من ثعالب الطُرب! إن لم تحفظ أدبك الآن وتمشى حالا سأضرب فى المليان لأنك تهاجمنى فى مسكنى! إياك أن تكررها وإياك أن تفتح فمك بسيرة ما حدث! . . دلدل ذراعيه ورأسه وأذنيه وقال: وعلى إيه؟ الطيب احسن! . . ومشى وقفاه يقمّر العيش!».

كانت بلا شك تنتظر أن الاندهاش الذى أغرقنى فى ذهول واستنكار سوف يؤدى بى إلى الغضب، ففوجئت بأننى قد استغرقت فى ضحك عميق لاينى يتجدد حتى وجعنى قلبى ودمعت عيناى؛ مما اضطرها إلى أن تضحك هى الأخرى وبنفس العمق ولكن بإيقاع مأساوى يعكس الشعور بالسخرية مما يحيق بها من أعاجيب الزمان والبشر . . مع ذلك سألتنى:

- «هل الأمر مضحك فى نظرك؟!».

- «بصراحة نعم!».

- «دماغك مثل دماغى طبق الأصل على فكرة وربما كان هذا هو السبب فى أننى دعوتك أنت بالذات لأحكى لك الموقف. . تصور أننى بعد انصراف المعلم عيد مدلدلاً أذنيه أغلقت الباب ورائى وهات يا ضحك ضحك ضحك! . . أنا أعرف من الأصل أنه موقف مضحك لكنه موضوع! . . ومن المؤكد . . خل بالك معى . . أنه قد يتسبب فى مصيبة كبرى! هو مضحك مع نفسى أى نعم أو بينى وبين صديق مثلك ولكن اسمح لى . . أنا طبيعتى الجد لا أحب الهزار ولا الطراوة ولا المياصة! حاجة واحدة من هذه الصفات كفيلة بأن تمرمطنى وتجلب علىّ الهوان وفى النهاية ترمينى فى صفيحة الزبالة! . . آسفة! الإنسانة فى بلادنا يمكن أن تكون قوية وشريفة وعفيفة وتظل طول عمرها ماشية على الصراط المستقيم ولكن حبة مياصة أو حبة هزار تشجع الناس عليها ومتى شجعت الناس عليها مرة واحدة تكون وضعت نفسها فى حنك الطامعين فيها فتمتلىء حياتها بالأحقاد والشائعات فإذا بها تتلوث دون أن تكون ملوثة! . . المجتمع المصرى وأنت سيد العارفين لا يغفر للبنت إذا اهتز برقع الحياء فوق وجهها فتصور أنت لو أنها خلعته! مجتمع لا يحترم المرأة إذا شك مجرد الشك فى سلوكها!».

فوجئنا بظل الواد محمود عملاقًا يتسلق جدار الحوش المواجه لنا قبل ظهوره من الكوعة المفتوحة على السكة البيضاء يحمل كل المعدات فى شيلة واحدة: الجوزة ومصفاة النار فى يمناه، وصينية عليها حجارة المعسل ومعها كوبان من الشاى الكُشرى المخصوص. تبادلنا نظرة حنق أنا ومدام هند لأننا أوصيناه بعدم المجىء إلا إذا ناديناه فما باله يهزأ

بوصيتنا؟!؛ فى نفس الوقت كنت فى داخلى مبسوطا من مجيئه إذ كنت على وشك أن أناديه بعد اتضاح هذه الحادثة المضحكة. قال محمود وهو يقعى أمامنا واضعا معداته فوق سطح مقبرة مجاورة كنت أتكئ على شاهدها بذراعى:

ـ «الأسطى حسين بيمسى!».

اتضح أن مدام هند تشاركنى فى حب دماثة أخلاق وأدب الواد محمود الذى بلغ العشرين من عمره ولا يزال يخجل ويضطرب حياءً كالأطفال المؤدبين؛ تناولتْ منه كوب الشاى وناولته نصف جنيه بحاله:

ـ «مش خسارة فيك يا محمود!».

وضع كوبا بجوارى على سطح المقبرة؛ أقعى أمامى ساندًا مؤخرته فوق علبة سمن مقلوبة، وضع الحجر فوق البُخش ومدّ بوصة الجوزة، أمسكتها وعدلتها على فمى:

ـ «حلمك علىّ شوية يا محمود! أنا وحدى سأشرب! يعنى لابد من وقت بين كل حجر وحجر!».

قال محمود فى أدب ولطف:

ـ «إه؟ وأنا! ما أملأ عينك؟ الكيف مناقلة وأنا سأشرب مع حضرتك حجرا بحجر! إلا إذا رفضت حضرتك!».

ـ «تعرف أنك حبيبى أم لا؟!».

ـ «ربنا يديم المعروف يا سعادة البيه!».

وأنا أطقطق الأنفاس مثل القطار عند قيامه من المحطة تمهيدا تنفسيا للسحب الطويل، راودتنى الخشية من قدوم الأسطى حسين

قشطة وراء محمود، فعمدت إلى محاولة إنهاء الموقف قبل مجيئه، قلت لها:

- «تكتفين بإطلاعى على الموقف أم تطلبين منى شيئا بعينه؟».

وضعت ساقا على ساق وأمالت جذعها نحوى لتقريب رأسها من رأسى بقدر الإمكان:

- «هل ترانى أطلبك وأستقبلك فى منزلى لأحكى لك فحسب؟ ما كان أغنانى عن ذلك مكتفية بما فعلته فى لحظتها! وبأنه شىء مضحك وينتهى الأمر!.. لا.. إنما فكرت جيداً فى ردود فعله وهى غير مضمونة العواقب خاصة فى مثل هذه المواقف المسببة للحقد على الأنثى الأبية المنيعة!.. أنت كروائى تفهم هذا جيدا وتتصوره!.. ف.. (وغمزت لى بعينها نحو محمود غمزة خفية ذكية).. بطلة قصتك التى أحدثك عنها الآن تبحث عن طريقة لإيقاف صاحبها عند حده قبل أن يعمى الحقد عينيه! فهداها تفكيرها إلى رجل عاقل يستطيع الانفراد به ويقنعه بأن يشيلها من دماغه نهائيا! يقنعه أنها أبعد ما تكون عن مناله وليس هو بالشخص الذى يمكن أن تبادله أى شعور!.. أنا معجبة ببطلة قصتك جدا لأنها سيدة محترمة لها ظروف مأساوية خاصة وعندها أولاد كبار يعيشون فى بلاد الغربة وهى مستعدة للموت قبل أن يصل إلى علمهم أنها سيئة السلوك! فأرجوك يا أستاذ أدهم (بابتسامة إشفاق) أن تراعى ظروفها ولا تكن أنت والزمن عليها كما لمست فى النص الذى طلبت منى أن أقرأه وأقول لك رأيى فيه بصراحة وأنت أستاذنا طبعا ما فى ذلك شك، وليس عيبا

أن تأخذ برأى واحدة مثلى من عامة الشعب وتقوم بتعديل وضع هذه البطلة قبل نشر القصة! يجب ألا تكون قاسيا عليها مثل الزمن! . . افعل كل ما تستطيعه لإنصافها! هذا هو رأيى فى الكشكول الأول الذى قرأته يبقى الكشكول الثانى وفيه الجزء الأخير من ختام القصة سوف أقرأه بسرعة ويكون لنا لقاء آخر أحدثك فيه عن رأيي فى النهاية الملائمة لهذه البطلة! . . أوكى؟».

- «فمتى إذن يكون اللقاء؟».

- «زى النهاردة! يوم الخميس القادم! عندى ميعاد فى حديقة جروبى عدلى فإن كان عندك وقت على الساعة الواحدة ظهرا تفوت تشرب فنجان شاى ونتكلم!».

ثم اختلجت ملامحها فجأة كأنها أخطأت خطأ جسيما حيث صاحت مستدركة:

- «لأ! لا داعى لهذا الموعد! نسيت أننى مشغولة لشوشتى يوم الخميس القادم! . . دعها لظروفها سأكلمك فى التليفون لتحديد موعد جديد!».

- «وهو كذلك!».

جمع الولد محمود فوارغه فى شيلة واحدة ومشى، فلما ابتعد مالت نحوى هامسة:

- «موعدنا كما هو يوم الخميس القادم! أنا عملت هذه التمثيلية للتمويه على محمود! . . من يضمن لى أنه لن يبلغ خبر هذا الموعد بيننا لأى أحد ولو بسلامة نية دون أن يقصد فنفاجأ بمن يترصدنا فى جروبى من المتطفلين؟».

- «وماذا فى هذا؟ فليترصدوا! هل نشتغل بالسياسة؟ أم لعلنا خارجون على القانون؟!».

ضحكت:

- «لا تؤاخذنى! أنا أحب أن أحتاط لكل شىء!».

- «لك ما تحبين!».

- «طبعا أنت فهمت كلامى عن بطلتك!».

- «طبعا طبعا مفهوم! ثقى بأن شيئا من ذلك لن يتكرر على الإطلاق!.. سأعرف كيف أؤثر عليه وأجعله يهابك ويبتعد عنك!».

- «ربنا يوفقك!».

نفضت نفسها واقفة:

- «اسمح لى! سأعود إلى الحوش أنزع فيش الكهرباء وأغلق البوابة بالقفل السرى! سأبيت الليلة فى الحلمية إن شاء الله!».

صافحتنى مسرعة وانصرفت كالسهم قبل أن أسألها عن علاقتها بالحلمية؛ لكننى كنت قد قررت ألاّ أسألها عن أى شىء يختص بحياتها على الإطلاق ضمانا لاستكشافها على الطبيعة شيئا فشيئا؛ إلا أننى وطدت العزم على التعامل معها باعتبارها من أنضج المثقفين الذين التقيتهم فى الحياة، أما المرأة المريبة ساكنة القرافة فقد نحيتها جانبا إلى حين.

١٣
سعادة الباشا العربجى

فى تلك الليلة تخلف المعلم عيد أبو القاسم عن الحضور فى سهرة التعريشة. قال أسعد الدهل إنه سافر إلى طنطا شئ الله يا بدوى حيث إن المعلم عيد لا يفوت مولدا من موالد أولياء الله الأقطاب الكبار فى نظره: البدوى والدسوقى والقنائى والمرسى والشاذلى والحسين والسيدة زينب، فكما تعرفون حضراتكم - يقول الدهل - فإن المعلم عيد عضو فى الطريقة الشاذلية أبا عن جد ولم يتحول عن تعاليم أبى الحسن الشاذلى التى ورث عهدها عن أبيه مطبوعا فى كتيبات كثيرة؛ والطريقة الشاذلية لها فى كل مولد خدمة تنصبها فى مكان بارز قرب ضريح صاحب المولد، إذ إنها من الطرق الكبيرة والأساس فى الطرق الصوفية المصرية هكذا يقول الحاج حسين الوراق. ويؤكد الجميع أن المعلم عيد أبو القاسم له فى كل مولد من موالد الأقطاب المذكورين - باسم خدمة الطريقة الشاذلية الأم التى تفرعت عنها طرق كثيرة تنتهى باسم الشاذلية - ذبيحة تبدأ من خروف وتصل إلى فحل جاموس أو عجل بقر أو قاعود، وأنه من فجر الأمس اشتغل الذبح فى المدخل الخلفى للحوش عند الخفير وهدان فى عجل معتبر يليق بالسيد أحمد البدوى الذى بسره الباتع وهو جالس فوق السطوح جاء بالأسرى المصريين من قبضة الصليبيين؛ ترك لنا نصيبنا من اللحم العجالى وشحن الباقى فى سيارة سوزوكى نصف نقل إلى طنطا ملفوفا بالقماش ومن فوق القماش

خيش ملآن بكتل الثلج ومن فوق ذلك كله غُطى الطشت الكبير بملاءة سرير؛ زمانهم الآن فى الخدمة يأكلون الهُبَر مسلوقة ومحمرة فوق أناجر الفتة ولسوف نفعل مثلهم بعد دقائق معدودة. ثم صفق الدهل بيديه صائحا:

ـ «الفتة يا بتوع الفتة!».

دخلت ابنته الكبرى صارت عروسا معتبرة ـ فرشت الأرض بالحصير، وضعت الطبلية الكبيرة؛ دخلت البنت الثانية ـ ما شاء الله صارت عروسا هى الأخرى ـ تحمل فوق رأسها صينية كبيرة من الألمونيوم بعرض الطبلية. هب الحاج حسين الوراق واقفا ليرفع الصينية عن رأس الصبية ويضعها فوق الطبلية محدقًا فى سحب الدخان المتصاعدة من سلطانية الشوربة وأنجر الفتة وهُبَر اللحم المرصوصة فوقها، إضافة إلى أطباق أخرى فيها قطع لحم مقلى، وطرشى، وسلاطة..

ـ «ما شاء الله ما شاء الله! انزلوا يا رجاله!».

كان أبو ميمى هو الأقرب؛ نزل عن الكرسى إلى الطبلية مباشرة:

ـ «شى الله يا بدوى!».

أمضينا حوالى نصف ساعة فى أكل وإطراء ودعوات بعمار البيت وزيارة النبى. جىء بالطشت والإبريق فغسلنا أيدينا وأفواهنا ونحن جلوس فى مطرحنا.. استملحنا قعدة الأرض فبقينا عليها طوال السهرة لنكتشف أنها أكثر دفئا وحميمية؛ حقا إن الحميمية تزداد عمقا وأخوة كلما ازداد تقارب الرءوس فى القعدة تكتسب روحا أسرية، تتخالط الأنفاس، تتوارد الخواطر، تصير الاتصالات الخفية الداخلية أسرع وصولاً وأعمق تأثيرا من الظاهرية المعلنة. تلك هى خصائصنا

المصرية التى انبعثت فينا بمجرد جلوسنا على الأرض نتحلق مائدة واحدة؛ لكن. . يا للأسف. . سرعان ما تولدت الآفة الفتاكة التى باتت الوجه الآخر للروح الأسرية الحميمة الأصيلة فينا نحن المصريين المحدثين: العنصر الغائب من أصدقاء الشلة ـ أى شلة ـ يكون دائما أكثر حضورا، ولكن بئس الحضور؛ نعم؛ كان المعلم عيد أبو القاسم ليلتئذ حاضرا بشكل مكثف؛ ولما كنت منهم فى موقف مزدوج نصفه متفرج متأمل ونصفه الآخر مشارك فى الاستماع والتعليق من حين لحين، ولكن بقدر ما أستطيع من الحرص والحذر والتحفظ لأننى بحكم التلطم فى حوارى الحياة وقصورها الشامخة أصبحت على قناعة يقينية من أن الذين يبادرون بالتجريح فى الغائب هم أوائل من يبادرون بإبلاغه بكل ما قالوه، ولكن على لسان الآخر حتى وإن لم يشارك هذا الآخر فى الحديث من الأساس. . أشهد أننى تحيرت، وقعت فى بلبلة؛ فلقد اختلط المدح بالنميمة؛ التبست أخبار الفضل بأخبار الذم والتعريض، تتعدد الحكايات، تترادف، تترهل، تسيح حدود الخواطر والنوايا على بعضها البعض؛ يعجز المراقب أو المستمع السلبى عن الفهم، لا يعرف على وجه الدقة والتحديد ما إذا كان المقصود من وراء هذه الحكايات مدح الشخص وتمجيده أم تدميره وتحقيره وتشويه كل ما هو جميل فيه؟!. .

أفقت من هذه السرحة المشمأنطة المُزْورَّة على صوت الحاج حسين الوراق يقول:

ـ «المعلم عيد من أحسن الناس تمًا! طول عمره يفعل الخير ويرميه البحر!. . طبعا يا جدع: حَيقول أجيب منين؟!. . ربنا يكرمه كمان وكمان لحد ما يجيبنا ورا!».

برزت كرة أسنان أبو ميمى من جراب الحنك، امتدت حتى كادت تصل إلى أذن الحاج حسين؛ انفشخت عن زئير يشبه الضحك:

- «باركت له على المرسيدس الشبح الجديدة آخر موديل؟!».

- «تقصد الخنزيرة؟ باركت له طبعا من زمان!».

- «غير الخنزيرة! هناك موديل جديد اسمه الشبح! دخل منها حوالى سبع أو ثمانى عربات إلى مصر كلها.. الشيخ حَامد عمران! والحاج محمد السمدسيى! والمعلم سماعين الحمصانى! والواد خيشه اللى كان واقف بعربية كبده ومخ قدام سينما الفردوس! وسحس بتاع الكشرى ادى خمسة! وصابر حمؤه آدى ستة والمعلم عيد آدى سبعة.. أنا عاددهم بالواحدة!!».

- «استلمها فعلا؟!».

- «وسافر بها اليوم إلى طنطا وراء السوزوكى!».

هكذا أضاف أسعد الدهل فى نبرة حرت فى تفسير مرماها النفسى أهى حقد دفين أم مجرد إعلان خبر؟! هتف الحاج حسين الوراق:

- «يستاهل كل خير! طبعا يا أستاذ! هذا رجل باسم الله ما شاء الله يتحصل من وراء هذا البستان المخيف على مئات الألوف من الجنيهات كل موسم!..».

ركب عليه الدهل:

- «والموسم فى ذيل الموسم سعادتك!.. الأيام كلها مواسم سعادتك: عنب! تين! بلح! موز! برتقال سفندى جوافة مانجو خوخ رمان كريز برقوق مشمش فراولة قشطة كاكا تفاح وحاجات حاجات مواسم مواسم مواسم كل يوم، غير فواكه التصدير اللى بيحجزوها المصدرين وهى لسه عجر!».

ـ «ربنا يزيده! ما دام بيدلع نفسه ربنا يديه ثمن الدلع! ولو دلعنا معاه يديه أكثر!».

خيل لى أن أبو ميمى تلقف أسنانه كالكرة صار ينطِّقها ينطحها برأسه وجبينه وأنفه كاللاعب الماهر، إذ هو ـ كالحاج حسين ـ يتحدث دائما بحركة من رأسه أسرع من لسانه ويديه، ذقنه رائحة جايئة صاعدة هابطة فيما كرة الأسنان تتنطط فوق شفتيه لكى تبروز الضحكة أو تربط عبارات الكلام فى صرر كصرر النقود المعدنية فى العصور الوسطى، يرمى بالضحكة الصاعقة فى أبعد زاوية من الأسماع لدرجة أننا كثيرا ما لا نسمعها إلا من صداها وهو يرتد متفتتا فى فضاء الحجرة:

ـ «أمال يا ابا الحاج هو المعلم شوية؟ أما صحيح ما لكم حق!.. المعلم عيد الكبير عملهم منذ وقت طويل! فى الأيام التى كان لها شكل نعرف فيه الصبح من الظهر من المغرب، وليس كأيامنا التى لا نعرف لها صبحا من مسا! المعلم عيد كتر خيره أنه يرضى بأن نقعد معه ونحن بالنسبة له ناس فكة: شلنات وبرايز!.. زوج بنتى محاسب فى البنك الأهلى يقول لى إن رصيد المعلم عيد باسم الله ما شاء الله حوالى تلاتين مليون ودائع بخلاف الحساب الجارى والرصيد الخارجى!.. يا جماعة هل رأيتم قصره فى مصر الجديدة عند الكلية الحربية؟ حديقة وجاراج وأبواب كلكترونية تفتح من تلقاء نفسها أمام البنى آدم والعربة وتنغلق بعد الدخول من تلقاء نفسها أيضا؟!».

صاح الدهل متفاخرا:

ـ «شفته سعادتك! دخلته! على فكره المعلم عيد اشتراه كما هو

سعادتك! لو كان هو الذى بناه ما جعله هكذا! . . أصل الحكاية سعادتك إن خواجه أمريكانى بناه على طريق المطار على شأن مستشفى سياحى للأمراء ومشايخ البترول! . . والمعلم عيد كان يملك الأرض ولا أحد يعرف! اشتروها من واحد نصاب! وكان المعلم عيد يرى البناء شغالا فى أرضه فنصحه محاميه العُقر الشضلى أن يتركهم يتورطوا للنهاية ليعرف كيف يمص دمهم! وحكاية طويلة عريضة نسيت وقائعها لكنها انتهت فى المحاكم بفشل المشروع واشترى المعلم عيد القصر منهم ليشوف له صرفه بدلاً من هدمه بقرار المحكمة تنفيذاً لطلب محاميه باسترداد الأرض ولا شىء غير الأرض! . . وأخيرا سكن فيه! مع أنه يملك عدة عماير فى مدينة نصر مقفولة الأبواب لطوارئ الأحفاد! . . بالذمة ده كلام سعادتك؟! أليس من الأصول أن يتعطف بشقة على واحد زى حالاتى؟!».

اندفعت كرة أسنان أبو ميمى فصكت جبهة الدهل بضحكة كالتسديدة القوية:

- «معك نصف أرنب؟!».

- «هع ع ع! . . ولا نصف نملة!».

- «يبقى (. . .) أمك أحمر!».

- «يعنى إيه سعادتك؟!».

- «يعنى تحمد ربنا على العز اللى إنت فيه!».

- «اللهم لك ألف حمد وألف شكر! . . إن زادت عن كده تفسد!».

طبطب الحاج حسين الوراق على ركبة الدهل مضيِّقا عينيه فى رجاء وتوسل مسرحى:

- «اسقنا الحجرين دول ربنا يخليك!».

نهض الدهل ليغير ماء الشيشة لهذا الطاقم الجديد. الحاج حسين هو الآخر يتحدث بنفس طريقة أبى ميمى، التى هى طريقة أولاد البلد الأقحاح: يكثر من هز الرأس والتشويح بالذراعين، إلا أن ملامح وجهه المسفوط تحت اللحية السنية تكشف عن بقايا جمال شبابى قديم، ضحكته جهيرة خشنة عريضة الصوت هى نفسها مثيرة للضحك، ألقاها فى حجر أبى ميمى فنزلت مكتومة الأصداء:

- «ما كنتش قادر تطلع طربى يا ابن المركوب؟!».

- «يا ابا الحاج كل شىء نصيب!».

فرقعت الضحكة الميمية، لقد رد أبو ميمى الشتمة للحاج حسين فى غمزة مفضوحة تعنى أن ابن المركوب هذا أبوه الحاج حسين؛ ثم مال نحوى فى شىء من التودد:

- «والله يا أستاذ أنا الذى تنمردت على مهنة الطربى مع أنها مهنة أبى وجدى!.. أنا أصلى وش فقر!.. أخوالى عربجية كبار محترمون!.. على فكرة يا أستاذ أدهم! أنت طبعا تسمع عن نجيب محفوظ! هل تسمع عن الفتوات الذين يكتب عنهم فى رواياته؟.. أفكرك! له أفلام كثيرة يا رجل.. ما علينا.. أخوالى كانوا منهم! من فتوات الحسينية والجمالية والحمزاوى! عائلة الحاج حسين وأهله كانوا خدما عندنا..».

وراح يتباعد آخذا وضع الملاكم الذى يدارى وجهه بذراعيه اتقاءً

لضربات الخصم متوقعا أن يرميه الحاج حسين بمنقد النار أو بالكرسى؛ لكن الغريب أن الحاج حسين خيّب توقعه وقال:

ـ «فعلا يا أستاذ! أخواله كانوا ولاد وسخة ما يتخيروش عنه! كانوا ظلمة وقتالين قتلة! بس الحق لله كان لهم فايدة كبيرة!».

استطرد أبو ميمى:

ـ «كل أخوالى فتوات وعربجية فى نفس الوقت يعنى نجيب محفوظ لم يخترع من دماغه!.. خالى طلحة فتوة الباطلية هو الذى خيب أملى!.. كنت أهرب من المدرسة وأجرى إليه أتفرج على الأبهة اللى هو فيها أتمتع بحمايته! كل تجار المخدرات يوردون له المعلوم كل يوم!.. مجلسه عقبال عندك حاجة نظاكة!.. أتخن شنب فيكى يا باطلية يطأطئ رأسه أمامه.. خالى طلحة أصبح كل شىء فى الدنيا فى نظرى!.. أروح معه كيمان الدراسة لأتفرج على القتال بالنبابيت تهوى على الرءوس تفلقها وعلى الظهور تقصمها على الأذرع والأرجل تكسرها!.. يعود موكب المنتصرين بزفة!.. يبقى القتلى والجرحى فى العراء لحد ما يجىء أهلهم يتولونهم!.. هذه المناظر قوّت قلبى.. أحببت أن أكون فتوة!.. لما اشتد عودى وطلسم دماغى وخرشمت عددا من العيال جربت فيهم الفتونة طردتنى المدرسة!.. طظ!.. دربنى خالى على مسكة النبوت وكيفية توجيه الضربة وتفادى الضربات بنفس النبوت! يدفننى فى الرمل السخن، يجعلنى أتمرغ على الحصى وعلى الزجاج المكسور حتى تبلد جسمى! أصبح يصدرنى فى المعارك الصغيرة وفى المرور على الأسواق لجمع الفردة والإتاوة!.. لكن.. فرحة ما تمت!.. قامت هوجة العسكر

وطردوا الملك وانضرب نظام الفتونة كله بسبب إبراهيم كروم فتوة بولاق أبو العلا؟ . . بسلامته أحب أن يعمل حركة جدعنة مع الرئيس جمال عبد الناصر! . . انتهز فرصة أن الزعيم سيزور المنطقة لسبب نسيته! فعلق لافتة من القماش بعرض شارع الجلاء كتب عليها بالخط الكبير: فتوة بولاق يرحب بفتوة العرب جمال! . . والظاهر أن عبد الناصر فهم الحركة جيداً . . فضاع جميع الفتوات فى الكازوزة! . . لم يكن مقسوما لى أن أصبح فتوة! قنعت بمهنة العربجى! لكن ربك كريم! أكرمنى من وسع! . . عندى الآن فضلة خيرك ما يكفى أحفاد الأحفاد مدى الدهر . . والحمد لله!».

علق الحاج حسين الوراق بصوته العريض الخشن:

-«هو صحيح عربجى ملعوب فى أساسه لكنه الحق لله ورث عن خاله طبع الفتوات وأخلاقهم! . . بالك يا عم الأستاذ أدهم . . أبو ميمى هذا كافل . . يتكفل بالإنفاق على دار للأيتام! . . إنما هو مع ذلك ابن مركوب! . . ذيله كذيل الكلب لا ينعدل ولو علقوا فيه قالب طوب . . بدلا من أن يحمد الله على ما هو فيه من نعيم يروح يشغل دماغه بالنسوان! . . النسوان أكلت مخه يا أستاذ أدهم! . . ».

صارت أسنان أبو ميمى تتقافز فوق رأسه الدقيق كرأس الهدهد برقبة طويلة مرنة، قال فى حرارة وحُرقة:

-«باحبهم يا حجيج طب أعمل إيه فى طبعى؟ وأنا متزوج بقى لى تلاتة وتلاتين سنة دك فى دك ليـــلاتى! . . لكن . . طلاق تلاتة كأنى ما تزوجت من أساسه!».

رمقه الحاج حسين بنظرة جانبية خبيثة:

- «إشمعنى دماغك ما انقلبش غير اليومين دول؟ هه؟!».

صاح أسعد الدهل:

- «لما شاف لحم الغزال سعادتك! . . أصله . . أصلنا لامؤاخذة ما بناكلش غير لحم بقرى! ضانى! جملى! . . ماذقناش لحم الغزلان يا اخواننا! . . ولا إيه يا أستاذ أدهم؟ . . ما تقول حاجة يا عم سمعنا صوتك!».

قال الحاج حسين بغمزة من عينيه:

- «لابد لنا فى الذرة!».

ونحن نغادر التعريشة حاذانى أبو ميمى بسيارته، مال برأسه مخاطبا إياى عبر النافذتين؟

- «جايز أفوت عليك بكره فى المكتب!».

- «خير؟!».

- «عايزك فى موضوع مهم!».

- «تحت أمرك يا بو ميمى!».

- «الأمر لله! . . الساعة تلاته كويس؟».

- «تشرف! . . نتغدا سوا فى مطعم الجرنان!».

- «سيبها لظروفها! تصبح على خير!».

- «مع السلامة!».

لأمر ما، تصورت أنه لن يجىء، ربما لأنه لم يكن جادا بما فيه الكفاية، ثم إنه لا يمكن أن يكون له عندى أية خدمة من أى نوع؛ ولكن

من يدرى؟ لعله - كما قال لى ذات يوم - يحب الفرجة على هذه الماكينة التى يدخلها الورق الأبيض فينزل من آخرها جرائد مطوية جاهزة للتحميل؛ إلا أن خاطرا هتف بى أن هذا الموعد لابد أن يكون وراءه أمر مهم يتعين على أن آخذه بجدية؛ وهكذا حرصت على أن أكون فى مكتبى فى الموعد الذى طلبه . .

طرق موظف الأمن باب حجرتى الضيقة المستطيلة ثم دفع الباب داخلا، من ورائه دخل بك محترم فى أبهى زينة فى أفخر ما تنتجه محلات العالم من حلل وقمصان وأربطة عنق وأحذية؛ ليس فى الجرنان كله من هو بمثل هذه الوجاهة والأناقة لولا الصدأ المتراكم على وجهه وجبهته ويديه، إضافة إلى ما فى لهجته من تطجين بلدى خفيف الظل، وكرة أسنانه التى اندفعت نحوى تنطق الضحكات: أهلا أبو ميمى، أومأت لموظف الأمن فانصرف. رفض أبو ميمى أن يشرب أى شىء، رفض غداء الجرنان، قال إنه حجز لنا ترابيزة فى الجنة فهيا بنا . .

ركبت سيارتى مقتفيا خطى سيارته الـ «بويك»؛ عندما رأيت أنه يقترب من بستان عيد ظننت أن هذه هى الجنة التى يقصدها . . اتضح أنه أراد أن أركن سيارتى هنا فى مركنها اليومى وأركب معه. صعدنا ربوة ساحرة نادرة فى أعلى رأس المقطم. الربوه بكاملها - وهى حوالى عشرين فدانا على الأقل - عبارة عن منتجع سياحى شبه سرى لا يكاد يكون معروفا إلا لنفر قليل جدا من عائلات الأرستقراطية الجديدة من رجال المال الأثرياء جدا؛ منتجع مفتوح وإن كان محاطا بسور سميك من الشجيرات الكثيفة المنسقة، أربع بوابات مفتوحة على الجهات الأربع لدخول وخروج السيارات عليها لافتات كبيرة

مضاءة بالنيون حتى فى النهار : البسملة كلمة واحدة بحروف كبيرة على بوابتين؛ وعلى البوابتين الأخريين كلمة : الحمد لله . . مجموعة أبنية متناثرة على طرز معمارية . . منها الإسلامى والفرعونى والباروكى والرومانى وكلها على غاية من الأبهة والجمال والنظافة؛ الشوارع ممرات من الحصباء تتخلل أحواض الشجر والورود والأزهار والبحيرات وحمامات السباحة المكشوفة وبعض ملاعب للجولف والبلياردو والبونج بونج والإسكواش، محلات ذات فتارين زجاجية لبيع المجوهرات وكافة أنواع الهدايا الثمينة وموديلات متفردة من الملابس والأزياء النادرة وأربطة عنق لا يوجد من كل موديل منها إلا واحدة مفردة دليلا على تفردها، أكشاك بلّورية تعرض جميع أنواع الخمور والمشروبات الروحية ذات الماركات العالمية الشهيرة. من الواضح أن الحرية هنا مطلقة إلى أبعد الحدود، لا أحد يحملق فى أحد، السيقان والأفخاذ والصدور متحررة من كل عائق حتى من النظرات المتطفلة؛ واضح كذلك أن أعدادا هائلة من السياح الموسرين يقيمون هنا لفترات طويلة . . مررنا فى زحفنا بالسيارة على الجهات الأربع نستعرضها؛ لفت أنظارنا كثيرون من رجال بالمايوه فحسب يقفون فوق رءوسهم ساندين أرجلهم إلى شجرة أو نخلة أو جدار وقد تجمدوا هكذا فى هذا التمرين الصعب من تمارين رياضة اليوجا. أخيرا توقفنا عند مبنى من طابق واحد مبنى بالألوميتال تتسلقه النباتات الخضراء من كل ناحية، ما أن نزلنا من السيارة حتى تقدم شاب يرتدى بدلة خاصة - يونيفورم - يرتديها جميع العاملين فى المنتجع، ركب السيارة ومضى بها حتى اختفى؛ قال أبو ميمى إن الشاب أخذ السيارة إلى الجاراج وقد سجل عليها رقم الترابيزة التى حجزت باسمنا صباح

اليوم وأننا عندما ننوى الانصراف ما علينا إلا أن نضغط على زر فى لوحة فى الترابيزة فبعدها بثوان معدودة تجىء لنا السيارة لحد باب المطعم. ظللت واقفا أتلفت فى انبهار إلى هذه المدينة الأسطورية: خمائل خمائل خمائل خمائل، تحت الهدوء الساكن حياة تنتفض بالحيوية..

حتى داخل المبنى الألوميتال خمائل، كل ترابيزة خميلة وحدها معدة لاستيعاب عائلة كبيرة أو فريق من الأصدقاء. المقعد يحتويك يحتضنك بالدفء والنعومة يمنحك الاسترخاء اللذيذ، الترابيزة تكاد تكون من البللور، شكلها يفتح النفس. إن هى إلا ثوان معدودة وهطلت على المائدة كميات هائلة من أنواع اللحوم وفراخ الحمام والدجاج والبط، سلاطات، مشهيات مختلفة الأنواع والألوان، أنبذة بيضاء وحمراء، علب مياه غازية، زجاجات مياه معدنية.. شىء مرعب:

- «أنت عزمت من يا أبو ميمى غيرنا؟!».
- «هأ هأ هاى!.. لا أحد.. أنت وأنا فحسب!».
- «سنأكل كل هذا؟!».
- «سترى!».

كنت واثقا بأن ثلاثة أرباع هذه المائدة سيلقى به فى القمامة ولكن المذهل أننا أكلناها فعلا؛ منظر أبو ميمى وهو يتفنن ويتمازج مع الأكل بشهية فتح شهيتى فكدت أباريه فى النهم..

بعد تنظيف الترابيزة جاء النادل بدفتر الحساب، وقع له أبو ميمى على شيك برقم الفيزا كارت، ثم سحب من جيبه حوالى خمسمائة جنيه وضعها فوق الطبق، انحنى النادل شاكرا وجمعها..

- «تكلفت هذه الغدوة خمسمائة جنيه؟!».

ضحك أبو ميمى ضحكة زلزلتنى:

- «هذا بقشيش! الثمن سيأخذه من البنك حالا برقم الفيزا كارت! للبنك ولجميع البنوك فروع هنا!».

المدهش أننى - رغم أنى لم أدفع مليمًا - اكتأبت فجأة وشعرت بالمرارة من هذا السفه. الأكثر إدهاشا لى تلخص فى سؤال راح يلح علىّ: لماذا كل هذا الكرم معى؟ ماذا أمثل أنا بالنسبة لأبى ميمى حتى يجاملنى على هذا النحو المتهور؟.. إلا أن دهشتى ما لبثت حتى بهتت وأخذت تضمحل كلما أوغل أبو ميمى فى الثرثرة...

١٤

تجليات البَسْمَلة والحَمْدَلة

. . «هاهاهاااى . . حلوة على النعمة من نعمة ربى حلوة! . . تبقى صحفيا قد الدنيا ولا تعرف منتجع البسملة والحمدلة؟! عيب عليك يارجل . . الصحفى يجب أن يعرف كل شىء فى البلد! . . أمال ياجدع! الصحافى مباحث على المباحث نفسها! كذا أم أننى غلطان؟ إنكم تنتقدون وزارة الداخلية وجميع الوزارات والواحد منا كثيرا ما يتعجب من كيفية وصول هذه المعلومات إليكم وفى العادة لا نسأل كيف عرفتم لأننا نعرف أنكم عدم المؤاخذة شياطين . . هاها! . .

«يا خَبَرَ بْرَبْ! قصدي يا خبر أبيض لكن لسانى يأكل نصفها! . . على فكرة! أنا بالفهلوة فاهم وضعك: أنت رجل مُكاتب ولك فى القصص والروايات والأوضاع المقلوبة أكثر مما لك فى النميمة والقيل والقال بتاع الصحافة! صح؟ . . طبيعى طبعا أنك لا تعرف منتجع البسملة والحمدلة فلماذا أنت حاسس بالحرج هكذا؟! ربما يكون عندكم محرر صغير من بتوع الحوادث وأقسام الشرطة يعرف جميع الأمكنة المخبوءة فى البلد أما أنت فلا . . هذا مفهوم لى طبعا! كما وأنك من أهل النار لا من أهل الماء! هأ هأ هأ هاااى . . إصح يا باشا . . من أهل النار يعنى حشاش يعنى تعرف جميع الغرز فى البلد وتجار

المخدرات! . . أهل الماء هم طبعا الخمورجية ولهم أماكن سرية لا تُحصى ولا تُعد! . . وهناك ناس بتوع كله! مثلنا . . لهم فى كل شىء! . .

«لعلمك هذا المنتجع موجود من زمان! طول عمره فى هذا المكان ويتجدد مع الزمن! جنة الله فى أرضه المحروسة به وحده! البسملة يعنى وأنت داخل هنا تقول بسم الله الرحمن الرحيم . . والحمدلة يعنى وأنت خارج شبعان تقول الحمدلله! ها ها . . لن يقف لك واحد بالمقرعة يقول لك قل كذا! أنت الذى ستقول من تلقاء نفسك حتى ولو لم ينطق بها لسانك ستكون شاعرا بالفرح وأنت داخل وبالرضا وأنت خارج! النيون سيرغمك على القراءة . . وماله! خير وبركة! كله حلو! . . حتى الجنون حلو برضه مش كده ولا إيه؟ فرفش يا جدع! أمال أنا جايبك هنا ليه؟! . .

«أنا أصلى أحب الحياة جدا يا أستاذ! . . أنت نفسك قلت هذه العبارة أكثر من مرة كلما سمعتنى أغنى لأم كلثوم أمل حياتى وإنت عمرى وفكرونى! . . قد صدقت والله يا أستاذ فى هذه العبارة . . حينما أستمع لأم كلثوم أذوب أتخيل نفسى مطربا مثلها والناس تصفق لى وأنا أريد أن أقطِّع نفسى فى الغناء لينبسطوا أكثر! . . هىء هىء هىء . . لولا أن العربجة سابت أثرها على وجهى ويدى ولسانى وكل حركاتى فربما فكرت فى احتراف الغناء وتمثيل الأفلام ها ها هاااى . . كفك . . طب بذمتى ودينى أنا أتكلم الجد! . . إيه يعنى كنت عربجيا وفتوة؟ أنا الآن رجل أعمال محترم كما ترى! . . أم أنك لا ترى؟! . . أملك الكثير من فضل الله تعالى : شركة للنقل الثقيل لعموم القطر المصرى! شركة للنقل الثقيل أيضا للعالم العربى كليبيا والسعودية

والأردن والكويت والعراق! عندى فضلة خيرك أكثر من مائتى تيريلا بمقطورة! ومثلها للنقل الخفيف من العربات الفورد والسيزوكى والهوندا والمرسيدس! عندى حوالى ثلاثين باصا بأحجام الكامل والنصف والمتوسط والصغير تديرها إدارة خاصة لنقل الموظفين والمفتشين والمندوبين! عندى سيارتان ملاكى لنفسى: البويك والبى إم دبليو القديمة! كل عيل من عيالى عنده سيارته وڤيلته ورصيده الخاص: أربعة رجال وست بنات زوجت منهن خمسا فى عين العدو أما السادسة ففى بكالوريوس صيدلة هذا العام ومن الآن جهزت لها الصيدلية فى الدور الأول بحاله من عمارتى الجديدة وراء كلية البنات! . . عيالى كلهم مؤهلات فوق العالية! كلهم يعملون فى شركاتى ولولاهم ما استطعت أن أقعد معك هذه القعدة أو أشرب حجرين مع الصحبة! . . ملكت الشركات صوريا لأولادى تحايلا على الضرائب التى ترفض أن تصدقك وأنت صادق ثم تضطر إلى تصديقك وأنت تكذب عليها!! . . قنعت بعمولة مجزية عن مجمل أرباح الشركات كلها وأرحت نفسى من وجع الدماغ وتفرغت لأعمال حلوانية أمزمز فى العملية شهرا شهرين ثلاثة إلى أن تطيب وتستوى وأهبر منها هبرة محترمة فى مجال السمسرة وتسقيع أراضى البناء وما شابه ذلك، يعنى تستطيع القول وأنت مطمئن أن رصيدى الشخصى الخاص بى وحدى فى البنك الأهلى حفنة ملايين أشبرق نفسى من أرباحها ميت فل وعشرة . .

«إصح لى يا باشا وشوف معنى الكلام! أنا أحب عيالى أى نعم! أحب أمهم؟ طبعا طبعا يا خبر بربْ عليها وعلى حبى لها! . . هىء هأ هىء . . أنا طول عمرى ولد حبِّيبْ أى والله يا باشا . . لا يشغلنك أنى كنت عربجيا كما يعيرنى صديق عمرى الحاج حسين الوراق هأ هأ

هااى . . الله يجازيك يا حاج حسين لكن لا تنسى أنى كنت فتوة وسأبقى فتوة طول عمرى إن شاء الله! فالقوة والحمد لله بخيرها!! هات لى نبوتا وشوف كيف أقفل لك مدينة بحالها فى غمضة عين! . . ألست الآن ألبس بيكا من البكوات؟ لكن وأنا فى هذا اللبس الأبهة يمكن أن أصير عربجيا بكرافتة سولكا!! هكذا كنت أفعل مع المنافسين لى فى السوق ومع الزبائن النكدة! . . عمرى ما نسيت أننى فى الأصل عربجى لأنى لا أريد أن أنسى الفتونة المنذورة لمناصرة الضعفاء والمظلومين!! هل تصدقنى إذا قلت لك إن البك أو الباشا الجالس أمامك الآن كثيرا ما تهور واشترى من حُر ماله عربات سيزوكى نصف نقل وعربات أجرة لعاطلين يأكلون من ورائها عيشا؟ إن لم تصدقنى فالحاج حسين الوراق يعدهم لك بالاسم!! القليلون منهم يرغبون أحيانا فى تسديد الدين بالتقسيط المريح الممل ولكن حتى هؤلاء حينما يقع أحدهم فى أزمة أبعث له بالمعونة من الأقساط التى سبق أن دفعها!! . . حبى للفتونة ولفعل الخير هو الذى جعلنى أصر على أن يكون لى رصيد خاص باسمى فى البنك لا شأن لعيالى به! حتى أضمن أن لا يعترض أحدهم على ما أفعل فى سبيل الخير من حُر مالى! وعيالى يعرفون ذلك عنى لا يستعجبون لأنهم يفعلون مثلما أفعل فى السر والكتمان . .

«يا خبر برب يا باشا! . . أنا أصلى تزوجت فى سن الصبا! خالى طلحة زوجنى ابنته وأنا فى السادسة عشرة وهى فى الرابعة عشرة من العمر! . . وعلى فكرة كنت كما أنا هكذا نفس العود نفس الطول نفس الوزن! والفضل فى تأسيس قوتى وضبط زوايا جسمى يعود لتدريبات خالى الشاقة على كيمان جبل الدرّاسة فى أواخر الأربعينيات أيام الملك

فاروق. . كان خالى يحبنى أكثر من حبه لابنته! جهز لى كل شىء. .
هو يعنى خسران حاجة من جيبه؟! الجهاز كله جاء من الإتاوات! جاءنا
سمن ودقيق وسكر وعسل وعدس وفول وفاصوليا و. . ما تعدش!
جاءتنا عربات كارو لنقل كل هذا بخيول مكسوة بالطرح الحريرية
الملونة! عربات حنطور للزفاف! . . أرجوك لا تطلب منى وصف ليلة
الفرح لأنها تحتاج لشاعر بربابة: عبده الدمرداش يغنى المواويل! زوبة
العالمة ترقص ومعها حميدة وشفيقة ويسرية وكن من أشهر راقصات
العوالم يشترين خاطر الفتوات من الحسينية إلى الدرب الأحمر! . .
نقوط بالهبل! صباحية مباركة بالأموال من جميع فتوات العطوف
والطماعين والحمزاوى والموسكى والنبوية وعابدين والسكة الجديدة
والصليبة والحنفى والسيدة زينب والإمام الشافعى. . محسوبك من
يومه ولد مستعد للبوظان: صاحب مكيفات من صغره! بتاع نسوان
قرارى! أمال يا جدع! وحق من جمعنا على غير ميعاد إننى أيامها كنت
أنام مع أكثر من خمس ست نسوان فى الأربعة وعشرين ساعة قبل
الزواج! أنا بلغت مبكرا على صدور نسوان من مخلفات خالى
طلحة! . . الزواج لم يقو على هد حيلى فطهقت الولية منى من
بدرى! . . إنما الصراحة هى أعقل منى بكثير وفاهمانى على الآخر! . .
هى التى تصرفت فى فلوس النقوط والصباحية! بمساعدة أبيها اشترت
لنا عربتين وحصانين! ربنا طرح فيهما البركة! فى بحر عشر سنوات
أصبح عندنا عدد كبير من العربات والأحصنة! صارت الأشيا
معدن! . . جاء أنور السادات وفتح الدنيا أمامنا! الكارو أصبحت
سيزوكى! و. . السيزوكى أصبحت الآن هذه الهلمّة الكبيرة التى
كلمتك عنها. . ربنا طرح البركة أيضا فى بطن زوجتى! طوال ما يقرب

من أربعين عاما لا أتذكرها إلا وعلى صدرها طفل ترضعه! كل وظيفتها فى الحياة أن تخلف عيالاً وتربيهم وتحسب المكاسب وتخدمنى بالمرة من ضمن العيال هأ هأ هأ ها اا ى! . .

«مغزى كلامى . . والكلام مغازى كما قال أهل زمان! أن دماغ الست بتاعتى نفعنى ونور لى بصيرتى وكانت دائما تحرضنى على التوسع وإنفاق ثلاثة أرباع المكسب فى تكبير وتطوير الشغل فى مهنة العربجة يعنى نقل البضايع والأمتعة! يعنى صرنا عربجية على نظام حديث! ولو أعطانا الله عمرا سنكون عربجية بطائرات وصواريخ تنقل البضائع مع الناس من وإلى القمر والمريخ! . . كل ذلك بهمة زوجتى وعيالها الأذكياء الأقوياء الشخصية كجدهم طلحة! فأنا أحبها مثل عينى ولكن . . لكن . .

«يا اه . . الكلام حاضر ولكن المغزى الراقد فى بطنى يبحث عن كلام يصلح له! هأ هأ! هىء هىء هىء! يالى من طفل غبى! كأنى لم أتعلم الكلام بعد! . .

« على فكرة يا أستاذ . . نحن جميعا . . اسمح لى ولا تزعل من قولى . . حتى أنت والذين يكتبون ويدبجون القصايد . . تتكلم كثيرا جدا! على الورق أو فى الميكروفونات أو على الشاشات أو فى المقاهى! . . السر فى كثرة الكلام هو أننا لا نجد الكلام الذى إن قلناه تتضح حقيقة ما نشعر به ونريده! إن نطقنا به يفهم الناس فى الحال ماذا يؤلمنا بالضبط ماذا يفرحنا حقا ماذا فى جوفنا من وجع! . . مشكلة والله! . . نقول ونقول وفى النهاية لا نقول شيئا حقيقيا يعبر عما فى قلوبنا وصدورنا ونريد أن نقوله بالفعل! . . سأ . . سأ سأسألك سؤالا يا أستاذ وأنت من المكاتبين أهل القلم ولك كتب كثيرة وتملأ الجرنان

كتابة: ألم تأتك لحظة وأنت تكتب تشعر فيها أن الكلام الذى تكتبه ليس حقيقيا؟ أقصد ليس هو ما كنت تريده؟ أن يصيبك العجز فجأة فلا تجد كلمة واحدة تصلح للمعنى الذى تريده بالفعل؟ أنا من غير مؤاخذة واثق أنها قد أتتك مرات كثيرة! حتى لو كنت لا سمح الله ماكينة تخرط كلاما على الورق! هأ هأ هأ! هىء هىء هىء! . . كفك! . . ما خوف إلا أن تكون تنظر لى باعتبارى مجرد عربجى اغتنى وخلع لباس أهله ولبس هدوم الباشوات . . لا يا باشا! محسوبك جدع يعجبك! رجل بمعنى الكلمة! عقلى من غير مؤاخذة يوزن التخين فى البلد!! لا تنسى أن عيالى علمونى الرطانة بالإنجليزى والفرنساوى بالسمع والتخاطب! وباستطاعتى الهنكرة بالألمانية! وتمشية حالى بالإيطالية! أمال يا جدع! لعلك لا تعرف أننى أسافر وحدى إلى دول كثيرة تبع شغلى! . . إنما أحب أن ألفت نظرك بالمناسبة إلى حاجة: إننا! شلتنا يعنى! المعلم عيد أبو القاسم والحاج حسين الوراق وكم واحد من أصحابنا نؤمن بأن الله يحب الستر! نحدِّث بنعمة ربنا نعم فى كل وقت! ولكن لا نحب البهرجة ولا الظهور بفشخرة كذابة حتى لا نثير علينا حقد الناس ومأمير الضرائب الذين ياما أشطرهم فى الربط على تقديرات جزافية ترعبك لتصير لقمة لينة لحنك المأمور لا يشبع منك أبدا والعياذ بالله! . . وبينى وبينك فإن عقدة جمال عبد الناصر: التأميم يعنى! الاستيلاء على شقاء الناس بحجة الاشتراكية ليس ينساها الشعب المصرى بسهولة! . . الحمد لله كل شىء فى أملاكنا مكتوب باسم عيالنا! . .

«يا خبر برب! عمال ألف وأدور ولايزال كلامى بعيدا عن المغزى الذى يوجعنى وأريدك أن تفهمه وتشعر بوجعه مثلى بالضبط! . . وحياة والدك تستحملنى! أعرف أنى أطبش فى الكلام وأبرطع فى كل

ناحية كالمُهر السأمان فيخيل لى فى كل شطحة أننى خلاص هبطت بالبراشوت على المغزى الذى أريده بالضبط فإذا بالكلام ابن القحبة يشتتنى فى اتجاهات أبعد وأبعد! . . يا خبر برب ياجدعان! . .

« بس! لقيتها! سأريح نفسى وأدخل فى قلبى أنا مباشرة ولا الحوجة لتحسين الكلام! العقدة كلها فى أننا نحب تحسين الكلام فيبعدنا التزويق عن المقصود من الكلام! . . المسألة وما فيها أن الست بتاعتى . . سامحنى يارب! . . سامحينى يابنت خالى! . . هأ هأ هأ . . هىء هىء هىء! . . امرأتى لا تمتعنى فى السرير . . هذا هو رأس الدمل وها أنذا أفعصه وأستريح! وجع ساعة ولا وجع كل ساعة! . . منها لله الداية بنت الكلب التى طاهرتها! . . كانت بنت خالى طفلة بدأت تزهو بصدرها الطالع وأردافها المبرومة وكشحها المفلطح وبدأ كبرياؤها كأنثى جميلة يظهر عليها، يوم فوجئت بسواعد حديدية تطوقها من الخلف فى حوش الدار الواسع! تقعدها فاشخة وركيها عارية على ملأ من نسوان البيت وعياله بمن فيهم الصبيان مثلى وبعض الرجال من الأقارب!! الداية عجوز كالبومة قاسية العينين والقلب! تنتهك حرمة البنت! بيدها اليسرى تقبض على بظرها! بشفرة ماضية فى يدها اليمنى تجزره تكحته! بتعبيركم أيها المكاتبين تجتثه! حلوه دى؟ تستأصل شأفته! هأ هأ هأ هاا اىْ! . . انكسرت عين البنت! تزوجتها أنا بعد ذبحها بعامين اثنين! سارت الحياة لذيذة سهلة فى كل شىء إلا فى هذه الناحية يا جدع! كل مرة بنكد! . . فى السنوات الأولى كانت تحتملنى وتستسلم لقضاء الواجب! وكنت أفهم تألمها على أنه من شدة اللذة! لم أكن فطنت إلى تكشيرة وجهها وبكائها أحيانا بدون سبب واضح! . . كذاب من يقول لك إنه يستطيع الاستغناء عن الجماع طالما

هو بكامل رجولته!. . أمرى لله خفضت مرات الجماع إلى ثلاث مرات فى الأسبوع! إلى مرتين!إلى مرة واحدة!. . فى كل مرة أكون كأننى على موعد مع عروس! أشحن دماغى بالكيف أكلفه كثيرا من الحشيش والأفيون! أعود آخر الليل أكاد أضاجع على روحى من شدة الهياج!. . أجدها يا حول الله مرمية فوق السرير بهدومها تأكل الأرز باللبن مع الملايكة فى نوم كالموت!. . يرتعش بدنى!. . أقع فى مأزق محير! لو أيقظتها يوجعنى قلبى عليها! كما وأننى ـ وإن كنت فى الأصل عربجيا ـ أكون محرجا لو هىّ سألتنى فى دهشة النوم عما أريد من إيقاظها! فهل يا ترى أقول لها قومى لكى أضاجعك؟ هأ هأ هأ ها اى!. . لست أحب اختراع الأسباب، فإن السبب الوحيد الذى أريدها ساعتها من أجله هو المضاجعة!. . فإذا لم أوقظها فإننى يمكن أن أنفجر من شدة الشحن الذى امتلأت به! وليس لمثلى أن يضحك على نفسه بخيال امرأة أخرى أو حتى بفيلم جنسى ليمارس معه العادة السرية التى لم أفعلها أصلا وأنا مراهق!. . يا دى الوكسة السودة ياجدعان!. . أتعمد الاصطدام بالأشياء لإصدار أصوات شبه عفوية! أفتح باب الدولاب فيزيِّق! أترك باب الحجرة يرزع نفسه!. . الحق لله أنها تصحو فى الحال لكنه صحو مثل قلته! تصحو شكلا وإن غسلت وجهها وتعطرت! يبقى جسدها نائما كأنه خارج من الثلاجة! أحاول تسخينه بكل ما فى خبرتى من حيل جهنمية! إنما الحوار بينى وبين الجسد مقفل من الأساس! هاك أعضاؤه منثورة تحت يديك فاعبط وداعب واحضن وقبِّل وضخ الكلام الفارغ فى الأذنين واللعب بين جدائل الشعر على الكتفين، فكل ذلك لا فائدة تأتى من ورائه بل قد تثير ضجرها! هى متعجلة دائما! تحب أن أبدأ العملية من نهايتها! تأخذ الوضع الملائم من

أول خطوة تستدرجنى إلى الإيلاج لتأخذ البذور والتقاوى وينتهى الأمر!.. وأخوك ليس يخلص بسهولة!.. يصيبنى القرف! أحاول التخليص دون جدوى! أظل أرزع رزعا مما قلبك يحبه فلا هى تستمتع ولا أنا أرسو على شاطىء النهاية !! أخيرا أراها فرهدت وصار منظرها مؤلما فأرغم نفسى بالقوة الجبرية على التخليص كيفما اتفق!.. الأكادة يا جدع وهذا شىء فى منتهى العجب أننى ما أكاد أرغم نفسى على التخليص حتى أفاجأ بأنها بدأت تسخن وتهتاج دفعه واحدة!! فما بالك يا بنت الناس استعجلتنى؟!..

«طب تصدق بالله يا أستاذ؟.. أبصم بالعشرة وأحلف لك بالطلاق ثلاثا أننى من يوم ما تزوجت ما نكحت إلى اليوم!.. أنجبت عيالاً نعم! أما الذى فى بالك فلا.. الست أيضا كذلك!.. تخيل أننى ليلة أجامع زوجتى يصبح الصباح فلا أتذكر شيئا مما حصل!.. بل.. تخيل أننى أثناء الجماع تجيئنى لحظة أصير فيها غير متأكد مما إذا كنت أضاجع فعلا أم أننى أتذكر ما سبق أن حدث بحذافيره ذات مرة؟! كل حركة كل لمسة كل كلمة معروفة من قبل!.. ودائما أبدا أقول فى كل مرة فلتكن هذه آخر مرة ولكننى أمشى فى الطريق أو أرى نسوان الصور فألتاث ثم تنصد نفسى فى الحال..

«إلى أن رأيتها وليتنى ما رأيتها! قلبت كيانى فصرت كأننى أمشى على يدى!.. الله يخرب بيتها بنت ديك الكلب!.. سأجن يا أستاذ ولا أدرى ماذا أفعل؟!..

«جرى إيه يا جدع؟ صحصح معى!.. أنا أقصد هذه المرأة صديقتك! مدام هند سليمان!.. إنى واقع لشوشتى فى حبها ولا أعرف كيف أوصل إليها مشاعرى!.. إننى لست أقصد سوءًا ولا شرًا!

إنما أريد أن أتزوجها على سنة الله ورسوله! إنها التاية التى كنت طول عمرى أراها فى المنام! هى لا غيرها ملكتى وتاج رأسى! قلبى ينتفض الآن فما بالك لو وقفت أمامها؟! إننى على أتم استعداد لكل ما تطلبه! سيارة مرسيدس؟ أشترى لها على الزيرو! شقة؟

لا! لها فيلا خاصة باسمها تسجل فى الشهر العقارى بيعا وشراءً! رصيد فى البنك؟ أضع باسمها نصف مليون جنيه فى أى بنك تختاره كمؤخر صداق لها! ما تشاء من ملابس ومجوهرات وفروشات! شهر عسل كامل فى أى بلد فى العالم تعجبها! أمال يا جدع! الواحد يعيش اليومين الباقيين له على مزاج عال يفعل ما حرم منه طول حياته! أريد أن أستمتع بأموالى بدلاً من ركنتها تتضخم فى البنك على حصل فاضى وفى النهاية يرثها العيال فوق ما يرثون!!..

«لماذا لا تتكلم يا أستاذ؟ قل لى ما رأيك فى هذا الكلام الذى أدلقه فوق دماغك من صبيحة ربنا وأنت حاطط همك كله فى الاستماع وحسب؟!.. هل أنا أخرف؟.. اعتبرنى مجنونا كمجنون ليلى.. اشمعنى يعنى مجنون ليلى كلكم تحترمونه وتؤلفون عنه التمثيليات؟ ألستُ إنسانا مثله يقع فى الحب لحد الغرام والعشق؟ أم أننا يا ولاد العرب نحكم على كبار السن بالحرمان من نسمة الدنيا؟! يكفى أننى أريد أن أدخل البيوت من أبوابها وأقدم التضحيات وأنا فى كامل قواى العقلية!.. على كل حال حطنى فى دماغك! إنى متعشم فى أنك ستجد لى حلاً!.. على الأقل أريد أن أعرف لى برًا أرسو عليه فى السر دون شوشرة يا دار ما دخلك شر!.. نهارنا فل.».

١٥
حتى لا يموت الشوق

حديقة جروبى عدلى كانت فى الضحى أجمل منها فى أى وقت من أوقات النهار. هى ليست حديقة بالمعنى المفهوم للحدائق إنما هى بالنسبة للحدائق كالشربات بالنسبة للفواكه المعصورة، كمية من الخضرة الشجيرية والعشبية منثورة بشكل هندسى على مساحة عريضة مفروشة ببلاط يتخلله عشب وممرات من الحصباء وأصص نباتات ترتص على أفاريز ومرتفعات. المناضد مرتصة شكل مربعات الشطرنج بمفارشها الزاهية الألوان والزخارف؛ كل منضدة يتحلقها عدد من الكراسى الخيزران ذات المساند والتكآت حيث المفترض أنه مكان ذو طابع عائلى. فى الضحى الكهرمانى اللون بشمسه الرخوة تصير هذه الحديقة مهرجانا مبهجا من الزهور البشرية من نساء وفتيات كالورود أجسادهن شبه العارية تبخ دفئًا وحرارة وشبقا وأريجًا منعشا مع الشاى بالحليب والنيسكافيه والكابوتشينو وقطع الحلوى؛ حتى الرجال، شبانا كانوا أو شيوخا، ينسكب عليهم جمال النساء فيضفى عليهم رونقا وحيوية وانتعاشا يشرق بآمال عراض..

بكرت فى الذهاب إلى حديقة جروبى هذه حسب الموعد المتفق عليه مع مدام هند سليمان. فى مواجهتى وأنا داخل من باب شارع عدلى

وقع بصرى على سيدة تجلس إلى منضدة بارزة مع زوجها وثلاثة أطفال: شاب كالعريس وفتاة كالعروس وطفل يدرج على الأرض؛ عرفتهم على الفور؛ ابتهجت؛ السيدة هى الأخرى عرفتنى من دخلتى وابتسمت، إنها سعدية بنت خالى مع زوجها الدكتور مشهور وعيالهما، هى صيدلانية وهو طبيب أسنان من أصل قاهرى أما هى فمن بلدتنا إحدى قرى شمال الدلتا؛ كانا قد سافرا معا عقب الزواج إلى دبّى، مكثا فيها عشر سنوات شريحة زمنية واحدة؛ جمعا ثروة كبيرة، اشتريا ـ فى عمارة أدركاها وهى طوب أحمر ـ شقتين ودكانا، سكناً وعيادة أسنان وصيدلية؛ سدد الله خطاهما فى الحياة؛ يقطنان فى مدينة حلوان؛ لا نلتقى إلا صدفة هكذا، لكن الهواتف كثيرا ما تنوب عنا فى معايدات ومناسبات كثيرة جميلة. اتخذت طريقى إلى منضدتهم وقفوا فى استقبالى بحرارة، تعانقنا، قالوا إنهم مسافرون اليوم إلى البلد بسيارتهم الخاصة، فهل من خدمة أطلبها من البلد؟ قلت لهم إنى سأسافر نهاية الأسبوع المقبل إن شاء الله وأطلب منهما تبليغ السلام ولهما بلوغ السلامة؛ أصر الدكتور مشهور على أن يعزمنى على مشروب؛ اعتذرت بأننى على موعد بعد قليل وأننى مضطر إلى تدوين بعض الملاحظات؛ ثم وافقت على أن يرسل لى المشروب على تلك المنضدة التى فى الركن الأيسر من الداخل..

نحيت الصحيفة جانبا وأخذت أصب الشاى فى الفنجان فوق السكر والحليب. انجعصت على الكرسى ممسكا طبق الفنجان بين يدى؛ جال بصرى فى صف الشرفات المتلاصقة أمامى على الجانب المقابل من الحديقة حيث تفتح على قاعة بطول الحديقة، هى قاعة فرعية متصلة بالقاعة الرئيسية الكبرى المتصلة بدورها بالباب الرئيسى فى

شارع ثروت. هذه القاعة الطولية المتراصة الشرفات شكلها بديع، أشبه بالبواكى القديمة فى شارع محمد على؛ مناضدها أفخم وأكثر كلاسيكية واستكانة، فى صفين متوازيين أحدهما لصق الشرفات البواكى والثانى لصق الحائط الداخلى المواجه؛ موسيقى كلاسيكية خفيفة تتردد على الدوام آتية من مصدر مجهول فى حوائط المحل؛ ولأن هذه القاعة أرضها مرتفعة عن أرض الحديقة بحوالى أربع خمس درجات سلم رخامى بارز فى نهايتها الداخلية لمن يفكر فى الخروج منها إلى الحديقة أو يواصل السير إلى القاعة الرئيسية.. صار من المتاح لى فى هذا الركن الداخلى من الحديقة أن أرى وبوضوح كامل كافة من يجلسون على كافة المقاعد على الصفين وإن لم يتح لى معرفة من يكونون على وجه التحديد..

إلا أننى تبينت وبوضوح كامل مدام هند سليمان جالسة إلى منضدة لصق شرفة على مرمى نظرة قصيرة منى، ظهرها فى اتجاه باب الحديقة المطل على شارع عدلى ووجهها فى اتجاه الداخل، لكنها ليست وحدها، إنما تجلس قبالتها سيدة تبدو متبرجة قليلا إلا أنها ذات هالة إشعاعية ما، ياللمصادفة! اتضح لى تماما أنها نجمة سينمائية، راقصة وممثلة شهيرة فى تاريخ السينما المصرية ذات جماهيرية شعبية عريضة ولها العديد من الأفلام الاستعراضية الناجحة.. شعرت نحوها بتعاطف كبير؛ كانت مخابرات صلاح نصر المصرية الغبية الغاشمة قد حاصرتها بهدف إجبارها عنوة واستقداراً على الشغل لحسابهم ضد شخصيات دولية بارزة من العرب والعجم يدسونها عليهم عند استضافتهم فى الفنادق الكبرى أو قصور الرئاسة للترفيه عنهم والسرح بهم لاستنطاق دواخلهم ونواياهم بالانتباه المطلق لكل ما يقولون

ويفعلون سيما أن البعض منهم ـ العرب والأفارقة بوجه خاص ـ يطلبونها وأمثالها من النجمات الشهيرات ولابد أنهم سوف يضعفون أمامها ويتسيبون؛ عبثا حاولت المسكينة إقناع الطغاة المستبدين بأنها امرأة فاضلة وفنانة محترمة وليست تنفع فى شغلهم مطلقا؛ اضطهدوها؛ ضيقوا عليها خناق العمل والرزق، زرعوا الأشواك لها ولغيرها فى كل بقاع أكل العيش، حاربوها بسيل من الشائعات المغرضة كانوا موهوبين فى تلفيقها؛ غافلتهم وهربت بليل عن طريق البحر السكندرى إلى لبنان؛ اختفت هناك وقتا ثم استأنفت نشاطها فى السينما اللبنانية؛ بقيت سجينة لبنان إلى أن أكلت ثورة يوليو نفسها بنفسها، وسقطت دولة المخابرات وأزيح العهد الناصرى برمته، وجىء بعهد فتح سجون الماضى القريب، وعادت معظم الطيور المهاجرة إلى أعشاشها فى مصر، وكانت الفنانة نبيلة شاكر هذه من أوائل العائدين اشتياقا لمصر ولجمهورها إلا أنها عادت حطاما نفسيا مؤلما، تقدمت بها السن كما هو واضح، اجتمعت التجاعيد على وجهها ذاك الطفولى الشبيه بحصالة الأطفال الفخارية، وجدت الأيام غير الأيام، لكل عهد دولة ورجال، لمعت فى البلاد راقصات أكثر خفة وجراءة واستعداداً للعرى المجانى، ظهرت السندريلا سعاد حسنى لتملأ حقل السينما المصرية شقاوة ورومانسية وبهجة، لم يعد السوق يحتاجها، ولا هى بقادرة على حمل هموم العمل والدخول فى شلة من الشلل المسيطرة على سوق الفن؛ وكانت الصحف تنشر من حين إلى حين أطرافا من هذه القصة المؤلمة مع بعض أخبار عن عزلتها، عن وعكة صحية، ظهرت على شاشة التلفاز عدة مرات فى برامج فنية . . ها هى ذى تشرب النسكافيه وتدخن بشراهة؛ لا تزال جذابة إلى حد كبير، خفيفة

الظل كعهدنا بها، روح بنت البلد المصرية لا تزال تعطيها مذاقا خاصا للنجومية حتى وإن كانت نجومية غابرة. . لكن سؤالاً مفاجئاً داهمنى بقوة: ترى ما علاقة مدام هند سليمان بالفنانة القديمة نبيلة شاكر؟!. . من الواضح أنها علاقة، بل ومتينة، تتناديان باسميهما مجردين: ياهند ـ يانبيلة، فى حميمية واضحة. .

قبل أن أسرح فى البحث عن جواب لتساؤلى نجحت مدام هند فى اصطياد نظرتى فجمدتها لبرهة وجيزة، إذ غافلت الفنانة وحيتنى بأطراف أناملها مع هزة بليغة من رأسها أفهمتنى بها أنها قادمة إلىّ بعد قليل؛ نادت على النادل بإشارة سيادية لا افتعال فيها؛ بيدها اليسرى أطبقت على يد الفنانة لتمنعها من فتح حقيبة يدها؛ باليمنى حاسبت النادل، سخت عليه ببقشيش يستحق هذه الانحناءة تبجيلا وامتنانا. . فى نفس اللحظة كانت سعدية بنت خالى تسحب طفلها الصغير عائدة به من دورة المياه؛ عند نزولها به من سلم القاعة الجوانية هبطت بجذعها إلى الأرض ممسكة بثيابه راحت تهندمها وتصلح من وضعها وتمسح يديه بمنديل ورقى؛ لكنها ما لبثت حتى رفعت رأسها مأخوذة بنظرة جانبية وضعتها إزاء مفاجأة أبهجتها فانتفضت واقفة تطلق صيحات غبطة وثناء على الظروف. ظننتها ـ شأن عامة المصريين ـ اكتشفت وجود الفنانة النجمة فانتابتها هذه الفرحة بالترحيب الصادق الصاخب اللافت للأنظار برنين أصواته المتهدجة؛ فإذا هى تعانق مدام هند سليمان عناقا حاراً. . ياعجبا! أهذا الترحيب كله بهند سليمان؟! ثم ما طول هذا العناق وما هذه المودة الغامرة؟! إنهما تتبادلان أرقام الهواتف وقد انهمرت بينهما الأسئلة عن الصحة والأحوال فيما انزوت الفنانة عند باب الحديقة تدارى عينيها خلف نظارة سوداء تكاد تبتلع الوجه

كله. أصرت سعدية على إكمال المفاجأة بأن تسلم مدام هند على عيالها وزوجها؛ كان الدكتور مشهور قد وقف مذهولا من رؤيتها لا يكاد يصدق عينيه، خرج عن الترابيزة ولاقاها بحرارة واشتياق؛ ثم اعتذرت له بلباقة - كأنها توجه الكلام لي - بأنها مضطرة إلى توصيل صديقتها ويسعدها أن تراهم بعد قليل حين عودتها؛ فاعتذر لها الدكتور مشهور بدوره بأنهم مسافرون حالا إلى بلدة سعدية لزيارة حماته، أوصته بأن يسلم لها عليها وعلى جميع إخوته؛ ثم لحقت بالفنانة إلى الخلاء؛ جمع الدكتور مشهور سجائره ومفاتيحه وزجاجة مياه معدنية ودفع الأولاد أمامه ثم ارتد عائداً ومن ورائه سعدية، صافحاني وانصرفا..

بعد قليل جاءت هند تخطر بقوامها المياس في رشاقة وليونة لاعبة جمباز، مما أوعز لي بأنها لابد أن تكون رياضية تجيد أكثر من لعبة إجادة احتراف. لفحني شعور لذيذ داعب رجولتي إذ لمست أنها مقبلة نحوي مشرقة في اشتياق رصين؛ صافحتني بيد قوية العصب ضاغطة، لولا حرارة الصدق ولذته لتألمت يدي من قوة الضغط؛ جلست بجواري لكي أسمعها وتسمعني بصوت خافت؛ يالسحرها إذ تتحدث بصوت خافت؛ سألتني هل أشرب فنجانا من القهوة التركية؟ قلت: حبذا؛ نادت النادل على اثنين قهوة مضبوطة. كنت مرتبكا غاية الارتباك؛ لست زير نساء، ليس من المألوف أن أظهر في مكان عام بصحبة امرأة بله أن تكون بهذه الجاذبية المروعة، تصيب عيون النساء قبل الرجال بالحول، تصير العيون ذبابا يتقافز فوق كل بقعة في جسدها المثالي المفتول العضل برغم ليونته وما يشي به من طراوة. قلت لها:

- «الواضح أنك صديقة للفنانة نبيلة شاكر!».

قالت في بساطة:

- «كانت تسكن معنا فى الحلمية الجديدة من أيام ما كنت صبية فى بيت بابا! طول عمرها صاحبة ماما الروح بالروح! كل أسرارها كانت فى صدر مامى! ولما حصل لها ما حصل منهم لله الذين ظلموها كانت ماما هى أمها الحقيقية خصوصا بعد موت زوجها المخرج الذى اكتشفها!.. القبطان الذى هربها فى سفينته من الإسكندرية هو عمى شقيق بابا لزم! وماما كانت مثل أمه ساهمت فى تربيته! لما شافها حزينة على صاحبتها وتفكر فى طريقة لإخفائها عن عيون اللى ما يتسموش! وأحس أن بابا رحمة الله عليه ثائر من أجلها وغاضب على الثورة ورجالها وأفاعيلهم قرر أن يخدمها خدمة العمر!..».

ضحكت فجأة بعمق مكتوم حتى دمعت عيناها:

- «كان عمى يحب المغامرات لحد الجنون والتهور! نقلها إلى سفينته.. وهى سفينة بضائع شاحنة.. باعتبارها جوال بطاطس من لوازم مطبخ السفينة! وكانت هى تعرف ناسًا مهمين فى بيروت اتصلت بهم من الميناء فجاءوا مسرعين وتولوا أمر دخولها لبنان كلاجئة هاربة من خطر سياسى محدق بها! وكانت حكايتها مع مخابرات صلاح نصر منتشرة فى الصحف اللبنانية والسورية! تعاطف معها الشعب اللبنانى والشعب السورى فعاشت بينهما فى أمان تمثل بعض الأفلام وترقص فى الملاهى والأفراح! ما علينا!.. ربنا أعادها مثلما أعادنا للوطن بعد الغربة الطويلة!..».

كادت الدموع تطفر من عينيها لولا أنها اعتقلتها بقوة وصلابة؛

بكى صوتها نيابة عن عينيها، رفعت رأسها نحو السماء فاردة كفيها في وضع ابتهال، شأن أية امرأة مصرية من الدهماء المنكسرات المقهورات تحت صنوف لا حصر لها من الضغوط القاهرة والأوضاع الجائرة:

- «يارب! أنت القوى على كل قوى! أعد كل غريب إلى وطنه! كل ضنى شريد إلى صدر أمه!».

كدت أبكى من حرارة اللوعة فى صوتها المبتهل، لكننى عالجت التعالى بابتسامة مرعوشة مرتبكة؛ داخلنى شعور يشبه اليقين بأن وراءها مأساة ليست بالهينة. تذكرت منهجى الذى التزمته فى التعامل معها: ألا أسألها أية أسئلة على الإطلاق تتعلق بحياتها الشخصية أو بأوضاعها الخاصة، ثقة منى بأن الأسئلة - مباشرة أو غير مباشرة - هى أفشل المفاتيح فى فض مغاليق الإنسان ومعرفة ما فى دخيلته على وجه الدقة، اللهم إلا أن يتطوع المرء نفسه بالفضفضة أو يفضحه سلوكه..

بذكائها اللماح توقعت أن يكون بعض هذا الشعور قد راودنى.. أضاءت وجهها بابتسامة صبغته بلون الفزدق؛ هدر صوتها الموسيقى الرنان:

- «اسمح لى أن أشكرك على مجيئك فى الميعاد! أنت فعلا شخص محترم وأنا نظرتى فى محلها! وأكرر لك أنى سعيدة جدا بمعرفة حضرتك!».

- «شكرا يا مدام هند! أنا أكثر سعادة وتحت أمرك دائما! سأكون سعيدا بالفعل لو استطعت أن أقدم لك أى خدمة تطلبينها

خاصة أنى شديد الاقتناع بأنك سيدة فاضلة وخدمتها واجب أخلاقى!».

- «ربنا ما يحرمنى منك يا أستاذ أدهم!».

ثم لاذت بالصمت حتى صب النادل القهوة فى الفنجانين وانصرف..

- «تفضلى القهوة يا مدام هند!».

- «زاد فضلك! إنى أحب شربها باردة قليلا! أعطى للبن فرصة يترسب فى قعر الفنجان! أو تفعل هكذا..».

غمست طرف أنملها فى كوب الماء ثم نقلته فوق الفنجان؛ تساقطت منه نقطتا ماء اخترقتا طبقة قشرة البن التى تفرد فوق القهوة وجهها المتماسك، أحدثتا خروقا وفتوقا فى وش القهوة. فعلت مثلها، فلما رشفت أول رشفة استطعمت نعومة السائل بعد إذ هبطت عنه الخشونة؛ قررت أن تكون تلك هى عادتى المتبعة دائما فى شرب القهوة. أشعلت سيجارة لى وأخرى لها؛ نفثت الدخان وقد بدت فى حالة من التركيز العميق أسبلت لها الجفنين فوق العينين؛ رحت أتأملها فى فضول؛ كانت ترتدى «تايير» من الصوف الإنجليزى شديد النعومة، لونه رمادى بنقشة كاروهات صغيرة خطوطها سوداء، تحت السترة قميص حريرى أبيض مفتوح الزرارين العلويين. كنت واضعا ساقًا على ساق أتأملها مليا أثناء شرودها مغمضة العينين ساهية عن جمرة لهب السيجارة يقترب من أصبعيها الطويلين النحيلين؛ من الجلى أنها تعانى بعمق من شىء ما يثقل صدرها وتود أن تحدثنى عنه، لكنها سرعان ما يبدو عليها التردد والحيرة، ربما لأنها تبحث عن المدخل المناسب للكلام فيما تود

قوله . . جعلت أحاول أن أتكهن بشخصية هذه السيدة اللغز : من تكون على وجه التحديد؟! إلا أننى ما لبثت حتى تراجعت عن هذه المحاولة مفضلا أن تبقى على سحرها وغموضها حتى لا أفقد متعة اتضاحها على مهل . . ها هى ذى تعدل وضع جلستها، يبدو أنها لمحت شخصا على مبعدة يختلس النظرات إلى الجزء الدفين من فخذها الذى برزت منه مساحة يهطل منها ضوء وردى؛ أحكمت وضع طرف الـ «جونلة» تحت فخذها وشدت بقيته فوق تخوم الركبتين، فركت عقب السيجارة، أشعلت غيرها فى توتر، بدت شبه متورطة؛ برغمى ضحكت، لقد بدا لى منظرها كفتاة متورطة فى الحب تريد أن تحدث أباها عن شاب يزمع التقدم لخطبتها ولكنها لا تعرف كيف تبدأ . . رمقتنى بطرف العين فيما يشبه العتاب :

ـ «منظرى مضحك طبعا! أعرف!».

ـ «تكلمى يا مدام هند! ما الموضوع بالضبط؟ لماذا أنت مترددة هكذا كأنك ستقعين فى البحر؟! هل فى الأمر حرج من أى نوع؟!».

ارتعشت الابتسامة الشاحبة فوق شفتيها؛ أخيرا تجرأت، فتحت حنكها، تسلل صوتها وجلاً مضطربا كأنه سيرتكب إثما لا يغتفر، بذلت أنا جهدًا كبيرًا فى اللحاق به :

ـ «أصل! . . أصل . . أنا . . أكتب الـ . . أقصد أننى أحاول أن . . أكتب القصص! . . هذا هو كل الموضوع!».

يا . . إلهى! هذا ما لم يكن يخطر ببالى على الإطلاق؛ فجأة صارت مدام هند سليمان كأنها أخت لى تاهت من دارنا وهى صغيرة وها أنذا أتعرف عليها بعد كل هاتيك السنين . شملتنى بهجة كلحظة

تنوير أزالت طبقة سميكة من الغموض الذى لا يزال يحيط بشخصية مدام هند سليمان؛ ضحكت من قلبى تقديراً لحيائها الشديد وهى تحاول نطق العبارة؛ هذا الحياء دليل قاطع على ارتفاع الوعى بفن الكتابة، على عدم الادعاء والصفاقة، مما يرجح أنها موهوبة بالفعل. قلت ملاطفا:

- «أنت إذن أديبة مثلى! هذا والله . . ».

قاطعتنى متحفظة:

- «العفو يا افندم! مثلك لأ طبعا! أقول لحضرتك إننى أحاول ولست واثقة! هذه هى الخدمة التى أرجوها من حضرتك! أن تدلنى! تخلص لى النصيحة! يعنى إذا لقيت حضرتك أنى فاهمة غلط وليست لى فى هذه السكة تنصحنى بالابتعاد! وإن وجدت أننى يرجى متى تتكرم بتوجيهى إلى كيفية الإجادة!».

- «أتوقع أن تكون كتابتك شيئا فى غاية الأهمية! لابد أن يكون فيها قيمة!».

رفعت كتفيها علامة على الاستنكار:

- «من أدراك؟ ربما وجدته كلاما فارغا لا يودى ولا يجيب!».

- «لا أظن! لأن من يحترم الفن إذا كتب يكتب جيدا بالضرورة! شرط أن تكون الموهبة موجودة من الأصل!».

- «أتعشم أن تكون موجودة! ولكن إذا كانت الحرفة عندى فقيرة فأرجو أن تتغاضى عنها بالنسبة لكاتبة هاوية ناشئة! . . ويهمنى فى هذه الحالة أن تركز على الموضوع المكتوب ومدى ما فيه من صدق!»

- «خلينا فى المهم! هات ما معك من قصص!».
- «هى ليست معى الآن! لم أكن متأكدة أن رجلا مثلك يمكن أن يهتم بقراءة..».
- «بالعكس! أنا أشد اهتماما بقراءة الناشئين أكثر من المحترفين!».
- «عندى مسودة أولى لآخر قصة كتبتها! موضوعها مهم! سأحضرها لك بعد تبييضها!».
- «وهو كذلك!».
- «أعرف أنك تتلهف على قراءتى أنا شخصيا! صح؟».
- «إلى حد كبير!».

ظهر على وجهها تعبير يشبه الإحباط والمرارة:

- «هذا شىء مفرح ومؤلم فى نفس الوقت!».
- «بمعنى؟!».

فى ابتسامة دمثة:

- «أحيانا يكون من المؤلم لأحد الأشخاص أن يكون مضطرا إلى التعريف بنفسه وهو فى نهاية المشوار! يقول كما قال جحا: لله يازمرى! هل سمعت بهذه الطرفة؟».
- «لا بأس أن أسمعها!».
- «اشتغل جحا زمارًا وفى أول يوم وقف أمام دار وراح يزمر ويزمر حتى انقطع نفسه ولم يخرج من الدار أحد يعطيه حسنة!.. ومر بجواره طفل فقال له: يا عم! هذا المبنى مسجد للصلاة وليس دارًا! فقال جحا قولته الشهيرة: لله يا زمرى!».

أعجبتني الطرفة فعلا، ولكنني تألمت لنبرة الأسى الواضح في صوتها؛ منظر الإحباط المجسد على وجهها ذكرني بمشهد عايشته ذات يوم قريب وآلمني جدا:

- «أنا فعلا جربت مثل هذا الموقف يا مدام هند! خاصة أن صاحبه كان في زمنه نجما ملء السمع والبصر! إنه المطرب إبراهيم حموده! الذي لعب دور البطولة الغنائية أمام أم كلثوم في بعض أفلامها وكان من مطربي الدرجة الأولى كما تعرفين! . شفته بنفسي في أواخر أيامه وهو يضطر إلى تعريف الناس به ممن يجلسون معه على المقاهي!».

اندفعت من عينيها بوارق ضوء كتلك التي تصدر عند تلامس الأسلاك الكهربية العارية؛ زفرت:

- «إنه الغياب يا أستاذ أدهم! الغياب الملعون المؤلم! غياب الإنسان عن أهله ووطنه! غياب الفنان عن جمهوره لسبب من الأسباب! . . هذا هو الجرح الذي لا يكف عن النزيف!».

- «إن كان يؤسفك أنني لم أعرفك من قبل فإنني أكثر أسفا! . . أنا فعلا كنت أتمنى لو عرفتك مبكرا!».

- «لم تخسر شيئا مهما على كل حال! . . الخاسر هو أنا! عشت بعيدا عن الوطن ما يقرب من عشرين عاما! وعندما عدت لم أجد الأرض التي نَمَوْت فوقها! كونك لم تسمع بي من قبل ولا تعرف أي شيء عني ليس يؤلمني فحسب بل يؤسفني أشد الأسف! . . إنما الأشد قسوة في الحياة أن ينساك حتى الذين هم من أهلك! زملاؤك! أصدقاؤك! أندادك الذين تفوقت عليهم ذات يوم!».

ثم حملقت فى عينى وابتسمت؛ لابد أنها قرأت فى عينى هذا الاشتياق العارم للتعرف عليها، لابد أنها لاحظت أننى أستمع إليها بشغف عظيم؛ استدركت:

- «يظهر أنى استدرجت إلى الفضفضة! يكفى هذا! لا أحب أن أخرج عن طبيعتى! مزاجى ضد الثرثرة بطبيعته! أخاف جدا من الدردشة!».

- «لم؟!».

- «لأسباب لا داعى لذكرها الآن! ثم.. أنا فى غنى عن وضع نفسى فى موقف المطرب إبراهيم حمودة مع أننى لم أكن نجمة ملء السمع والبصر مثله!».

- «ولكن الدردشة والفضفضة حالات مهمة جدا للإنسان!».

رمقتنى بنظرة مداعبة:

- «تريد أن تعرف عنى كل شىء فى قعدة واحدة؟! إن التعجل يميت الشوق بيننا!.. حلوة دى؟».

- «جدا جدا.. وملعوبة!».

- «سوف تعرف عنى الكثير ولكن كل شىء بأوان!».

- «نَفَسى طويل على كل حال! واشتياقى أطول!».

- «على فكرة يا أستاذ أدهم: إن وجهى الحقيقى وشخصيتى الحقيقية التى يهمنى أن تعرفها حق المعرفة هى التى ستقرأها فى قصتى! فى وجهى الأدبى!».

وجعلت تدخن فى صمت، نظرت فى ساعة معصمها، قالت:

- «تحب أن نتواعد الآن على لقاء؟».

- «يكون أفضل!».

سرحت لبرهة، قالت:

- «سأكلمك فى التليفون! أجندة دماغى الآن مشوشة!».

- «كما تحبين!».

خرجنا إلى الخلاء. داعبتنا النسائم الرقيقة فى شغب منعش. مشت هى بجوارى كالأميرة ديانا أميرة ويلز البريطانية. وصلنا إلى سيارتى المركونة أمام المعبد اليهودى؛ صافحتنى بحرارة ومودة؛ قالت إنها ستبيت الليلة وربما بقية الأسبوع مع صديقتها الفنانة نبيلة شاكر. أوقفت لها إحدى سيارات الأجرة.. ركبت سيارتى إلى تعريشة أسعد الدهل فى بستان المعلم عيد أبو القاسم فى قرافة المجاورين.

١٦
اقتحام مجهول الهوية

انتهى مولد السيد البدوى ومن بعده مولد إبراهيم الدسوقى ثم مولد الحسين بن على، والمعلم عيد أبو القاسم لا يزال غائبا عن سهرة التعريشة. الليالى تترادف والأسابيع تتتالى ولا حس ولا خبر عن المعلم عيد مما جعلنى أستريب فى الأمر بصورة مقلقة؛ قد سئم أسعد الدهل من أسئلتى المتواصلة، صار يخترع أسبابا فكاهية متناقضة خرقاء يصعب تصديقها، من قبيل أنه أضرب عن شرب المكيفات، أو أنه ـ فى سرك يعنى ـ تزوج من صبية أقامت له فى البيت قعدة تحشيش خاصة حتى لا يغيب عن عينيها لحظة، يشرب ويدكّ ويدك ويشرب، أو أنه سافر إلى بلاد الإنجليز ليزور ابنه المتزوج هناك من لوردية كرومرية، وأن سنيورة مثلها وقعت فى دباديبه الشرقية فاحتجزته لحسابها، أو أنه افتتح شركة متعددة الجنسيات لتصدير الفاكهة وتعليبها وأصبح يسافر كل يوم إلى دولة للتعاقد مع وكلاء وزبائن.. كل هذه المخترعات الأسعدية الدهلية مأخوذة بذورها من أصول واقعية، إذ إن شخصية المعلم عيد أبو القاسم حافلة بآمال وأمنيات من هذا القبيل أو ذاك، كان كثيرا ما يفضفض عنها فى لحظات الروقان..

عتمت السهرة بشكل ملحوظ، حلق الوجوم فى فضائها، حتى الضحك وإن فرقع وانهمر واغتبط كان ينقصه رنين ما، ثم سرعان ما يئوب إلى امتناع مشوب بمذاق من الحرج؛ ثم إنه ما لبث حتى كف تماما

حينما غاب أبو ميمى هو الآخر عن القعدة واستمر غيابه لأيام طويلة كالحة. لم أقتنع بفهلوة الحاج حسين الوراق وهو يحاول إيهامى بأن أبا ميمى سافر إلى ألمانيا الغربية مع ابنه الكبير وابنته التى تعرف اللغة الألمانية ليتفقوا على شراء عربات نقل جديدة من شركة المرسيدس ويبدو أنه ـ أبو ميمى ـ استحلى المرعى هناك وبخاصة المرعى اللى بالى بالك، مرعى النسوان يعنى، وهو كما تعرف حضرتك لا يهمه من ابنته أو من التخين، فلو كانت يده أنثى لفض بكارتها؛ لكن المرجع عند الحاج حسين الوراق أن أبا ميمى ـ صاحبه ويعرفه ـ خطف رجله إلى شركة الـ بى إم دبليو ليوصيها على واحدة من أحدث موديل مزودة بكماليات خاصة كالتليفون والتليفزيون والثلاجة والكمبيوتر فما هو إلا ابن قحبه محدث نعمة ومخه طاقق وتراه باقيا فى ألمانيا إلى اليوم منتظرًا أن ينتهوا من تصنيع العربة ليتسلمها ويأتى بها معه يعنى يدفع نصف مليون جنيه على الأقل فى عربة يمشى بها فى القرافة.

كلام فكاهى غير مقنع؛ ولكنى مررت بورشة الأسطى حسين قشطة ذات عصرية فالتقيت الدكتور هانى ابن المعلم عيد منزويًا فى ركن قصى مع الأسطى حسين وكانا فيما يبدو يتحدثان فى أمر جلل، شىء من التوتر كان واضحًا فى حركات الأيدى والأكتاف أما الصوت فخافت؛ استقبلانى بترحاب ثم ما لبث الدكتور هانى حتى استأذن وانصرف قبل أن أستفهم منه عن سر غياب المعلم. وكان الأسطى حسين لا يزال متأثرًا بما كان يدور من حديث مع الدكتور هانى، فرأيت من باب اللياقة أن أسأله عما به؛ فانكب على هامسًا فى استهوال:

«لهم قريب زوج بنت المعلم عيد يعمل فى مكتب المدعى العام الاشتراكى قال لهم خبرًا قلب حياتهم! .. هناك تقارير وتحريات عن

المعلم عيد أبو القاسم وأبو ميمى والحاج حسين تقول إنهم من أثرياء الصدفة ولديهم أموال بالمليارات جاءت من طرق غير شرعية تستوجب محاكمتهم بقانون: من أين لك هذا؟!».

دهمنى الخبر:

- «لهذا يختفى الاثنان منذ مدة!».

بينى وبينك! هذا ما أفهمه بالويم! المعلم عيد سافر فعلا لتهريب أمواله عن طريق عياله، له ولد فى إنجلترا وولد فى أمريكا وبنت فى سويسرا! وأبو ميمى لحق به ليرشده إلى أحسن البنوك! أما الحاج حسين الوراق فضاربها صرمة لأن ثلاثة أرباع أمواله فى بنوك السعودية وفى بنك التقوى! آه من بتوع بنك التقوى هؤلاء! الواحد منهم يصرف على مزاجه ألف جنيه فى الليلة ويستخسر مائة جنيه فى صنايعى شقيان! استعنت عليهم بالله!

كلام الأسطى حسين قشطة فيه قابلية للتصديق، خاصة أنه أسطى ذكى جدًا، ابن بلد مفتح بل يعتبر فى نظرى نموذجًا لمعنى التعبير الشعبى المصرى الدارج: يفهمها وهى طائرة؛ ذكى الفهم والقلب معًا ويملك موهبة الربط بين ما يسمع وما يرى، دقيق الملاحظة، من فرط ألفته ودفئه وطيب معشره يتحدث معه وأمامه الناس على راحتهم، يدلون باعترافات خطيرة فى أخص خصوصياتهم، إذ إنه ناجح دائمًا ربما دون أن يقصد - فى إشعارك بأنه جزء لا يتجزأ منك؛ وإذن فمن المؤكد أن هذا الذى قاله لم يأت من فراغ؛ هو بالقطع لا يؤلفه وربما لا يستنتجه إنما هو - على الأقل - دخان لنار مشتعلة فى المحيطين به منذ عدة أسابيع. قررت أن أتحرى الحقيقة ما أمكن..

فى عصر ذلك اليوم وأنا جالس فى التعريشة داخل جذع شجرة النبق العتيقة فوجئت بنقرات خشنة على الباب الصفيح. لم تكن قعدتنا قد بدأت بعد، ولم يكن هذا النقر مريحًا. ظهر الجزع على وجه أسعد الدهل، غطاه بالمسحة العبثية التى يلوذ بها عند الزنقة حيث توحى هذه المسحة العبثية لمن يتعامل معه بأن يعامله كمختل العقل أو بهيمة يستحيل التفاهم معها؛ هب صائحًا:

ـ «حلمك علىّ شوية!».

فتح الباب، وقف فى فراغه عاقدًا حاجبيه فى نظرة استطلاعية منذهلة. ظهر أفندى وجيه المنظر صارم الوجه ألعبان الملامح؛ من ورائه اثنان؛ من ورائهما عدد ممن وضح من منظرهم أنهم مخبرون فى الشرطة. الأفندى المتقدم أزاح الدهل ودخل:

ـ «يطلع إيه المكان ده؟!».

قال الدهل فاشخا حنكه الواسع عن أسنان كبيرة همجية:

ـ «هذا مطرحى سعادتك!.. أقيم فيه أنا وعيالى سعادتك!.. أنا الجناينى سعادتك!.. أخدم فى هذا البستان الذى تراه سعادتك!».

أزاحه مرة أخرى واقترب منى، كنت لا أزال كما أنا ولم يظهر على وجهى أى ردود فعل بالمرة كأن شيئًا لا يحدث:

ـ «بتشتغل إيه حضرتك؟».

قدمت له بطاقتى الصحفية. نظر فيها ثم أعادها لى قائلا فى دهشة شديدة الغباء:

ـ «بتعمل إيه هنا طيب؟!».

قلت له: إننى أنتقل وراء موضوعاتى إلى أى مكان وأغرب مكان، «حضرتك تعلم أنها مهنة البحث عن المتاعب!».

هز رأسه لمن معه؛ انتشروا فى جميع أنحاء البيت قلبوا جميع الأشياء رأسًا على عقب وفى عنف غير مبرر بل ليس ثمة من داع له على الإطلاق أيًا كان الهدف من وراء هذا الانقضاض على ناس أبرياء عزل آمنين فى مخادعهم..

لاحظ الأفندى الذى وضح أنه معاون أو لعله رئيس لمباحث المنطقة أننى أرقب ما يجرى فى صمت واضعا ذقنى فوق قبضتى شاعراً بالأسف والاشمئزاز. أراد التقرب منى بتكسير الحاجز النفسى دفعة واحدة؛ ارتكن بكوعيه فوق ترابيزتى بجلافة، سلط عينيه فى عينى كأنه يصور لقطة سينمائية هزلية؛ بلغتنى أنفاسه الكريهة الزنخة خليطًا من رائحة فلفل اللانشون ورائحة التبغ المحترق وبقايا رائحة بيرة أو براندى، كل ذلك أدى إلى عطانة اقشعر منها بدنى إلا أننى مع ذلك تحرجت من التراجع إلى الوراء.. أنفاسه الكريهة تشكلت فى كلمات بلهجة عدوانية سمجة:

ـ «حضرتك على علاقة وثيقة بهذا المكان؟!».

استدعيت من داخلى كل طاقة ممكنة لتوظيفها فى مد حبال الصبر على أعصاب باردة؛ ألهمنى الله لطفا لم أكن أتوقعه، قلت له بلهجة ودودة: إننى أكتب عملاً فنيا لنشره فى الجرنان عن هذه المنطقة ومدى ما سوف يلحقها من تأثيرات بعد افتتاح طريق الأوتوستراد، وأننى دائم التنقل إلى الأماكن التى تتيح لى استقاء معلومات أو معايشة حالات أو تصوير أوضاع وهكذا.. هز رأسه فى تأييد متفهم:

- «طبعًا طبعًا هذا بديهى! . . من واجبى أن أؤمنك! أساعدك على أداء مهمتك . . حضرتك أيضا يجب أن تساعدنى على أداء مهمتى دون أن تشمئز!».

- «فيم أساعدك؟!وكيف؟!».

- «لا تنفعل من فضلك! كلمنى بهدوء مثلما أكلمك! سأطلب منك الإجابة على سؤال واحد لا غير!».

- «تفضل!».

قرب رأسه منى أكثر؛ همس بلهجة إنسانية يستدر بها عواطفى الصحفية:

- «بالذمة والأمانة . . وأنت رجل صاحب قلم! أن لا تتهرب من الإجابة بلباقة!ماشى؟!».

- «ما شى!».

- «ألم يمر عليك هنا . . أو فى أى مكان . . ولد حليوة اسمه أيمن؟! . . سنه حوالى عشرين سنة شكله ابن ناس! هو ذا!».

سحب من جيب سترته صورة فوتوغرافية منزوعة من بطاقة أو كارنيه، قربها من عينى، وبصوت متهدج:

- «رأيت هذا الولد من قبل؟».

أمسكت بالصورة، خلعت نظارة المسافات، لبست نظارة القراءة، انكببت على الصورة أتمعن ملامحها: وجه فيه جاذبية طاغية تستدر حبك وعطفك، ملامحه المسمسمة مألوفة لى بقوة؛ ربما لأنها تتطابق مع وجوه شبان كثير ممن أعرفهم. قلت له بكل صدق وأمانة إن شكل

الولد مألوف لى ولكننى لا أذكر أنى رأيته بعينه هنا أو فى أى مكان. قال:

ـ «ألم تسمع باسمه يتردد فى أية مناسبة؟!».

هززت رأسى وأصبعى السبابة بالنفى القاطع. بدا عليه كثير من الإحباط يقاومه بالتشكك فى كلامى؛ أعاد الصورة إلى جيبه قائلاً: شكرا على كل حال. قلت كأننى أحدث نفسى بصوت عال: ولكن ماذا يمكن أن يفعله هذا الوجه البرىء؟ واضح أنه ابن ناس طيبين. كاد يزجرنى بغلظة:

ـ «دعك من براءة الوجه! إن بعض الثعابين شكلها فى غاية الجمال! والفهد المفترس ليس أجمل منه!.. عيب الصحافة أنها تأخذ الأمور بأشكالها الظاهرية!».

استدار كالبهلوان بحركة دائرية فوق كعبه انتهت بإشارته إلى رجاله أن يتبعوه بعد أن لم يجدوا شيئًا يضبطونه كما قرروا بحركة من أيديهم تعنى مسح البلاط. إلا أن الأفندى ما لبث حتى ارتد ثانية وأشار بحركة من أصبعه السبابة إلى أسعد الدهل يدعوه بها إلى أن تعال ورائى. مشى أسعد الدهل شابكا يديه خلف ظهره؛ ثم، وكأنه كان غائبًا عن الوعى طوال هذه المدة، انتفخت ملامحه وصاح فى لهجة احتجاج غاضبة من روح معنوية رفعتها النتيجة السلبية للتفتيش:

ـ «هو فيه إيه يا سعادة البيه؟! التفتيش ده من غير مؤاخذة لازمته إيه؟ ممكن أعرف؟!».

قبض الأفندى على ساعده، دفعه أمامه باستهانة:

ـ «يا شيخ اتلهى وامشى!».

لولا متانة بنيان الدهل لانكفأ على الأرض وتخرشم؛ بعد أن اختل توازنه وتطوح بشكل فكاهى فرض الابتسامة على شفتى برغمى، امتثل ومشى أمام الضابط:

ـ «على فين طيب يا سعادة الباشا؟ أنا لا أقدر على المشى من هنا فى غياب المعلم صاحب العمل! . . عندى ثلاث بنات فى المدارس لابد أن أجهز لهن طعامًا!».

لكزه الأفندى:

ـ «لا تولول! لن تغادر البستان يا حيوان! امش أمامنا فرجنا عليه جيدًا! اعتبرنا من السياح! يلا!».

ـ «مشوار سخن سعادتك!».

ـ «سنبرده! وستعود بعد قليل تشوف مزاج البك!».

سحبه من ساعده؛ مشى الدهل صاغرًا؛ صارت أصواتهم المضخمة تتباعد ببطء مثير للسأم؛ تسلقنى شعور بالعكننة؛ أيقنت أن الليلة بكاملها ضاعت وأننى يجب أن آخذها من قصيره وأعود إلى البيت رأسًا، لكن البيت تجسد فى مخيلتى فى هذه الفترة من اليوم مثيرًا للسأم حيث لم أعد أستطيع الكتابة أو القراءة فى مكتبى وسط بيت يكتظ بالكتب التى طغت واستلبت حق العيال فى الحركة والراحة، فإن قويت أعصابى على احتمال ضجيج العيال وصراخ أمهم المرهقة لإيقافهم عن التمادى فى الصخب، فإن المكتبة تستلبنى فأروح أقلب فى الكتب متحسرًا على عدم قراءة هذا الكتاب والتراخى فى إعادة قراءة ذاك، لأكتشف فى نهاية الليل أن الوقت تبدد وضاع الجهد بالمجان وتشتت الذهن فى بحر من الرمال الناعمة . . عندئذ انتابنى عناد صلب؛ قمت

فجهزت الشيشة، رصصت حجرا بالتبغ المعسل القرديحى، دعبست فى الرماد عن جمرات، وجدت الكثير، اقتبست بعضها لإشعال الحجر، دلقت فوق بقيتها حفنة من الفحم، وضعت ساقًا على ساق، انخرطت فى التدخين والقراءة، سرحت مجدداً فى تلك الرواية الفاتنة التى لا أمل من قراءتها مثنى وثلاث ورباع، رواية (ليس لدى الكولونيل من يكاتبه) للكاتب الكولومبى جابر ييل جارثيا ماركيز؛ يتجدد تعاطفى مع الكولونيل المتقاعد المعزول حيث لا تفلح مباريات صراع الديكة فى ملء فراغه النفسى وإزالة شعوره العميق بالوحدة فلاينى يذهب يوميًا إلى مرفأ البريد ينتظر رسالة قادمة إليه من مجهول، ولكنها لا تأتى مطلقًا وهو مع ذلك لا يكف عن الترقب؛ يكاد الكولونيل يجسد فى نظرى عقم الواقع العالمى الراهن وما ألحقته التكنولوجيا الحديثة من دمار بالإنسان الذى تئوب رحلته فى الحياة إلى مثل هذا الفراغ القاحل المروع. كانت الظلال تزحف على السطور فتأكل حروف الكلمات؛ رفعت وجهى عن الصفحات؛ نقوش الشمس المنطرحة على الأرض والأشياء المبعثرة بعد فوضى التفتيش بدأت تتضاءل، تتجمع ظلال من بقاياها البرتقالية الشاحبة تتسلق الحيطان والمآذن والقباب صاعدة إلى عنان السماء، تلحق بأمها البرتقالة القرمزية التى سرعان ما صبغت الأفق الفضائى بدم البكارة المتجددة أبدا؛ ثم تختفى فى مخدعها ساحبة وراءها ستارة رمادية تزداد دكنة كل طرفة عين. انطلق صوت أذان المغرب من مئذنة جامع قايتباى، مالبثت عشرات المآذن المتاخمة حتى تفجرت بصوت «حى على الفلاح». تملأ الأفق بذرات صوتية مؤنسة. بقيت وحدى أحدق فى ظلام التعريشة تارة وفى نجوم السماء تارة أخرى. كنت أعرف موضع زر النور الكهربى، لكننى تكاسلت عن القيام مفضلاً البقاء فى الظلام حتى لا

يشوشر الضوء على أعصابى المرهقة؛ كان القلق يشب بأطرافه من داخلى؛ أتراجع مجدداً عن الرغبة فى المغادرة؛ تذكرت أن المعلم عيد أبو القاسم كان كثير الإلحاح على شعوره بالاطمئنان على بتاع الناس ـ يقصد البستان بما على شجره من ثمر ـ فى ظل وجودى هنا معظم النهار ولذلك فإنه يعتبرنى ممثلاً شخصيًا له ها هنا ويوصينى دائمًا بأن آخذ الدهل بالشدة بل وأكسر رقبته إن أحببت حتى لا يسوق العبط على الهبالة ويتصرف تصرفا غبيًا يخسرنا الجلد والسقط . . فكيف بى أنسحب الآن فيما يشبه التسلل تاركًا الدهل موحولاً فيما لم أعرف بعد من أوحال؟! ولكن الوقت طال إلى ما يقرب من ثلاث ساعات فأين ذهبت به الشرطة يا ترى؟ وماذا تفعل به الآن؟ وما الحكاية بالضبط؟ وكيف يمكن لى أن أتدخل وعلى أى نحو يكون تدخلى ثم ما قيمة تدخلى أصلاً؟! . .

سمعت أصوات حركة وهمهمة خافتة؛ انزاح الباب الصفيح إلى الداخل . . دخلت أم جيجى ومعها بناتها الثلاث؛ قالت بصوت مخضوض وهى تبربش فى الظلام:

ـ «مساء الخير يا أستاذ أدهم!».

ـ «مساء النور يا ست أم جيجى!».

قمت واقفًا، أضأت اللمبة المتدلية مع زرها بين أفرع شجرة النبق العتيقة . . ظهر الارتياع على وجوه الولية وبناتها، ضربت صدرها بيدها شهقت فى فجيعة:

ـ «يا خرابى! إيه اللى حصل يا أستاذ أدهم؟ مين اللى بهدلنا البهدلة السودة دى؟! خلاص؟ عملونا تجار مخدرات؟ يا خرابى! زمانهم شرحوا المراتب بالمطاوى!».

راحت تلطم خديها مولولة بصورة أعجزتنى عن تهدئتها؛ بناتها كن قد هرولن إلى الداخل مذعورات كعصافير هاجمت الغربان أعشاشها؛ بعد برهة وجيزة ظهرت كبرى بناتها قادمة من الداخل:

ـ «مفيش حاجة من دى يا أمه، هم قلبوا الأدراج والمراتب على الأرض! . . كنتى شايله فلوس ولا دهب فى الدولاب؟».

ـ «فاكرانى مجنونة؟ هو اللى من غير ملك يقدر يعشش ولا يشيل؟ لكن اللى حصل ده ما هش سرقة؟! مش انتهاك حرمة؟!».

عندئذ دخل أسعد الدهل كاسف البال هضيم الملامح والحيوية بل والروح أيضًا كأنه تلقى كميات مروعة من الصفع والتشليت والسب والبصق فى الوجه. هتفت به مرتاعًا:

ـ «ضربوك؟!».

شوح بذراعه:

ـ «ياريت! الضرب يكون أرحم سعادتك!».

ـ «عملوا فيك إيه؟! انطق!».

ـ «ستة تيران عفية: معاون المباحث وضابطان وثلاثة مخبرين قعدوا جميعهم فوق صدرى! كل واحد منهم يرزعنى خمسين سؤالاً فى الدقيقة الواحدة سعادتك! . . لا أعرف كيف أجيب وأجيب على من ومن ومن؟! نشفوا ريقى سعادتك! كلما عجزت عن الكلام اشتغل الزغد والرفس والسب! أف ف ف ف!

قالت أم جيجى:

ـ «حصل إيه يا أسعد؟ على إيه ده كله؟!».

رمى بجسده على الكرسى فى إعياء :

ـ «فيه واد اسمه «أيمن» الله يخرب بيته وبيت أبوه! سمعتى عنه يا أم جيجى؟!».

ـ «ماله زفت الطين ده؟!».

ـ «يظهر إنه عامل عملة كبيرة كبيرة!».

ـ «من الجماعات الإسلامية يعنى؟!».

ـ «الله أعلم! جايز! المهم أنهم عايزينه بأى شكل! لولا الملامة ياخدوا أى واحد بداله على إنه هو! . . أولاد الوسخة أرغمونى على الفحت فى بعض الأماكن فربما نكون قتلنا الولد ودفناه!».

صاحت أم جيجى فى غضبة نادرة :

ـ «وفين المعلم الكبير صاحب الشأن؟ إزاى يحصل لنا ده وهو موجود؟! . . لموا يا بنات الحاجة دى رجعوها زى ما كانت! وانتى يابت اجرى اعدلى المراتب وانتى رتبى الدولاب لحد ما أعمل لكم لقمة؛ خطت إلى الداخل مهيضة مهانة، لكنها استدارت : ـ «يكون فى علمكم كده بقينا ملطشة خلاص! ما دام وصلت لحد التفتيش فى لحمنا والغتاتة علينا يبقوا لا معبرين صاحب المطرح ولا اللى يقعدوا فيه وكل يوم والتانى حينطوا لكم هناومش بعيدة يطبوا عليكم فى السهرة ياخدوكم هيلة بيلة بربطة المعلم ويشحنوكم فى البوكس ويعملوا لكم محضر تعاطى عدم المؤاخذة يا أستاذ أدهم إذا كنت غلطانة صلح لى! إذا كان المطرح اتبهدل قدام عنيكم وانتوا قاعدين فيه يبقى الحامى هو ربنا . . عن إذنك!».

كلمة عن إذنك رنت فى أذنى بإيقاع ذى معنى مختبئ هو : اخرج من هنا يا من اتضح أنه لا لزوم له ؛ وسواء قصدت هى ذلك أو كان خبط عشواء فإن شعورى كان سائرًا فى هذا الاتجاه كما أننى كنت واثقًا من أنها محقة فى كل ما قالت، مفحمة ؛ لكننى لم أكن بقادر على إفهامها بأنها قد بالغت فى تقديرها لقوتى ونفوذى من الأساس متصورة أننى كصحفى أستطيع إرهاب الحكومة فتتركنى أفعل ما أشاء وأحمى من أشاء! . .

فى اللحظة التى ارتفع فيها ضغط الكآبة على صدرى وظهر من حركتى أننى أتأهب للرحيل رمقنى أسعد الدهل بنظرة تشخصت فيها كل ألوان الفجيعة ؛ انقض بمخالبه على أوراقى فاحتضنها، سحب حافظتى الجلدية، هرول بهما إلى الداخل، عاد بعد برهة وجيزة بدونهما، انحط على الكرسى مدمدما :

ـ «تريد أن تعتمها؟ هى ناقصة سعادتك؟ العتمة حطت علينا زى المصيبة نسيبها تقرفنا سعادتك؟ تيجى سعادتك عايز تمشى يعنى يبقى النور والمية انقطعوا عننا لحد الصبح! هل هذا كلام سعادتك؟ لن تقوم من هنا ناقص مزاج! الدنيا حتحلو حالاً! صباح الخير بالليل!».

تمدد ظل أم جيجى قادما من الداخل زاحفًا على الأرض صاعدا فوق الترابيزة ؛ إذا بها شاخصة فى عينى منبسطة الوجه ذى التقاطيع البلدية الصرفة بشكله الدائرى المدحو قليلاً عند الذقن المفلوق من منتصفه بغمازة كبرعم الزهرة، ولأنها كانت تبتسم فقد ضئُل ذقنها، كاد يتوارى فى اتساع البسمة الصادرة عن نفس صافية :

ـ «ماتآخذنيش يا أستاذ أدهم أنا فعلاً كنت قليلة الأدب! سامحنى دا

أنت حبيب قلبى واسأل الدهل عارف قد إيه معزتك عندى وبناتى في المدارس بيفتخروا وسط صحابهم بكتبك اللى بتهديها لهم!».

وكانت قد وضعت صينية الشاى الثقيل تفوح منه رائحة عطرة جذابة، أشارت بغمازة ذقنها إليه:

- «شاى بالعنبر، عنبر أصلى جاى من السعودية!».

سرعان ما اتضح أنه كان من الحمق أن أبادر بالانصراف؛ بدأت وفود البهجة تجتاح مشاعرنا بعد أن تمشت فى عروقنا حرارة العنبر.. يبدو أن للمفاجأة كما للصدفة قانونها الخاص تطبقها علينا بمعزل عن إرادتنا، فقانون المفاجأة هو الذى حدا بأم جيجى بأن تضع لنا محلول العنبر فى الشاى لكى تنتعش الدماء فى عروقنا وتصفى نفسها من العكارة العصبية التى كنا فيها منذ برهة؛ لكى نكون مهيئين نفسيًا لاستقبال مفاجأة السهرة، لكأن المفاجأة أرسلت إشعاعها المبهج يسبقها إلينا قبل شخوصها: سمعنا نقرة متميزة على الباب الصفيح للتعريشة؛ هتف الدهل مسرورًا:

- «معقولة حلاوتك دى؟!».

رمى الماشة وهرول يفتح الباب؛ ترامت إلى أذنى أصوات الترحيب والاشتياق والسلامات؛ ظهر أبو ميمى ممسكًا بكيسين أنيقين مطبوع عليهما أسماء محلات باللغة الألمانية؛ من ورائه انزلق الحاج حسين الوراق داخلاً يرفل فى ثوب من المرح الواسع يطوح رأسه المستطيل فى ابتهاج وهو يشهدنى على مشهد أبى ميمى هاتفًا:

- «شفت يا عم؟ صدقت كلامى؟ كان فى ألمانيا فعلاً ابن الرفضى! وجاء لك بهدية من هناك!».

تلقيت أبا ميمى بالأحضان؛ سلمنى أحد الكيسين:

- «على ما قسم! افتح وشوف!».

- «ليس وقته!».

- «افتح وشوف!».

هكذا صاحوا كلهم. فتحت الكيس: ولاعة معدنية ماركة رونسون مع أنبوبة غاز خاص بها ومبسم من الأبنوس، رباط عنق فخم، قارورة كولونيا للحلاقة من ماركة عالمية شهيرة، قلم حبر ماركة كروس وقارورة عطر حريمى لزوجتى.. ما كل هذا يا رجل؟ هذا والله كثير جداً. ربت على كتفى وهو يضحك محاولاً السيطرة على كرة أسنانه وهى تنط فى اتجاهى ثم ترتد إلى حنكه بنفس السرعة:

- «حاجة ليست على قد المقام طبعًا ولكن.. على لسانى ولا تنسانى كما يقول المثل!».

أعطى الكيس الثانى للدهل:

- «على جوه عدل لا تفتحه! أعطه لأم جيجى تتصرف فيه بمزاجها!.. إن أعطتك شيئًا منه حبًا وكرامة وإن لم تفعل تقفل حنكك!».

أسنان الدهل كبيرة هو الآخر لكنها مبسوطة على حنك واسع يبدو من تحتها تجسيداً لشكل البلاهة؛ ضحك الدهل فارتفع سقف حنكه كشق غائر فى حائط متداع، أحنى رأسه بما يعنى الامتثال، غاب فى الداخل يهدر بدعوات متآكلة الحروف.

هممت بالجلوس فأمسكنى الحاج حسين الوراق:

- «انتظر يجب أن تتفرج على العروسة!».

- «أبو ميمى تزوج؟!».

كرة الأسنان صكتنى فى جبهتى بضحكة صاعقة من أبى ميمى تبعها صائحًا بلهجة تلوينية ذات معنى موارب:

- «أتزوج من ورائك؟! وهل هذا يصح؟! لازواج لى إلا بمباركتك! يدى على كتفك لو كنت تحبنى حقًا! أنت بنفسك لمست وجع قلبى فليتك تسعفه ولو بحقنة تعالجه!».

تأبطنى مشوشرًا بالضحك على من استمعوا قوله حتى لا يفكروا فى البحث عن مغزاه؛ دفعنى برفق إلى السير، مشيت تحت إبطه؛ خرجنا من التعريشة:

- «هذه هى العروسة الحديد.. العقبى للعروسة الـ.. الحلاوة.. ها ها ها!!! ى!».

كانت السيارة ماركة بى إم دبليو الجديدة راكنة بحذاء سور البستان شديدة الفخامة بصورة استفزازية. ضغط أبو ميمى على زر فى ميدالية المفاتيح بيده ونحن وقوف إلى بعيد؛ أضاءت فوانيس السيارة، راحت كرة الأسنان تتقافز تحت ضوء القمر تفرقع ضحكات عبثية نشوانة وأبو ميمى لا ينى يضغط على زر الميدالية كطفل أعجبته لعبة مثيرة؛ لدهشتى كانت السيارة تزحف من تلقاء نفسها متقدمة إلى الأمام، ترتد زاحفة إلى الخلف. طلب منى أن أتقدم لأفتح الباب وأتفرج؛ طلبت منه المفتاح، قالت ضحكته الهادرة:

- «إنها تفتح توماتيكى بالضغط على زر الميدالية وأنت بعيد حسبما تشاء! هى الآن مفتوحة!».

سحبت الباب؛ انبعثت عطور الأبهة من صالونها الفخيم الوثير؛ جذبني منظر (التابلوه) الكبير المرشق بصفوف متراصة من عشرات الأزرار والبقع المضيئة؛ عجبت كيف يتأتى لأبى ميمى أن يجيد التعامل مع كل هذه الأزرار الأوتوماتيكية، وهو بالكاد يفك الخط العربى ولا يعرف من اللغات الأجنبية إلا أصوات بعضها دون الحروف؟! . . ما أذكى أولاد البلد المصريين؛ أجزم أن أبا ميمى قرأ تصورى، قال كأننى سألته:

ـ «لا تغرنك هذه الأزرار! إن سواقتها أسهل من العربة الصغيرة! . . إنها توماتيكى تنقل السرعات وحدها ولا الحوجة لتحريك عصا الفتيس والدبرياج! تسحب البنزين وحدها حسب احتياج السرعة أو القوة! يعنى تسوقها وأنت متربع تلعب فى أصابع قدميك! . . تفضل يا جدع! والله لا تغلو عليك! الود ودى لو أسلم مفتاحها للى بالى بالك!».

أغلقت الباب فأطربتنى تكته الرقيقة الرصينة الحاسمة الإغلاق؛ باركت له، دعوت الله أن يكفيه شرها؛ فإذا بنا قد غمرنا بضوء مبهر يزحف نحونا بقراطيس من أشعة عمودية؛ سيارة مرسيدس مهيبة تتوقف خلف الـبى إم دبليو، صاح الحاج حسين الوراق صياح النبطشى جامع النقوط فى فرق العوالم:

ـ «صلواع النبى ى ى ى ! . . المعلم عيد أبو القاسم وصل بالسلامة يا جدعان! . . معقولة حلاوة الليلة دى؟!».

تلك كانت هى المفاجأة الكبرى. اندفعنا نحو المرسيدس الشبح فى اشتياق حقيقى؛ تناهبنا المعلم عيد بغوغائية، كل واحد منا أمسك به من ناحية وهات يا بوس. . يا أحضان؛ رفع غطاء شنطة السيارة، حمل

منها عدة أكياس فخيمة راح يوزعها على ثلاثتنا؛ احتفظ بكيس رابع في يده:

ـ «هذا للدهل! حاجة خاصة بالبنات!».

مشينا وراءه فى زأططة عيال استقبلوا عودة أبيهم بالهدايا بعد غيبة طويلة. تلقفه الدهل بالأحضان، تناول منه الكيس، هرول به إلى الداخل مبتهلاً إلى الله شكرًا و امتنانا على هذه المفاجأة التى أضاءت ليلة بدأت بالعتمة ونفح الله فيها نوره الوهاج. هديتى كانت ثمينة بحق: ربطة عنق ماركة سولكا، دبوس لها مع زرارين للقميص طعم الثلاثة بنتف من الأحجار الكريمة، خرطوشة سجائر دنهل مع ولاعة مذهبة من نفس الماركة، زجاجة ويسكى دمبل. نفس الهدية تقريبًا كانت لكل من أبى ميمى والحاج حسين الوراق مع اختلافات طفيفة. امتدت يد أبى ميمى نحو المعلم عيد حاملة تحفة من الجوهر الثمين تلعلط فى الضوء الخافت بدائرة من اللآلئ ذات شكل مبهر جدًا:

ـ «دى هديتى لك: ساعة ماركة رادو من أحدث موديل! المينا مرصعة باللآلئ!».

هتف المعلم عيد فى انبهار وفرحة طفولية:

ـ «الله! أنت سافرت فعلا إلى ألمانيا بعدما تركتنى؟!».

صارت رأس الحاج حسين الوراق تتطوح وهو يرفع ساعده تحت أبصارنا كاشفا عن ساعة مماثلة تشاركه بهجته الطفولية:

ـ «أختها!.. أبو ميمى برضه أتى بها من بز أمها، أمها السويسرية!».

بعد الفرحة الطاغية بالساعة اكتسى وجه المعلم عيد بغلالة من الخجل أو لعله الحرج، عبر عنه متأثراً:

ـ «أحرجتنى يا أبو ميمى! هديتى بجانب هديتك لعب عيال! . . ما أشد بخلى!! لكن ملحوقة عندى لك تليفون منزلى تثبت سماعته على صدغ باب الفيلا من الخارج وتضع السماعة الأخرى بجانبك على السرير! إذا خبط أحد على الباب تفتح السماعة وتكلمه وأنت فى سريرك تستفهم منه على كل شىء قبل أن تفتح!».

تلقف أبو ميمى كرة أسنانه من الهواء قبل أن تصطك ضحكته القوية الصاعقة بجبهة المعلم عيد، باصاها إلى الحاج حسين الوراق الذى تلقاها على صدره فى حرفنة ثم رفعها إلى جبينه وراح ينطقها صائحًا خلال هزات رأسه:

ـ «يا معلم عيد! ابن المركوب ده مش متخلف زى ما احنا فاهمين! . . البتاع اللى أنت بتقول عليه ده يا معلم عيد أنا شفته فى الفيلا بتاع أبو ميمى من أكثر من خمس سنين! . . ومش يسمعك وبس! لأ . . ده كمان فيه شاشة بتوريك اللى واقف بره شكله إيه! لوحده ولا معاه حد؟ قاصد شر ولا قاصد كريم؟ والفراسة بقى إن البتاع اللى عند أبو ميمى يوريك اللى واقف بره بيخبط عليك لكن اللى بره ما يشوفش اللى جوه! أمال يا جدع دى علامات الساعة! ابن المركوب دهه نفسه كده من علامات الساعة! . . وبعدين يا معلم عيد هدية إيه وبتاع إيه؟ بصلة المحب خروف يا جدع! قول يا باسط!».

لكن المعلم عيد قال فى احتجاج مسرحى لطيف:

ـ «ناويين تسقونا حجرين ولا نقوم نروح؟! إنت يا دهل يا ابن ميتين الكلب شايفني خرمان وداير تتلكع؟!».

صار الدهل يرفع قبضته فى الهواء ويخفضها بهدوء بما يعنى: حلمك عليّ شوية؛ ووجه نظره إلى الحجارة المرصوصة بغير توقيعات التعميرة بما يعنى أن التقصير ليس منه؛ إلا أن الحاج حسين الوراق رآه بعينى كتفيه، فلكزه بكوعه مشيراً بذقنه إلى حرف الطاولة صائحًا فى غيظ:

ـ «يا ابن القحبة التعميرة مرصوصة قدامك يراها الأعمى خذ منها وحط على الحجارة! أهه كدهه! شوف انت نارك وسيبها لى! يلا!».

انتظمت حركة الشيشة فى دورتين أنهيتا بقايا الكحكحة فى صدورنا. فى الدورة الثالثة كفت أصواتنا حتى عن الكلام فانفرد بالآذان صوت كركرة المياه فى الشيشة بإيقاعه الطروب كأنه تشخيص صوتى لإيقاعى الشهيق والزفير.

ـ «سا الخير عليهم!».

رفعنا وجوهنا فى اتجاه الصوت؛ كانت أم جيجى تقف حاملة صينية عريضة من الألمونيوم فردت فوقها فطيرة مشلتتة بحجمها. كانت ساخنة تفوح رائحتها العطرة الشهية. وسعوا لها، وضعتها فوق مسند من مساند الكنبة ألقى به إلى الأرض؛ اعتدلت واقفة؛ غمازة ذقنها تخفق تحت ابتسامتها المنفوشة كحلاوة غزل البنات:

ـ «الأستاذ أدهم بيمسى عليكم!».

خبطت جبهتى بيدى: يا لكرمك أيتها الإنسانة الجميلة، أنت حقًا

هدية أعطاها الله للدهل جزاءً لطيبة قلبه؛ كنت قد نسيت تمامًا أن صهرى جاء لزيارتنا من البلد أمس الأول حاملاً لنا تلاً من الفطائر الجهنمية يدرك أننا لم نعد بقادرين على احتمال دسمها لكنه يدرك أيضًا أن أحبابنا كثيرون؛ لففت فطيرتين فى كيس بلاستيك مع برطمان من الجبن القديم بالمش المعتق وجئت بهما لأم جيجى وها هى ذى تنعم على القعدة بواحدة منها فى لحظة كانت القعدة فى أشد الاحتياج إليها فعلاً، حتى أنا الذى نفرت كثيرًا من هذا الفطير فى بيتنا خوفًا منه على معدتى رأيتنى مفتوح الشهية إليه مثلهم جميعًا . .

غير أننى صرت بعد قليل على ثقة من أن أم جيجى لبست قميص الفطيرة كسبب يبرر دخولها علينا لكى تنتهز الفرصة وتتكلم فى ذلك الذى داهمنا عصر اليوم، أقصد عصر الأمس؛ وإذ شاهدت بوادر ذلك فى عينها وهى تتحين الفرصة للدخول فى الموضوع؛ رميت إليها بنظرة تحذير واضعا أصبعى السبابة على فمى . . فأنبأتنى غمازة ذقنها تحت البسمة البريئة بأنها تفهمت غرضى؛ فكت ذراعيها عن صدرها :

ـ «تصبحوا على خير!» .

شيعها الدهل بولولة ذات معنى :

ـ «إلحقى نامى لك ساعتين تلاتة!» .

قال الحاج حسين الوراق للمعلم عيد وهو يمد له مبسم الشيشة :

ـ «تلاقيك ما شربتش حشيش من يوم ما سافرت!» .

غمغم المعلم عيد خلال سحبه للأنفاس :

ـ «لا! من قال؟! الحشيش هناك للركب! فى أى وقت تشربه كما تشاء!» .

ـ «إلا بالمناسبة! . . إنت كنت فين وفين من بلاد المسلمين اللى رحتها؟!».

صكته كرة أسنان أبو ميمى فى وجهه بضحكة نطاطة موغلة فى المرح الصبيانى الرائق:

ـ «مسلمين إيه يا حاج حسين؟! قصدك بلاد الكفرة والعياذ بالله!».

وسط ضحكنا قال المعلم عيد:

ـ «كنت فى لندن عند ابنى! أصله بيفكر يعمل مصنع تجفيف وتعبئة وتعليب الفواكه لتصديرها! درسنا السوق هناك. . مراته ما شاء الله إنجليزية صاحبة مكتب استشارى تجارى. لقيناها عملية مربحة! . . على كل حال ربنا يسهل! أهى مجرد فكرة لكن مين عارف يمكن ربنا ينفخ فى صورتها تصبح حقيقة! كله بأمره!».

خرجت أصواتنا كالكورس فى ابتهال:

ـ «إن شاء الله يارب!».

وكنت أشعر أن المعلم عيد قد «كلفت» الأمر كيفما اتفق، وأن ما قاله الآن مجرد كلام طرأ على باله فى التو واللحظة أراد به إقفال موضوع سفره نهائيًا . .

وإذ توازنت أدمغتنا واحلوت حالنا وهدأ إيقاع الشرب تهدئة القطار الموشك على التوقف؛ ومع أكواب الشاى الساخن الذى نتهيأ به لصلاة الفجر جماعة وراء الحاج حسين الوراق؛ حكيت لهم ما حدث لنا من مداهمة الشرطة وبهدلة المكان بغلظة التفتيش فى كل سنتيمتر مربع من البستان بحثًا عن صبى يدعى أيمن حيًا كان أو ميتًا، فإذا بالمعلم عيد

ينتفض واقفًا كالأسد الجريح مصفقًا كفا على كف يحاول اعتقال غضبه وتوتره:

ـ «نهار أبوهم أسود! . . عرضوا عليكم إذن تفتيش من النيابة؟ . . إذن اقتحام؟!».

ـ «لم نطلب منهم!».

شعرت بالتقصير فى الحال إلى حد الخجل من نفسى؛ حقًا كيف لم أطلب منهم إبراز إذن النيابة؟! . أنجدنى الحاج حسين:

ـ «الأستاذ تلاقيه اتلخم وما ادولوش فرصة! وتلاقيها أول مرة يشوف حاجة زى كده!».

ـ «فعلاً يا حاج حسين! أصلها كانت عملية اقتحام بمعنى الكلمة!».

شاع الغضب فى جميع أوصالى كأنما بأثر رجعى. قال أبو ميمى وشكله جاد بصورة بدت غريبة تمامًا عليه:

ـ «لو سكتنا على ما حصل نبقى مالناش لازمة فى الحياة! على آخر الزمن نتهزأ كده؟ إحنا ناس مش هفق والحكومة عارفة! . . دا أنا عندى موظفين وسواقين ماهية الواحد منهم أكبر من ماهية وزير الداخلية! . . لازم تتصرف يا معلم عيد ولو وصلت للتخين فى البلد!».

نظرنى المعلم عيد بفيض من مشاعر الأخوة:

ـ «ممكن حضرتك تفضيلى نفسك بكره ولو ساعة زمن واحدة فى أول النهار؟».

ـ «ممكن طبعًا!».

- «سأنتظر حضرتك فى قهوة الفيشاوى الساعة الثانية عشرة ظهرًا أو خليها الواحدة إلا . . خليها كما كانت أفضل!».

- «إن شاء الله!».

حين جئت إليه فى الغد فوجئت بوجود كل من أبو ميمى والحاج حسين الوراق. شربنا الشاى الأخضر؛ طلب منى المعلم عيد واحدة من بطاقاتى المطبوعة باسمى؛ ضمها إلى مثيلاتها من بطاقات بأسمائهم. لم أكن أعرف بعد ماذا فى نية المعلم عيد لكننى فى سورة الغضب الباقية من الأمس كنت مرحبًا بأى تصرف يأتيه المعلم عيد؛ مشيت فى صحبتهم، دروب ومنعطفات وبوابات وأقباء، صرنا أمام مبنى نيابة الجمالية؛ تبعنا المعلم عيد فى صمت. . سلام عليكم، عليكم السلام، دخلت بطاقاتنا إلى مكتب وكيل النيابة تطلب المقابلة. .

وكيل النيابة كان دمثا للغاية، فى مطلع الثلاثينيات من العمر، أسمر الوجه دقيق الملامح عريض الجبهة باسم التقاطيع:

- «تحت أمركم!».

- «الأمر لله وحده!».

هكذا هتف المعلم عيد، ثم قدمنا لسيادة الوكيل بادئا بى؛ وسيادته يهز رأسه فى ترحيب متواصل، ثم:

- «إنى مصغ إليكم!».

لوح المعلم عيد بذراعه فى اتجاهى ثم فى اتجاه سيادة النائب:

- «ياريت يا أستاذ أدهم تحكى لسعادة البك ما رأيته حضرتك بالتفصيل أثناء عملية الاقتحام التى حصلت بالأمس!. . أنا

أصلى تقـدمت بشكوى للنيـابة صبـاح اليـوم وأظنهـا وصلت لسيادته!».

هز وكيل النيابة رأسه:

ـ «وصلت!».

حكيت ما جرى بالتفصيل، دون مبالغة، بلهجة محايدة كأنى مذيع يقرأ نشرة الأخبار بصرف النظر عما تحتويه من أهوال. يبدو أن وكيل النيابة كان قد تحدث تليفونيًا مع مباحث الجمالية فور وصوله إلى مكتبه واطلاعه على الشكوى؛ إذ رفع سماعة الهاتف وضرب رقمًا داخليًا قصيرًا:

ـ «ليتك تشرفنا الآن! . . نعم هاتهم معك! . . شكرًا!».

التفت إلينا:

ـ «تفضلوا القهوة!».

أخذنا نرشف بصوت خافت فيما انشغل سيادته بإعادة قراءة الشكوى ممسكًا بالقلم الرصاص يجرى به فوق السطور جرى البصر يضع خطوطًا تحت كلمات؛ إن هى إلا دقائق معدودة حتى فوجئنا بدخول أربعة رجال أشداء محترمين على كثير من الوجاهة والتواضع معًا. صافحونا فى مودة، جلسوا قبالتنا. مال وكيل النيابة نحوى فى رقة:

ـ «أحد من البكوات الأربعة هؤلاء كان من بين المقتحمين؟».

جمدتنى المفاجأة لبرهة خاطفة؛ لكننى سرعان ما اعتدلت فى مواجهتهم بيقظة متحفزة، جعلت أمعن النظر فى وجوه الرجال الأربعة وجها وجهًا؛ راجعت النظر أكثر من مرة؛ حتى أن بعضهم كان على

سبيل المداعبة الفكهة يعدل وجهه بحركة مسرحية ليرينى نفسه من كل جانب؛ أخيراً تأكد لى أن:

ـ «لا يا افندم لا أحد من هؤلاء! الآخرون بالنسبة لهؤلاء السادة الأجلاء كانوا فعلاً بلطجية بمعنى الكلمة!».

قال من بدا أنه رئيس المباحث:

ـ «شكرًا يا أخى!».

أشار إليه وكيل النيابة:

ـ «هذا هو السيد رئيس المباحث وهذا هو السيد معاون المباحث! وهذان ضابطان مساعدان لابد لأحدهما أو كليهما معًا من الاشتراك فى أى حملة من حملات شرطة الجمالية ومن رابع المستحيلات طبعًا أن يكون المقتحمون مباحث من أقسام أخرى!».

صمت لبرهة شعرت خلالها بشىء من التورط، قلت:

ـ «وإذن؟!».

استدرك وكيل النيابة:

ـ «هذا لا يعنى أن الشكوى غير صحيحة! . . ليس من المعقول طبعًا ولا هو وارد أصلاً أن رجلاً مثلك يدعى ما لم يره! . . المؤكد طبعًا أن شكوى المعلم عيد صحيحة وأن شهادة حضرتك صادقة مائة فى المائة! وبناء عليه . . ».

وشيع إلى رئيس المباحث نظرة ذات معنى؛ تلقفها بدوره قائلاً فى جدية:

ـ «طبعًا يا افندم لابد أن نتحرى عنهم ونوقع بهم إن شاء الله وإلا تكون مسخرة!».

قال معاون المباحث:

ـ «أكيد عصابة نصابين لصوص ينتحلون شخصيات الشرطة!».

انهمك وكيل النيابة فى كتابة تأشيرة طويلة على عريضة الشكوى، ثم رفع عينيه عن الورق بنظرة أوحت لنا بلطف أن المقابلة تعتبر منتهية. صافحناهم بحرارة، انصرفنا مشيعين بوعود قاطعة بأن شيئًا من ذلك لن يتكرر بعد الآن.

١٧
برزخ صوفى

فى ساحة المشهد الحسينى ودعنا الحاج حسين الوراق قائلاً إنه سيزور مولانا، يسلم عليه ثم يرجع إلى المحل يشوف شغله. عندئذ هتف أبو ميمى متذكرًا:

ـ «ياه يا حاج حسين! ابن حلال والله فكرتنى! مولانا الإمام الحسين زمانه الآن زعلان منى آخر زعل، وهو يعرف أننى لست أقدرعلى زعله! منذ الليلة الكبيرة لمولده الأخير لم يرنى! كنا معا يا معلم عيد يومها فى خدمة الشاذلية! ياه! إننى فعلاً خنت العهد يا مولانا مع أننى محتاج إلى عونك فى هذه الأيام تحن على قلوب الناس! سامحنى! سأذبح عجلاً أفرقه على الفقراء على شرفك يا ابن بنت رسول الله!.. خذنى معك يا حاج حسين! نراكما فى السهرة! فى رعاية الله!».

صرنا وحدنا، المعلم عيد وأنا؛ تبسم قائلاً:

ـ «وأنت؟ ستقرأ الفاتحة للجرنان أم للحوش؟».

ضحكت:

ـ «قرأت الفاتحة الآن لمولانا سيد شباب أهل الجنة! وغالبًا سأذهب إلى التعريشة!».

برقت فى عينيه فكرة ما؛ قال بحماسة:

ـ «تعال معى! سيارتك فى ركنة آمنة!».

ـ «بجوار سيارتك تحت مبنى إدارة الأزهر!».

توجه إلى سيارته، فتح الباب اليمين بالمفتاح:

ـ «اركب!».

أتى المنادى العجوز مهرولا، راح يمسح الزجاج بالفوطة الزفرة. قال له المعلم عيد و هو يركب ويدير المحرك:

ـ «خلى بالك من عربية البيه يا سنجق! رايحين مشوار بتاع ساعتين كده!».

قال سنجق المنادى:

ـ «براحتكم يا حاج! فى أمان الله للصبح!».

وأحكم قبضته على الجنيه الذى غمزه به المعلم عيد. لف المعلم عيد من تقاطع الحمزاوى وعاد إلى الاتجاه المعاكس فى شارع الأزهر؛ ومن تحت نفق الدراسة إلى صلاح سالم؛ سألته:

ـ «إحنا رايحين فين!».

ـ «نتغدى!».

ـ «أين؟».

ـ «عندى! فى بيتى طبعًا! أنت أصبحت صديقًا عزيزًا! ابنى الدكتور هانى صورك فى نظرى كما الأنبياء! يقول إنك رجل عظيم من

أعلام مصر وأنا شخصيًا فخور بمعرفتك! فلا أقل من أن تدخل بيتى ونأكل العيش والملح معًا!».

ـ «فكرتنى بالدكتور هانى! وحشنى جدًا هذا العكروت! . . لا أستطيع وصف حبى له!».

ـ «الحمد لله كل واحد من عيالى استقل بنفسه بعيدًا عنى، الله يسهل لهم كمان وكمان! . . أصبحت أعيش بمفردى فى قصر يتسع للدنيا كلها! . . خمسة ستة يخدموننى ويقيمون معى: أم السعد لشئون البيت من مجاميعه! وهى ست نوبية محترمة جدًا وأصيلة وشاركت المرحومة زوجتى فى تربية عيالى ولم أعد فى غنى عنها! . . طباخ! سفرجى! جناينى! بواب! غفير! غير السواق الذى لا أحتاجه إلا للمشاوير البعيدة لكنه ينفع طول النهار بالعربة الفيات أو النصف نقل فى مشاوير وطلبات خاصة بالمنزل!».

القصر شىء مبهر حقًا، تحفة معمارية لكنها مموهة بعدد كثيف من الأشجار يلتف حولها أغلب الظن ليكسر العين عنها؛ من الواضح أنه قد روعى فى تصميمه أن يكون متجعًا يفى بجميع أغراض الراحة والاستشفاء، فى طريق المطار، مفصول عن رصيف الطريق بباحة كبيرة جدًا وعريضة تحتفظ له بحرمته لتسهيل دخول السيارات إلى الجراج فى البدروم والخروج منه من باب آخر مفتوح على نفس الباحة. بين بابى الجراج تمتد قاعدة رخامية مهيبة على شكل قوس عريض تتصاعد فى درجات تتصاغر تتكور على ذاتها شيئًا فشيئًا منخفضة بعمق داخلى. تركنا السيارة فى الباحة لمن تولى قيادتها إلى البدروم؛ صعدنا هذا الدرج فإذا البوابة الإلكترونية المهيبة الأنيقة بزجاجها الحاجب الملون وأطرها الزخرفية الزاهية قد انفتحت من تلقاء نفسها. القصر من

طابقين اثنين فقط ولكن حيطانه عالية، يمتد على مساحة ذات عمق بعيد إلى الداخل؛ الردهة كبيرة جدًا تصلح صالة للرقص وإقامة الحفلات؛ توجد بعض المقاعد فى الأركان المتباعدة، توجد ممرات كثيرة تؤدى إلى حجرات ومطابخ ومراحيض. قال المعلم عيد إن الطابق الأول مخصص كله ـ كما هو مفترض ـ للمعيشة والاستقبال والعزائم ونوم الضيوف؛ أما الطابق الثانى فهو مخصص للنوم على جناحين أحدهما شرقى لا تغادره الشمس طول النهار وذلك للنوم فى فصل الشتاء، والثانى بحرى عاصف الهواء للنوم فى فصل الصيف . .

فرجنى على القصر حجرة حجرة فى الطابق الأرضى وغرفة غرفة فى الطابق العلوى، كلها مفروشة على ذوق أرستقراطى رفيع المستوى؛ أما غرفتا نومه الشرقية والبحرية فحدث ولا حرج عن فخامة الطنافس والحشايا والألحفة والملاءات والمفارش والستائر والموبيليا مع رصانة الألوان واللوحات الزيتية المعلقة على الحوائط؛ لا أظن أن أقوى ملوك الأرض يعيش فى قصر أفخم من هذا. دمعت عيناه بغزارة وهو يغلق باب غرفة النوم البحرية قائلاً خلال العبرات إن المرحومة زوجه ماتت قبل أن تستمتع بكل هذا العز وهى التى كانت أحق منه ومن أى شخص آخر . .

فى حجرة السفرة استقلبتنا أم السعد بحجمها الضخم الذى لا يحول دون نشاطها الملحوظ. كانت فى غاية اللطف وخفة الظل، رحبت بى فى حنو عظيم كما لو كانت جدتى لأمى، راحت تطوف حول المائدة العامرة بأطايب الحمام والدجاج والأوز والمكرونة والملوخية، تلقى على أسماعنا طرائف النوادر والحكايا الضاحكة المليئة مع ذلك بالعبر والمواعظ، فتحت شهيتنا للطعام فأكلنا حتى امتلأنا

فعلاً؛ ثم سألتنا: أين نحب أن يصل إلينا الشاى؟ قال المعلم عيد: فى الجنينة . . ثم اصطحبنى فنزلنا إليها . .

الجنينة واسعة باسقة ذات ذوق أوروبى بنخيلاتها الملوكية القصيرة القامة وأشجارها القزمية الكثيفة المنسقة وأحواضها المليئة بالزهور، مقامة على نحو أربعمائة متر مربع ومسورة بجدر مبنية بالحجارة على ارتفاع شاهق ترتمى من تحتها أشجار دقن الباشا والصفصاف والجزورين والكافور. فى خميلة كمخدع من أوراق الشجر كانت الدكة المنجدة فى انتظارنا، جاءنا الشاى على عربة ذات عجل، الترموس مملوء بالماء المغلى، فناجين وسكريات فيها كميات من أكياس الشاى والنسكافيه والسكر واللبن المجفف والنعناع. تربعنا فوق الدكة الخضراء من تحتنا وخلف ظهرينا شلت وحشايا مختلفة الأحجام. تربعت أكواب الشاى بيننا فوق حشية سميكة صلبة. قال المعلم عيد وقد احمر وجهه ببقايا من نزق الشباب الشقى البائد:

ـ «تسمع عن الماريوانا؟ أو الماريجوانا؟!».

ـ «أسمع!».

ـ «دخنتها؟».

ـ «سمعت عنها فحسب!».

ـ «ستدخنها الآن!».

سحب من جيب الصديرى علبة معدنية تخينة، قدمها لى مفتوحة، ترتص فيها عدة طوابق من سيجارة رفيعة أطول من السيجارة السوبر كليوباترا؛ كان قد أخذ منها واحدة وضعها بين شفتيه؛ مددت أصابعى لالتقاط واحدة فلكزنى بالعلبة فى أصابعى: هى لك كلها . .

ـ «وأنت؟!».

ـ «عندى غيرها من هولندا!».

استلبتنى الأنفاس بنعومة شديدة. مع السيجارة الثانية اتسع فضاء الحديقة إلى حدود لا نهائية؛ ارتفعت قامات النخيلات والشجيرات، حتى الورود صارت أحواضها معلقة فى الفضاء ترتفع مع نظرى إذا ارتفع وتهبط معه إذا هبط، صار المعلم عيد صبيا يافعًا نزقًا، شقاوته حميمة خفيفة الظل. كانت البهجة تحلق فوقنا فى حنو عظيم كأنها أم رءوم ونحن عيالها المدللون؛ لكأن الله قد أفاض علينا حبه وكرمه وعزه فميزنا عن الخلق جميعًا بأن وضعنا فى هذه الحالة الصوفية التى تكاد ترينا الذات الإلهية رؤية العين فى كل مرئى ومسموع ومحسوس ومشعور، حالة من السعادة والتطامن والرغبة فى المرح والصفاء؛ لم نفقد الوعى بما حولنا، على العكس ازداد وعينا واتسع، تعمقت نظرتنا فى الأمور والأشياء على رواقة وبأعصاب هادئة. كان المعلم عيد أبو القاسم قد صار فى حالة وجد، راح يتكلم فى تدفق حيوى لا فرصة فيه للكذب أو التلفيق أو الادعاء؛ رحت أنصت إليه إنصاتًا صوفيًا، بمعنى الذوبان فيما أسمع بقدر ما فى المسموع من جاذبية وقدرة على الذوبان فى؛ لكأنه ينقش فوق مشاعرى أطرافًا من قصة حياته، معاناته مكابداته سفالاته توباته حسناته سيئاته؛ وما ينقش فوق المشاعر هيهات أن يمحوه الزمن حتى لو انصرف الذهن عنه تمامًا تبقى فى ذاكرة الوجدان على الأقل بعض هاتيك الأصداء. . . .

١٨
نشوة الجروح المعتقة

. . «حاجة مهمة يا حضرة الأستاذ أحب أن أقولها لك! هى: إن قلت لك إن هذا الخير الذى أنا فيه من شطارتى فصدقنى على الفور! لكن إن قلت لك إنه من كدى وعرقى ومرقى وما أشبه من هذا الكلام التخين فقل لى أنت كذاب! . . كذا بالمفتشر!!» . .

«نعم إن الحياة شطارة! . . ضرورى أن تكون عيناك فى وسط رأسك! تصحو لخصمك! تتغدى به قبل أن يتعشى بك! . . هذه هى حقيقة الحياة ولا أظن أن يخالفنى فيها إلا الذين يعيشون فى أوهام! . . لكن» . .

«أنا وغيرى من الناس شطار بصورة أو بأخرى كما تكتبون فى الجرانين . . إنما الأقوى من الشطارة ـ صدقنى ـ دعاء الوالدين . . طبعًا: قيراط حظ ولا فدان شطارة هكذا قال أهل زمان! . . بغير دعاء الوالدين لا ينفع المرء فى الحياة ببصلة! حتى لو كانت مواهب الدنيا كلها فيه! حتى لو كان شيخ سجادة! حتى لو كان أطهر أهل زمانه!» . .

«تعال قل لى: متى وصل الشرفاء المحترمون المؤهلون لأرقى المناصب إلى ما يليق بهم من مناصب؟ لم يحصل فيك يا زمن من عهد أبينا آدم إلى اليوم!» . .

«يا حضرة الأستاذ أنت تعرف أكثر منى ومن التخين أن أصحاب الذمم والمبادئ والفضيلة والأخلاق والكرامة والعدالة كلهم انضربوا بالصرمة القديمة! وفاز بالمواقع والكراسى والخزائن والموازين أسافل الناس! . . أخذت بال حضرتك؟ . . يا رجل! حتى الخلافة على المسلمين استخسروها فى على بن أبى طالب وهو من منبع الإسلام الأصلى! قتلوه وأخذوها منه! وقتلوا نسله ونسل النبى عليه الصلاة والسلام!» . .

«مع ذلك يا حضرة الأستاذ، أعوذ بالله من قولة أنا، حافظت على دينى وعقيدتى وشرفى بقدر ما استطعت! . . لكنى لم أصمد! . . شوف يا حضرة الأستاذ! خذها منى حكمة وأنا الرجل الأمى بالنسبة لمثقف مثلك: لا يبقى شرف على الإطلاق فى مجتمع ثلاثة أرباعه على الأقل من الفسقة الفجرة! . . إذا حضرتك مشيت فى شارع موحل بالمجارى الضاربة والمطر فى بلد تشخ على روحها مثل مدينة القاهرة عاصمة مصر، والشارع فى نفس الوقت يضرب يقلب تكر فيه جميع أنواع العجلات! فهل تظن أنك تعود إلى بيتك بثياب نظيفة؟! مستحيل طبعا! سترميك العجلات بالوحل، تلطخ ما تطاله فيك من القدمين إلى الوجه، فالطراطيش المتطايرة لا تعرف الأدب واللياقة! . . فإن كان مكتوبًا عليك أن تمشى فى هذا الشارع دائمًا، فإن لطخ الوحل والقذارة تبقى واقعًا فى حياتك اليومية ساكنًا فى خياشيمك ملاصقًا لروحك بعد ثيابك، لا تستطيع الشعور بالنظافة الحقة مهما استحممت بالليفة والصابونة وغيرت ثيابك كل دقيقة! هل تستطيع المحافظة على نظافتك إذا كانت المياه التى ستغسل بها نفسك، هى نفسها قذرة ملوثة تجلب الأمراض؟!» . .

«هكذا الفساد فى المجتمع المصرى يا صديقى! لا يترك لأحد من عباد الله شرفًا يتباهون به ولا أخلاقًا يتحلون بها! . . إنه مجتمع الدهس فى الوحل يا حضرة! ! مجتمع كسر النفس ومرمطة النفوس الأبية فى التراب وقطع الرءوس المتطاولة أو العامرة بالعلم والإيمان! مجتمع تكميم الأفواه وقتل روح المرجلة فى نفوس طلبة الجامعات!» . .

«معنى كلامى يا صديقى أن من يعيش بشرف وأمانة فى هذا البلد مصيره معروف: أن يصير فى أرض الشارع وحلاً من الأوحال تفرمه العجلات المجنونة ولا تبالى! ولا هو نفسه سيبالى! . . مجتمع فاكك! كل بلطجى قوى يفعل ما يريد، يخطف ما يقدر عليه يقتل من يعترضه يرمى بلاءه على عباد الله! . . يا رجل ألم يهاجمك البلطجية فى بستانى باسم الشرطة؟! . . انتهاك حرمه وبهدلة وتجرمة وفى الآخر يتضح أن الشرطة نفسها لا علم لها بما حصل مع أننى متأكد أن مثل هذا الاقتحام الذى وصفته لنا لا يفعله إلا شرطة مصر بالذات! اسألنى عنها!» . .

«يرجع مرجوعنا لأصل الكلام: إن الخير الذى ترانى فيه من نعم الله سبحانه وتعالى بسبب دعاء الوالدين» . .

«فى الأول احترمت نفسى وابتعدت عن سكة المخدرات! لم أخزنها فى أية مقبرة من المقابر الواقعة فى دائرة مسئوليتى! هكذا حميت نفسى من تجارة السموم لكننى ما نجوت من الوقوع فى الإثم بسبب سكوتى على من أعرفهم ممن يخزنون فى مجاوراتى عملاً بأن الساكت عن الحق شيطان أخرس، كما أن الفضيلة تدعونى إلى محاولة تغيير ما رأيته من منكر بيدى أو بلسانى أو بقلبى! . . المجتمع الفاسد أرغمنى على قبول

المنكر والتستر عليه كأننى شريك فيه وإن بالمجان! . . فلو اشتم أحدهم أننى غير راض عما يفعل فسوف يقلب على وجهه الآخر الشرير! فما بالك لو بلغه أننى قمت بالتبليغ عنه؟ لن يقتلنى ويريحنى! بل سيحرق كبدى بقتل ولد من أولادى أو تشويه سمعة ووجه بنت من بناتى إلى آخر هذه الأفاعيل المخيفة التى لا يتحاور المخربشون إلا بها! ! . . وبما أننى لست أتقاضى أجرًا على سكوتى فإننى أتقبل منهم نفحات كبيرة من الحشيش والأفيون على ذمة مزاجى الخاص فأفرقها على الأحباب!». .

«رغم حرصى على أن تبقى سيرتى زكية الرائحة بقدر ما أستطيع فإن المختلط بالملوثين لا مفر من أن يتلوث غصبًا عنه! لابد يرمونه بالروث! إنهم ليسوا مستعدين لأن يصدقوا بأنك وحدك بجلالة قدرك النظيف وأنت فى قلب الروث! . . الشرطة تستدعيك كل يوم والثانى باعتبارك تعرف المتهمين! . . إن لم تقل ما تريد الشرطة قوله عوملت أسوأ مما يعامل المجرمون! . . واحد غيرى كان سيضعف لا محالة ويشتغل مخبراً على الناس! وفى النهاية تموت شخصيته ويصبح ملطشة للذى يسوى والذى لا يسوى من حثالة المخبرين! . . أما أنا فرجل ملء هدومى! عندى عيال فى الجامعات، يهمنى أن أبقى فى أنظارهم رجلاً بمعنى الكلمة!». .

«ببركة دعاء الوالدين ألهمنى الله بما كان يردده أبى المعلم عيد الكبير عن سر الحياة فى مصر مذ خلقت إلى اليوم: البذل والبرطيل! ! هذان هما النفقان اللذان يمشى فيهما كل مصرى ذكى يريد تخليص حاجاته من أنياب الموظفين والمسئولين فى الجهاز الإدارى الحكومى البغيض! . . هكذا اشتريت نفسى بالرشوة الملفوفة فى شكل هدية مغرية يصعب رفضها! . . لقد علمنى أبى ـ رحمة الله عليه ـ أن الكلب

الضـال إذا نبـحك سـد حنكه بلقـمـة ينشـغل بهـا عنك ويوسع لك الطريق! . . فلما فعلت وجدت أعداد الكلاب الضالة كثيرة! كلهم مع الأسف من كلاب الحكومة الذين يتصدون لك فى كل مصلحة تريد قضاءها، يرمون جثثهم فى حليطة وألسنة متدلية فى لهاث يترقب حركة يدك فى توقع وتحفز لالتقاط ما يسقط من يدك! . . كلاب الحكومة أشرس وأقسى من كلاب الشوارع وأشدها غدراً وقلة أصل وخساسة! خاصة إذا كانت كلاباً مطلوقة فوق ربوات عالية تكشف منها كل حركة! !» . .

«جمعت عناوين كل من يمكن أن يكون لى عندهم مصلحة فى أى مكان من كبيرهم لصغيرهم! . . فى المواسم تذهب كراتين الفاكهة النادرة إلى بيوتهم ومن فوقها اسم صاحب الهدية على بطاقة مطبوعة! . . انفرطت يدى على كل من ألتقيه من ناس! أعطى وأعطى بغير حساب! حتى تكون لى جيش من المحبين المريدين المنافقين المداهنين خربى الذمة، مستعدين لتلبية ما أطلب مهما كان مخالفاً للقانون وحتى للأعراف والتقاليد!» . .

«لا تندهش هكذا! . . قد كنت أتوهم أن انفراط يدى بالعطايا وتوسعى فى الهدايا سوف يصرف عنى عيون الرقباء والمتنطعين سوف يتركوننى فى حالى أعيش حياتى فى أمان الله! ! توهمت أننى أقمت حول نفسى سوراً يحمينى من حسد الحاسدين وحقد الحاقدين على أساس أن اللقمة التى تفتش لا تؤكل! ! ظننت أن أحداً لن يتكلم فى حقى قائلاً عنده و عنده وعنده! . . من كثرة خوفى أن يحدث هذا جاء على وقت إن رآنى فيه أحد وفى يدى لقمة أو كوب شاى أو سيجارة بادرت باقتسامها معه أو تركها كلها له! !» . .

«يا سبحان الله! . . شوف وساخة الناس وقلة أصلهم: اتضح لى أن كل من أهديتهم وأعطيتهم وروقت لهم مزاجهم تحولوا جميعًا إلى عيون علىَّ!! عيون تندب فيها رصاصة! . . أصبحوا هم - وليس غيرهم - من ينخرب ورائى ويحفر تحت قدمى ويتسقط أخبارى ويتجسس على حياتى وأرصدتى فى البنوك ومصادر دخلى و . . و . . و . . يوو ووه يا حضرة الأستاذ! . . عملت الخير فانقلب شرًا علىّ! قدمت السبت فغدر بى الأحد والاثنين والثلاثاء! . . اتضح لى أننى ربيت لنفسى جيشًا من الكلاب المسعورة أصبحت بحكم الواقع وبمنطق الحق المكتسب تعتقد أن لها حقوقا شرعية فى كل أملاكى بل فى كل جرعة ماء أبل بها ريقى! . . ازداد طمعهم فىّ إلى حد الخطف وقلة الأدب فى المطالبة بالحسنة! يعنى: حسنة وأنا سيدك كما كان الأتراك يفعلون فينا زمان! !» . .

«نهشنى الجميع حتى أجبرونى على التفريط فى كل مظهر محترم! صرت ألبس أى لبس! آكل أى أكل! أمشى على قدمى أو أركب الأتوبيس! . . جفت النقدية فى يدى حتى أصبحت أدفع البريزة للجرسون على مجموعة طلبات وأطالب بالباقى ولو كان قرشًا واحدًا! . . أصبحت أسمع همسات المصلين من حولى فى الجامع وهم يتبادلون الأسى والأسف على ما حل بى من فقر واحتياج بعد العز والنغنغة! سمعت بأذنى من يقترح على صديق له عقب انتهاء صلاة الجمعة أن يتبرعا بمبلغ يغمزانى به سرا باعتبارى عزيز قوم ذل! ! كاد قلبى يتقطع خوف أن يفعلا لولا أن أحدهما قال للآخر: إن الذى تعود أن يعطى إذا احتاج يكون من أشد الذل أن تمد يدك لتعطيه! فاقتنع الآخر ودعا الله لى بصلاح الحال! . . سبحان الله يا أخى كان فرحى يتزايد كلما شفت فى عيون الناس نظرة إشفاق على حالى لأنى أتقنت

تمثيل شخصية المحتاج كأننى الممثل فريد شوقى فى فيلم البؤساء! ! شفت المصيبة يا رجل؟! . . الطريف أن عيالى فى ذلك الوقت كانوا جميعًا يتعلمون فى الجامعة الأمريكية وجامعة القاهرة وعين شمس! يقيمون وحدهم مع المرحومة أمهم فى عمارتى بالحى الثامن بمدينة نصر! عندهم عدة سيارات يتنقلون بها ولا أحد منهم يقترب من القرافة! أنا وحدى الذى كنت أسكن فى حوش ظاظا فى حراسة البستان وتجىء لى المرحومة زوجتى بين ليلة وأخرى فى عربة تاكسى ومن حين لآخر أبيت ليلة أو خميسًا وجمعة مع العيال أشق عليهم أتعرف على أخبارهم أحرر لهم الشيكات بطلباتهم الكبيرة، أما المصروف اليومى فأدراج أمهم عمرانة بكل أنواع العملة من الدولار إلى الاسترلينى إلى اليابانى إلى الفرنك الفرنسى اللهم لك ألف حمد وألف شكر!» . .

«إنما الإنسان غريب يا أخى! حقًا: قتل الإنسان ما أكفره! . . هل تتذكر سورة الشمس فى القرآن الكريم؟ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾ . . إلى آخر السورة الكريمة، صدق الله العظيم؟! . . يهمنى الآن قوله تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ . أعوذ بالله من قولة أنا، لم أكن فهمت معنى الآية الكريمة إلا قريبًا جدًا بعد أن سحرنى الشيخ الشعراوى وعلمنى كيف أقعد قدامه مذهولاً أنصت لكنوز المعانى التى يغرفها من بحور القرآن الكريم! . . هو النصيب يا أستاذ . . النصيب غلاب والهداية وعد! وطريق الهداية أن

تفهم معانى آياته سبحانه وتعالى! . . إنما دعنا من الهداية الآن فلم يكن أوانها قد جاءنى فكنت لا أزال فى مرحلة الضلال!» . .

«فعلاً إن الضلال فى أصله عناد! بذرة الضلال هى العناد والعياذ بالله! . . إبليس دخل فى دماغى قعد وتربع وشرب الشاى وتسلطن! . . قال لى إبليس اللعين: لبست ثوب المروءة وجربت الفضيلة والكرم والعطف والإحسان فما عض يدك ولا نهش أكتافك إلا من أحسنت عليهم فجرب أن تكون مثلهم! . . أغرانى بالضلال! قلت فى البداية فلأجرب وجهة نظره على سبيل الاختبار فحسب! جربت أن أكون أوسخ من الوساخة! . . أصبحت أخزن جميع أنواع المخدرات بما فيها بودرة الهيروين والكوكايين مقابل أموال طائلة! . . تعلمت كيف لا أدفع مليما واحداً إلا لمن يؤدى لى خدمة محددة لا يستطيع غيره أداءها! . . تعلمت أن أكذب وأراوغ وأخادع وأمالئ وأنافق وأداهن وأتغاضى وأتواطأ . . كل ذلك وإبليس يمدنى بالقوة والجسارة فى الهزء بجميع القوانين، أخرج من صفقة كبيرة إلى أكبر فأكبر! . . أكمخ رصات الفلوس فى سحاحير داخل سراير النوم! . . أشترى الأراضى للبناء وللزراعة! أشترى حدائق الفاكهة! مواشى وأغنام! عمارات! محلات مانيفاتورة فى الحمزاوى! كل ذلك بأسماء عيالى! . . فتحت لكل واحد منهم رصيداً فى البنك الذى يختاره يكفيه مدى الحياة! . . أصبحت ـ وأنا فى نظر المجتمع ذلك البخيل الممسك القيحة وجامع الأموال بغير حساب وبلا وازع من ضمير ـ مرهوب الجانب يحترمنى الكبير قبل الصغير!» . .

«المرحومة زوجتى كانت كل شىء فى حياتى! هى أساس فرحتى فى الحياة! لا فرحة لى من غيرها! كانت خيمة من الإيمان بالله أشعر

بأنه سبحانه يتلطف بى من أجلها! . . كانت رحمها الله على كثرة فرحها بما نحن فيه من فيض العز والنغنغة أشعر بأنها غير راضية! أن سعادتها ناقصة! غير خالصة! تقلق من منظر أكوام الفلوس تعتبرها الشر بعينه وتشخط فىّ كالملسوعة من عقرب: لمْ لمْ لمْ. . كانت واثقة من أن طريق الحلال ليس يحقق كل هذه الفلوس! . . دائمًا أبدا تبحلق فى عينى بقوة تكاد تفرتكنى من شدة الرعب فأضحك وأداعبها وأمثل عليها دور التقى الورع فأقول: خليها على الله يا حاجة! وأطيل من صلواتى أمامها لكن يصيبنى الفزع بحق وحقيق حينما أستمع إلى ابتهالاتها بعد صلاة الفجر وهى تدعو الله أن ينير لى طريق الخير ويبعد عن سكتى أولاد الحرام!! رعشة الصدق فى صوتها الخائف من ضلالى يجعلنى أكاد أبكى وأعترف لها بجرائمى! لا يمنعنى سوى خوفى عليها من الصدمة!!».

«والله والله ثلاثة بالله العظيم كنت على وشك أن أعلن توبتى إلى الله توبة نصوحًا! . . ولما جاء ميعاد المصيف السنوى قلت فلتكن هذه بداية التوبة! وهكذا تهيأنا للسفر إلى عشة لنا على شاطئ مرسى مطروح الذى اخترناه حبًا فى صخرة ليلى مراد التى كانت تغنى عندها فى الفيلم الشهير مع حسين صدقى! . . وفى نيتى أن أعود من المصيف مغسولاً متطهرًا لأوقف جميع نشاطاتى إلا نشاط الشغل فى القرافة عملنا الأصلى!». .

«كان عندى ولد أكبر من الدكتور هانى بثلاث أربع سنوات! كان نابغة! تخرج فى كلية العلوم بامتياز فعينوه معيدًا، فنال الماجستير والدكتوراه فى الكيمياء النووية بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف والتوصية بنشر رسالته! . . حضرنا المناقشة وأذاعت الإذاعة صورة صوتية منها ونشرت الصحف كلها خبر الولد بصورته الشبيهة بصورة نابليون

بونابرته وهو يلبس السترة أم ذيل طويل! . . أقمنا فى فندق سو نستا احتفالاً كبيرًا حضره أشكال وألوان من الأساتذة والتلاميذ! امتدت الموائد للركب! و فى اليوم التالى ذبحنا عجلاً سمينًا وزعناه على الفقراء! وكان ذهابنا إلى مصيف مرسى مطروح آخر حلقة فى الاحتفال بفرحتنا بأن صار من ذريتى عالم فى الذرة! !» . .

«قسمنا أنفسنا على أربع سيارات : الفورد نصف النقل تحمل الأمتعة والأغطية والأدوات وحقائب الهدوم والبنت الشغالة . . البيجو خمسماية واربعة تحمل العيال الصبيان! . . فى المرسيدس الخنزيرة أنا والبنات . . السيارة الفيات ألف ومائة دولكس كانت جديدة على الزيرو اشتريناها لابنى هدية النجاح الكبير فركبها وأخذ أمه بجواره وطفلة كانت آخر العنقود عمرها سبع سنوات!» . .

«نشوة النجاح والتفوق شعللها الغناء فى راديو السيارة من لحظة ماركب أمامنا وأدار المحرك وقام بعدة حركات بهلوانية يثبت بها ـ لنفسه أولا ـ أنه سائق ماهر فى الطلعة وفى التحويد وفى الوقفة ثم انطلق أمامنا يقودنا ونحن من ورائه! . . من صلاح سالم إلى الهرم فالطريق الصحراوى وأنا بالخنزيرة فى آخرهم! . . المرجح طبعًا أنه شطح مع حلمه كعالم فى الكيمياء النووية! ما كان يدرى أنه يجرى بأقصى سرعة! بسرعة النشوة! سرعة الطيران على جناح الحلم! . . فى لمح البصر اختفى من مدى الرؤية المتاح أمامى! . . أنا من طبيعتى البطء فى السواقة! صرت مرتبكًا طوال الطريق أتلصص بحثًا عن سيارة فيات ألف ومائة بيضاء سن فيل دولكس فلا أجد لها أثرًا! . . العيال معى يخادعون أنفسهم ليخادعونى بأن زمانه قد وصل إلى مرسى مطروح!» . .

«غادرنا الإسكندرية! قطعنا شوطًا كبيرًا! فوجئنا بربكة فى الطريق! السيارات تزحف ببطء. الأعطال! شبح الموت يخيم على الدنيا كلها!.. وسط لمة كبيرة من الناس وسيارة الشرطة لمحت السيارة الفيات الدولكس ألف ومائة البيضاء قد صارت عجينة ولحم ابنى الحبيب مع لحم زوجتى يبظ من بين الحطام الغارق فى بحيرة من الدماء! أف ف ف ف.. يا ربى.. هـ.. إ.. إهئ!.. آه.. أقول: هى صرخة وحيدة صرختها وانتهيت فى الحال!.. لا أذكر أى شىء مما حصل! كيف ركنت سيارتى؟ كيف نزلت؟ ماذا فعلت؟ كل ما بقى فى ذاكرتى هى الصرخة التى انشق منها قلبى وتفتت! وقعت فى غيبوبة يقولون إنها استمرت أشهرًا! وحتى بعد أن أفقت بقيت أشهرًا أخرى أبحلق فى الناس والسقف والجدران لا أدرى شيئًا مما يدور حوالى!.. ياااه.. يا للفظاعة.. إ.. أ.. أنجب ع.. يالى و.. مصدر فخرى يملأ الآن عينى كتلة لحم شائهة! !» ....

«رقدت فى هذه العلقة سنتين كاملتين والله يا أستاذنا.. كلما أرتد إلى وعيى أجد هذه الصورة منصوبة أمام عينى كأننى لم أعد أرى شيئًا سواها! وأكون واعيًا بأننى فى سرير وتحت عناية ناس كثيرين جدًا لا أعرفهم! أطباء وممرضات وهلمة كبيرة لكننى غير دار بجوهر ما يجرى! وإن دريت لبرهة خاطفة يركبنى الهياج أبحث عن آلة حادة أقتل بها نفسى! أشعر بالأذرع القوية وهى تكتفنى فى أحضان دافئة باكية! وأسمع صوتى الملتاث يصرخ: دعونى أموت! إن الله لا يحبنى! لقد نجانى من الموت خصيصًا لأتعذب بحرقة كبدى!.. فين وفين على بال ما تفطنت وبدأت أستوعب الصدمة وأصبر على الاستماع إلى التفاصيل وأقتنع أن ابنى كان هو المخطئ والمتسبب فى انقلاب سيارة تقافزت فوق نفسها إلى أن انبطت فى الاتجاه

المعاكس فتسببت بدورها فى صدامات وجروحات راح فيها خمسة ستة!». .

«يا هوووه! انقلبت حياتى! زهدت فى كل شىء! أصبحت أتبرع للملاجئ والمدارس وبيوت المسنين والمساجد! أقيم للرحمن مائدة طولها شارع بأكمله طوال شهر رمضان من كل عام! أساعد فى السر وأعاون فى العلن! أحج كل عام! لا يفوتنى الفرض فى موعده مهما كنت مشغولا! دروس الشيخ محمد متولى الشعراوى فتحت مخى على كنوز المعانى والعبر فى القرآن الكريم، فأدمنتها واقتنيت كل شرائطها وكتبها المطبوعة! . . ذات فجر رمضانى فى جامع مولانا الإمام الحسين تجلى لى الهاتف فى صورة شيخ طاعن فى السن صدئ الوجه لحيته الطويلة كالمقشة الجريد منظرها مخيف كغابة من حلفاء وأسلاك شائكة! كان جالسًا لصق المنبر شاخصًا فى عينى! يقول بحدة وقسوة لشخص بجواره غير مرئى:

- والله لقد كنت أحق بالموت وأجدر من الأرواح الطاهرة التى قبضها المولى سبحانه وتعالى! ولكن! إياك تظن أن الله افتداك بهم ونجاك! لا ياغبى! لقد أبقاك حيا ليسقيك مر الألم! ليحرق قلبك على أعز الناس! أما الذين أخذهم الله فإنهم هم الأطهار! لهذا طهرهم من مالك النجس! استخسرهم فى أمثالك! ولسوف يجعلك عبرة لمن يعتبر! أرنى الآن بماذا ستفيدك الفلوس؟ لا شىء! ستكون جمرًا يلسعك مدى حياتك كلما أمسكت درهما! ذهبت عنك اللذة والطمأنينة أصبحت طعين الفؤاد فما أتعسك!!».

«كنت واثقًا من أن الشيخ يكلمنى أنا طالما أن ليس بجواره أحد وإن كنت لا أعرفه من قبل! . . تجاهلته مغطيًا عينى بالجفنين. . رأيته من

خلالهما يسلقنى بنظرة غيظ واحتقار ! . . من يومها انكسرت نفسى ! جاءنى إحساس بأن غضب الله لن يعتقنى مهما تعبدت وفعلت من خير ! ولكنى واثق أيضًا بأن الله غفور رحيم!» . .

«أبدا ما فكرت فى شراء هذا القصر ! إنما فوجئت بمن جاء وبنى هذا المبنى فوق أرض هى فى الأصل ملكى وكنت أسقعها للبيع بعد وقت طويل ! . . فى الواقع ما دمنا فى حالة صراحة كنت أعرف أن هناك من نصب على بعض المشايخ العرب المستثمرين وباعهم هذه الأرض بعقد مزور ! المحامى بتاعى أستاذ فى الجامعة وصديق لابنى الكبير تولى العملية من بابها وناطح فى المحكمة سنة بحالها مطالبًا بهدم البناء واسترداد الأرض ونجح فى إيقاف المشروع الذى كان من المفترض أنه مستشفى سياحى لتريح النفوس القلقة المضطربة! وتكفل الواقع المصرى بالإجهاز عليهم لصالحنا : أغرقهم فى مشاكل بيروقراطية تتحرك فيها الأوراق والتصاريح والترخيصات ببطء قاتل بهدف الابتزاز من كل ناحية! يئس إخواننا! نفضوا أيديهم من المشروع! دخل عليهم المحامى فى اللحظة المناسبة ومعه حكم من المحكمة بهدم المبنى وتسليم الأرض لمالكها الأصلى! . . اشترينا منهم المبنى بأقل من تكاليفه بكثير ! تحمس ولدى الكبير لإقامة نفس المشروع فأكمل التشطيبات النهائية بنفس شركة المقاولات التى صممت المبنى ونفذته! لكننا أفقنا على أن هذه الشغلة لا يفلح فيها إلا شركات عالمية متخصصة فتكاسلنا عن المشروع! ولكن العيال أرادوا أن يفتحوا شهيتى للحياة بعد الكدر فأغرونى بالإقامة فى هذا القصر وحدى ما بقى لى من عمر على وجه الدنيا بعد التوبة النصوح وتنظيف اليد والأموال التى أقتات منها!» . .

«طب ما قولك فى أن الهداية أجمل؟ وأن القناعة بالفعل كنز لا

يفنى ما فى ذلك شك؟! عشر سنوات كاملة وأنا على طريق الهداية لا أتخلف عن نداء الله! ولكن . . إ. . أ». .

«لا أعرف إن كان من حقى أن أكلمك فى موضوع كهذا أم لا! وإنما أظن أن الصداقة التى قامت بيننا وازدادت اليوم ـ اليوم بالذات ـ متانة وقوة بما حكيته لك من أسرارى الدفينة تعطينى الحق فى . . أن . . فى الحقيقة لست أعرف ما هو اللفظ المناسب! . . أقصد! . . اسمع . . إ» . .

«فلأقل بمنتهى الصراحة الكاملة: إننى الآن وقد اهتديت ومن الواضح أن الله سبحانه قد قبل توبتى وصدقها بدليل أنه أعاننى على هزيمة إبليس! وقد طيب جروحى وأسكننى فى قصر كهذا ليس ينقصه سوى الأميرة التى تنيره وتنير حياتى فيما تبقى لى من عمر!» . .

«حضرتك طبعًا ترى أننى فى صحة جيدة جدا والحمد لله لو أكلت خروفًا مشويًا أهضمه بسهولة! وقوتى الجنسية عدم المؤاخذة عشرة على عشرة قوة مخزونة تنقح على وأقاومها بكل قوة مخافة الزنى والعط فيما يغضب الله!» . .

«منذ وفاة المرحومة تمنيت عروسًا تفهمنى وأفهمها! تكون راقية! تستأهل السكنى فى قصر كهذا! . . لا مانع عندى إن هى أرادت الإنجاب وقدرت عليه صحيًا . . و . . . فلأكن دوغرى معك! أقول لك بالمفتشر إننى قد عثرت على هذه الحورية المحترمة! هى الوحيدة التى يمكن أن تزين هذا القصر حقًا وتسعدنى بقية عمرى!» . .

«تصور! ـ وليس بيننا ما يدعو للكسوف ـ أننى من أول ما وقعت عينى عليها نط قلبى فك السلسلة عن رقبته المربوطة فيه من زمن الصبا! صار صبيًا من أول وجديد! انطلق يجرى ينام فوق صدرها وينسى

الدنيا وما فيها! . . مش واخد بال حضرتك؟ . . صحيح والله! هذه هى المرأة التى حلمت بها طول عمرى حتى من قبل أن أتزوج : امرأة ألفرنكة متعلمة راقية جميلة محترمة تملأ الحضن بهجة وحياة يليق بها أن أفتح لها باب المرسيدس قائلاً : اتفضلى يا هانم!» . .

«يا رجل إنها صديقتك مدام هند سليمان! . . صدقنى . . أنا فعلاً أريد أن أتزوجها على سنة الله ورسوله! . . مستعد لأن أخضع لكل شروطها حتى وإن طلبت أن أكتب هذا القصر باسمها! . . أما من ناحية عيالى فإنهم يلحون علىّ بأن أتزوج وأشوف لى يومين حلوين! . . لن تكون حياتى حلوة حقًا إلا إذا صارت مدام هند سليمان على ذمتى وملك يمينى! . . إن كان لها مطالب تقولها بقلب واثق! أما مستوى المعيشة فأنت رأيت العينة وهى عاجلة فما بالك لو كانت هى سيدة هذا القصر وأميرته؟!» . .

«لا تسئ فهمى حلفتك بالإمام الحسين! . . أنا سليم النية والله العظيم حاشا لله أن أجعل حضرتك مرسالاً بينى وبينها لكن أقول يعنى إذا جاءت مناسبة للكلام ـ وأنا أعلم جيداً أنها تعزك وتقدرك وتحترم رأيك ـ فليتك تحاول جس نبضها بصنعة لطافة! . . وإن قدرك الله على كلمة طيبة فى حقى فلن تبخل بها طبعًا! . . آه لو نفع هذا المشروع يا أستاذ! لو نلت مرامى! لك منى هدية لا تقل عن سيارة ميه اتنين وتلاتين إس ـ التى أعرف أنك تحبها ـ بشوكها على الزيرو . . جرب وشوف»! ! . .

«ماذا؟ نويت الرحيل؟ لعل كلامى لا يكون أزعجك! على كل حال براحتك! تعال! سيوصلك سائقى إلى سيارتك! . . والله العظيم أنت شرفت! . . إلى اللقاء فى السهرة!» .

١٩
العاشق الأعظم

. . «نسيتنا يابيه واللى كان كان! . . معلهش! لنا رب يسمى الكريم!» . .

«أنا مهما كان الأسطى حسين قشطة! لى فيك أكثر من أى واحد فى المنطقة تمًا! . . أم أننى غلطان يا أسيادنا؟ تكلم يا عم على! . . معلم صابر . كابتن جمال . . حضرة الضابط وجيه! . . دعنى أشهد عليك الناس يا هاجرنى! . . طبعًا يا عم! من لقى أحبابه نسى أصحابه! طب يا أخى فوت ومسى من بعيد وأنت ماشى! . . على كل حال نحن اعتدنا هجرانك فتدلل علينا على كيف كيفك! ولكن تذكر أن الأحباب هنا فى الورشة يسألوننى عنك كل يوم . . أقربها اليوم! المعلم صابر حموه سأل عنك من أول ماقعد! . . حضرة الضابط وجيه قعد البارحة ينتظرك ثلاث ساعات! . . على فكرة! صاحبنا الممثل الأستاذ محمود الشامى كان عنده تصوير هنا للتليفزيون وكان يتعشم أن يشوفك! قلت له البيه غير سكته يا عم!» . .

«عن إذنكم يا جماعة! سآخذ البيه منكم خمسة! سأريه عربة سوف أشتريها له من زبون عندى عرضها علىّ فاستخسرتها فحجزتها للبيه ربما تعجبه! سيارة الأستاذ مديح يا كابتن جمال! الرينو الصغيرة! إنها لقطة لمن يفهم قيمتها!» . .

«واد يا بلية! . . تعال هنا . . هات أذنيك! : خذ كرسيين ضعهما وراء حوش خوند من جوه خالص! رش جردل ميه تخمد التراب . . يلا يابيه . . باقول لك ايه يا عم على! قرب شوية : إبعت لنا محمود باتنين شاى وعشر حجارة ورا حوش خوند! بسرعة الله يسترها معاك!» . . . .

«هيه؟ ما رأيك فى هذه الزنقورة؟ قعدة تسحر طبعًا! . . رطبة فى الحر دفيانة فى البرد! أمال يا جدع! هذا التراب جثث مطحونة ولكن الروح فيها وفيه! علىّ النعمة من نعمة ربى ساعات أختلى بنفسى فى هذه الزنقورة وقت الأصيل فيجيئنى إحساس قوى بأنى قاعد وسط صحبة كبيرة من ناس حلوين يؤنفسون معى ويملأون القعدة أنسًا بالصلاة على النبى، كل وجوههم نضرة من شدة الترحيب والاحتفال بى! طلاق تلاتة لو روقت دمك الآن وركزت قليلاً سترى كل هذا التراب والحيطان المصفرة مجرد ملاءة رهيفة حين يطلع النور من قلبك ويتسلط عليها يزيلها لترى الناس قاعدين أشكالاً وألوانًا من كل عهد من كل زمن، فيهم الرجال والنساء والفتيان والصبايا والأطفال وكلهم سترونهم فرحانين بمجيئنا لزيارتهم! أمال يا جدع! نحن شعب تحب الونسة حتى وإن كنا ميتين»!! . .

«صاحبنا الممثل يصف هذه الزنقورة بأنها تنفع لوكيشن! يعنى إيه لوكيشن يا بيه؟! . . مش مهم مش مهم! . . مكان للتصوير تقول؟ يجوز! . .

«إيه بقى؟ زعلان مننا ولا إيه؟ صاحبتك أخذتك منا؟ طبعًا: نشنت عليك وقطفتك من وسطنا! هنيالك يا عم»! . .

«تصدق أننى من يوم ما قابلناها معًا لم أرها إلا مرة واحدة على

سبيل الصدفة؟ . . كنت ماشيا فى صلاح سالم قاصداً الكريم إلى كوبرى الفردوس لأعاين سيارة معجونة تحته مطلوب منى أن أسحبها أو أرفعها إلى ورشتى لسمكرتها! . . وإذا بصوت امرأة ليس غريبًا على أذنى ينادينى: يا اسطى حسين! . . فلما تلفت حولى رأيت أمام جامع الفردوس امرأة هانم تظنها الأميرة ديانا تفتح باب سيارة فخيمة ماركة داتسون جديدة بشوكها! وتقف فى فتحة بابها منتظرة! . . قلت لنفسى ليس من المعقول أن مثل هذه المزة تعرفنى بالاسم، يعنى لابد أنها نادت على شخص غيرى واسمه الأسطى حسين أيضًا! . . مشيت! فنادت مرة ثانية: يا اسطى حسين يا قشطة! . . خرمت عليها كاسرًا الإشارة! جريت وقلبى يرقص من الفرح بهذا الرزق الذى يرسو على شطى من غير ما أطرح الشبك! . . نعم يا ست هانم؟ أأمرى! . . ضحكت الست هانم: خدمة بسيطة والنبى يا اسطى حسين! . . عرفتها من ضحكتها المزيكة! لكننى كنت أعرف أنها لا تملك سيارة! فواحدة عندها سيارة داتسون ملاكى لا تسكن فى القرافة! كما أننى لم أرها من قبل لابسة بدلة كبدلة الرجال وبالكرافتة أيضًا! شكلها يقول إنها استحمت فى حوض ملآن بعصير الورد! . . بحلقت فيها متشككًا: إه؟ مدام هند؟! مش معقول! مبروك ع العربية الجديدة! . . ضحكت! قالت إنها عربة واحدة صاحبتها استلفتها منها لتقضى بها مشوارًا إلى مصر الجديدة! . . فرصة سعيدة يا مدام هند تحت أمرك ما هى الخدمة؟ . . أشارت بذراعها الذى كان يشخلل بالغوايش الذهب مع أنى لم أرها من قبل تتزين بذهب ولا فضة أكثر من دبلة زواجها من المرحوم! . . قالت وذراعها ممدودة تجاه جامع الفردوس: العجلة القدمانية اليمين مهوية وخايفة أمشى بيها تعملها فى السكة وتنام! . . لففت حول السيارة دست بقدمى فوق الكاوتش فخرج صوت الهواء كالضراط! . . البلف

إذن سايب! ولد ابن حرام لعب فيه وفكه!. . أمنت توازن العربة بقطع من الدبش: معك عدة؟ قالت: نعم. . رفعت غطاء الشنطة! وجدت شنطة هدوم جلدية كبيرة ماركة سمسونيت عندى أختها أتيت بها من ليبيا! وفوقها شنطة صغيرة من نفس الماركة!. . جاءنى إحساس بأنها متوجهة إلى مطار القاهرة للسفر!. . المهم! غيرت لها الاستبن و . . باى. . باى. . من يومها لم أرها إلى اليوم!. . مررت أكثر من عشرين مرة ـ بالصدفة أيضًا والله يابيه ـ فأجد البيت! أقصد الحوش هس هس! لا حس ولا خبر! قلت فى عقل بالى: حاجة من اتنين: إما أن تكون سافرت إلى أى مكان! يا إما تزوجت وزوجها ترك العربة أو اشتراها لها . . وفى هذه الحالة. . ربنا يستر . . قصدى. . ربنا يستر ويكون من تزوجته بنى آدم يستأهلها بحق وحقيق»!. .

«تضحك يا بيه؟! اضحك ما شئت! إنما يكون فى علمك أنها لو . . تزوجت فعلاً. . أو هووووه. . لا أعرف ماذا يحدث لى لو أنها تزوجت!. . اللهم احفظنا والعياذ بالله يجوز لى الانتحار. . الموت حلال علىّ بعدها. . صدقنى»!. .

«يا بيه الموضوع ليس نكتة!. . خلٍّ الدهشة للناس الأميين من أمثالنا! واستمع لى بشخصيتين: صديقى الذى أحبه وأفخر به وأضحى من أجله! والصحفى والأديب الذى يفهم فى أمور الحياة وفى الناس أكثر منا! و يعلمنا وينورنا! يعنى لا يصح أن تأخذ كلامى على محمل الهزار»!. .

«أنت تؤمن بالحب بعد الله طبعًا مش كده ولا إيه؟. . إذن يا أخى لماذا تندهش لما أكلمك فى أمر من أمور الحب؟ الحب لا الغرام، خل بالك!. . يا بيه أنا لست عبيطًا! أنا راجل صنايعى! مفتح وداير

وصاحب مفهومية وحضرتك تعرف عنى ما يغنينى عن الكلام عن نفسى»! . .

«والله عارف! . . عارف أنها ـ حتى وإن كانت تسكن فى حوش قرافة ـ هانم وألف هانم فى بعض! إنها بنت ناس ومن عائلة محترمة وإن قلت لى إيش عرفك إنها من عائلة؟ لن أقول لك إن الحوش الذى تسكن فيه أصحابه ـ أهلها يعنى ـ من أحسن الناس! مدفون فيه أبوها الحكمدار وأمها بنت الأصول! أما كونها تسكن فى حوش قرافة فـ . . إيه يعنى؟ البلد كلها فى أزمة مساكن طاحنة! و البيوت أسرار ولا أحد يعرف ما فى داخل الهدوم ولا ما تخزنه القلوب! . . كل واحد له ظروفه والزمن غدار كما تعرف! . . الدولة نفسها افتقرت! شحتت! مدت يدها للذى يسوى والذى لا يسوى! . . فليست عجبة أن تجىء ست محترمة بنت ناس لتسكن فى حوش أهلها فى القرافة مثلما يفعل الكثيرون هذه الأيام! ! . . لن أقول لك هذا الذى قلته لو سألتنى إيش عرفك إنها بنت ناس! إنما سأقول لك ما قاله المثل الداير: أصلك فعلك يا باشا! . . أنت عارف أنى ولد صايع برضه! ليس من السهل استغفالى! . . شهادة يحاسبنى الله عليها: أنا راقبت هذه الست مراقبة لا يفلت منها عفريت! ما شفت من الست كذا أو كذا! ست دوغرى كالقطار المجرى لا يقف إلا على محطات المراكز! الفرق بينها وبين القطار السريع أن القطار يركبه الناس أما هى فتركب الناس! بأدبها وأخلاقها وكمالها»! ! . .

«يكفى يابيه أنها تمشى فى عز الليل الغطيس فى قلب الخطر وحدها وفى سكك تخاف فيها الرجال فما ظنك بالحريم النواعم؟ . . لا أحد يجرؤ على الاقتراب منها! . . سيبك من المسدس الذى تحشره فى البنطلون تحت البلوزة! فإن لم تكن حاملة المسدس عندها قلب

وشخصية قوية، فإنها لن تشيله من الأساس لأنه فى النهاية مصيبة كبيرة فى حد ذاته! . . إن فى شكلها حاجة معينة تخيف الطامعين فيها تجعلهم يكسكسون بدل أن يتقدموا! يخرجون من الورطة قبل أن يدخلوها! . . يا ما فكر ناس مخربشون فى مهاجمتها وهى ماشية! هل تعرف ما حصل لهم؟ طاردتهم! لا بالمطاوى والسنج التى يحملونها! ولا حتى بالمسدس الذى تحمله! بل بالشلاليت والمقصات المشنكلة والبونيات والبصق فى الوجوه! فكيف يفكر أحد فى الهجوم عليها فى الحوش حتى ولو كان مجنونًا؟ إنها قوية جدًا»! . .

«منطقتنا بالصلاة على النبى صغيرة ملمومة وأى خبر يجرى فيها بسرعة البرق! . . وبعدين أنا عايز أقول لك حاجة: جميع الرجال الكبار المحترمين شكلاً! التقايل من أهل المنطقة ومن زباين الورشة عملوا من أنفسهم حراسًا عليها بالمجان دون أن تطلب منهم! كلهم طامعون فيها حتى العاقلين من كبار السن مخهم ملسوع من حكاية سكنها فى الحوش حتى ولو كان حوش أبيها وأمها! كل واحد منهم دماغه متربس على فكرة أن امرأة بهذا الجمال وهذه النظافة وتسكن فى حوش قرافة معناه أنها يا إما فى ورطة مادية عملت لها أزمة فى السكن! يا إما عاهرة جاءت إلى هنا تتصيد الضحايا! ! فيهم من يرسم للدخول عليها من الباب الأولانى كمبعوث للعناية الإلهية جاء يحفظ لها كرامتها ويسترها ويضحى من أجلها بما وراءه وقدامه! ! . . وفيه من يرسم للدخول عليها من الباب الثانى كولد فتوة حريف بتاع نسوان وابن ليل ابن ميتين كلب! المهم أن يلهطها هذا أو هذا منهم بأى شكل وعلى كل لون يا باتستا! ! . . الأنكت من ذا وذا . . أن كل واحد فرض عليها رقابته بطريقته! كل واحد يبعث للآخرين تحذيرات

وزغدات وضرب من تحت الحزام وتهديد بالفضيحة وربما القتل إذا لم يصرف النظر عن اللى بالى بالك»! . .

«الورشة انتعشت يا بيه! الواحد منهم يرمى بسيارته متمنيا أن أخترع فيها تصليحًا بأى فلوس أطلبها ليقعد على حسها ساعتين ثلاثة يرقب الطريق لعله يراها فائتة أو يرى غيره يقطع عليه الطريق إليها!! . . سامر يا بيه! محسوبك يشوف ويتفرج»! . .

«فرجة زى الزفت بعيد عنك! . . قلبى يأكلنى على الست! طلاق بالثلاثة يا شيخ أننى جاءت علىّ لحظات لو كان معى فيها مدفع رشاش لأفرغته كله فى صدور هذه الثعالب العجوزة المعطاة مالاً بغير حساب تبعثره بشكل يكيدنى أنا الصنايعى الذى أدقدق بالشاكوش والسندة أسبوعًا بكامله أنا وصبيانى لأقبض فى النهاية مائتى ملطوش أو حتى ألفًا! . . الواحد منهم يرمى بحزمة آلاف على صدر راقصة فى شارع الهرم! . . الله يحرق دمهم كما أحرقوا دمى! . . مال سائب يخصهم وهم أحرار فيه ولكن ما يكيدنى ليس بهدلة الفلوس وهى نعمة يجب أن نصونها وننفقها فى المفيد! إنما يكيدنى أنهم طوال جلوسهم عندى فى الورشة يتكلمون عن الست هند بغمز ولمز وابتسامات صفراوية! . . و . . أجارك الله مما يجرى لى ساعتها! تقول كأنهم يرفعون الغطاء عن لحمى وعرضى يقلبون فيه عضوا عضوا؟! نعم إننى ـ ولا تسألنى كيف ـ صرت أحس بها كأنها لحمى أنا! عرضى! شرفى! السر الذى يخصنى وحدى ولا يجوز لكائن من كان أن يرى منه بوصة واحدة»! . .

«صدقنى والله العظيم يابيه! الواحد منا يصحو من النوم ذات يوم فيجد نفسه مريضًا! فإن سأله الطبيب من أين وكيف جاءك المرض فهل يجد كلامًا يقوله؟! . . أنا هكذا بالنسبة لمدام هند سليمان: صحوت

من النوم ذات يوم فوجدتنى واقعًا فى حبها وكأن حبى لها قديم من عشرات السنين وليس من اليوم فحسب!.. رجعت مراهقًا كما كنت لكن بعقل وقلب واعيين!.. وجدت نفسى أفيق من سحر الموسيقى والألحان فى الأغانى لأنتبه إلى معنى الكلام أستطعمه وأستلذه! صرت أفهم ما معنى قصيدة جبل التوباد التى أسمعها طول عمرى مسحورًا باللحن والموسيقى فحسب!.. أغانى أم كلثوم: أمل حياتى وأنت عمرى وفكرونى وفات المعاد!.. لأول مرة فى حياتى أتأكد أن الكلام عن السهد والخصام والهجر والوصال وكيد العوازل وأمثال هذه العبارات ليست محض أونطة وكلام أغانى! لا! إنه كلام ابن عم حديت وله أصول فى القلوب ليس يعرفها إلا من يحبون بحق وحقيق»!..

«يابيه افهمنى وحياة سيدنا الحسين خلينى أكمل كلامى! إيه؟ ألست صديقك ومن حقى عليك أن تسمعنى من طق طق لسلامو عليكم؟!.. غير الجوزة يابو حنفى وهات عشرة! إسمع! اتنين قهوة ع الريحة شغل يد»!..

«الظاهر يا بيه أنك أنت أيضًا أصبحت تغار على مدام هند مثلى!.. غرضى ومنى عينى أن تفهمنى.. أنا على فكرة لست غريمًا لأى أحد!.. فاهمنى حضرتك؟ مستحيل طبعًا أن أتصدر لها وأمنع أى شخص عنها أو أمنعها هى من أى شىء! فما أنا إلا صنايعى محترم! ولكن الصنايعى إنسان مثل الملك والوزير والرئيس والأمير والمدير والمهندس والطبيب والصحفى والممثل من حقه أن يحب ومن حقه إن أحب أن يطلع صديقه العزيز على حبه»!..

«أنا وقعت فى الحب! فيها حاجة دى؟.. ستقول لى الفوارق الطبقية والاجتماعية والثقافية والباذنجانية والبطيخية؟!.. سيبك من

الكلام ده كله! إنه مجرد كلام كالبضاعة للمتكلمين فى الإذاعة والتليفزيون! . . الحب يابيه لا يعرف الفوارق! أى فوارق من أى نوع! . . يا ما ملوك أحبوا من عامة الشعب بل وتنازلوا عن العرش فى سبيل واحدة لا هنا ولا هناك فى نظرنا، إنما هى فى نظره أهم من التاج الملكى! . . وياما بنات عائلات تزوجن من شبان معدمين! وعظماء تزوجوا من خادمات وسكرتيرات ومتسولات! مسألة الحب هذه محسومة من زمان»! . .

«أخوك لم يدخل المدارس لكن مدرسة الحياة وخصوصًا حياة القرافة علمته الكفت! . . علمتنى الحياة والتجارب أن الأزواج والزوجات فى بلادنا قلما جربوا طعم السعادة أو ذاقوا حلاوة الجنس على حقيقته لأن الزواج عندنا ليس مبنيا على الحب الحقيقى! . . إننى أعتقد يا بيه أن البغاء الذى تسمونه بالرسمى هو الحياة الزوجية، كل واحد من الطرفين يبيع جسده للآخر فى مقابل المعاونة على الحياة وتربية العيال! . . نعم يتآلف الطرفان فى معظم الأحوال ويتفاهمان من أجل أن تسير المركب فى بحر الحياة فى أمان ولكن الواحد منهم - مهما أخلص فى العلاقة - ليس يعطى للآخر حبا حقيقيًا بمعنى الكلمة كالحب الذى أفهمه! مهما صاحب العملية الجنسية من حركات وكلمات وأفاعيل مثيرة، وكل ذلك من طرح العملية نفسها ومثل هذه الأصوات والحركات تحدث عند الجماع حتى لو تم بين الإنسان والحيوان! . . أما الحب فشىء آخر يا بيه صدقنى! ليتنى كنت أديبًا وكاتبًا مثلك كنت أوريتك معنى الحب على أصله كتابة، لكن ياللأسف لسانى عاجز عن التعبير عن المعانى الكبيرة التى أتمنى أن أعرضها عليك لربما استطعت بقلمك وخيالك أن تكتبها بدلاً منى»! . .

«حبى لمدام هند سليمان والله العظيم يا بيه لا يدخل فيه أمر الجنس

والجماع وهذا الكلام الفاضى! تؤتؤتؤتؤ! . . لا . . يا خبر اسود! . .
إنها هى نفسها ضد هذا! تركيبتها وكل نظرة من عينيها أو لمسة من يديها أو كلمة من لسانها تمنعك من التفكير فى مسألة الجنس هذه! تصرف نظرك عن الهزل والهلس! توزنك! يعنى تجعلك تلزم حدودك وتقف مطرحك محترمًا نفسك! أمال يا جدع! تربية على الغالى»! . .

«تصدق يا بيه أن هذه التربية من أسرار حبى لها! إنها كلما طرأت على بالى أتأكد من أن المرأة - إن صحت - تكون أقوى من الدنيا كلها! تكون هى الدنيا كلها! . . إننى أحبها كما أحبك أنت وكما أحب الشرف والأخلاق والجدعنة والكرم وقوة الشخصية وعزة النفس وكل هذه المحبوبات التى جمعت صحبتنا وجعلت كاتبًا مشهورًا مثلك وفنانًا كالأستاذ محمود يصاحبان سمكريا مثلى يعيش فى القرافة»! . .

«طبعًا سوف تسألنى أو على الأقل تسأل نفسك: وإيش بعد هذا الحب كله؟ وفى النهاية ما نهايته؟! . . هنا . . أخ خ خ خ! يا ما فى نفسى يا بيه أنك تكتب ويكتب زملاؤك فى هذا الموضوع! موضوع الحب من غير أمل! . . وعندما تكتب فى هذا الموضوع بلغ سلامى ولعنتى على فريد الأطرش وغيره ممن باعوا لنا غناء مغشوشا فيه سميات عاطفية مثل مسألة الحب من غير أمل هذه! كأن الحب لابد أن يكون وراءه أمل فى منفعة أيًا ما كانت هذه المنفعة! زواج مثلا! يعنى جنى القطوف والثمرات! يعنى يتقاضى المحب ثمن الحب متعا جنسية وخلفة عيال أو أى متع تأتى من المحبوب! ! . . يا ناس يا خلق يا زلط يا غجر ياللى خرمتم التعريفة وحطيتوا الفيل فى المنديل والمنفلة فى الفانلة وشنبو فى المصيدة هل أنتم بهائم؟! إن الحب الذى تنتظر من ورائه أية فائدة ليس حبًا إنما هو صفقة يعنى بيعة وشروة»! . .

«يا أخى اتركنى أتفلفس من نفسى! . . الأصل فى الحياة أن الإنسان

يحب وبس! . . نعم . . أنا مثلا . . لست أنتظر من وراء حبى لمدام هند سليمان أية منفعة شخصية تعود علىّ! . . أحلف لك على الختمة الشريفة وعلى البخارى أننى ليس لى أى غرض من أى نوع فى مدام هند سليمان! . . اللهم إلا أن تبقى هكذا على وجه الدنيا! تحت بصرى لأراها كل حين! فرؤيتها تملأ صدرى بالهواء النقى تجدد الدم فى عروقى تعطينى مزاجًا رائقًا فى الورشة! وهكذا الأمر بالنسبة لغيرى ترتاح أعصابهم كلما رأوها»! . .

«لست أنانيًا! . . فلتتزوج إن أرادت فهذا طبيعى ومن حقها! ولكنى سأحزن ويتقطع قلبى إن هى انخدعت فى واحد من الأبالسة اللاعبين بالفلوس وهم أفيال تأكل غداء الشعب المصرى وفطوره وعشاه ويسحبون الغطاء من فوق عيال مصر يتامى الأب من قديم الأزل! هؤلاء الذين سرقوا البنوك وبأموال الشعب قتلوا شرف الشرفاء! أقصد أنهم قتلوا الشرف نفسه فلم يعد للشريف أى فضل ولا معنى! أبالسة يكسرون عيون الكرماء يطاردون عزة النفس حتى لا يبقى فى الدنيا عزيز واحد يذكرهم بأنهم كلاب أولاد كلاب»! . .

«أعطنى عقلك يا بيه لو أن واحدًا من هؤلاء الأبالسة فاز بها! خصوصًا أنهم جبابرة يستأجرون القوة بالأموال على مستويات كبيرة يعنى يمكن أن يطهقوا الواحد فى عيشته حتى يستسلم لسمومهم»! . .

«أقول لك ما هى مشكلتى بالضبط! . . المسألة وما فيها أن مدام هند سليمان لو ظلت صامدة على حالها لا تأكل من ألاعيب الذئاب والفيلة! وانتصرت على حظها وظروفها وتزوجت من رجل محترم يستأهلها ويليق بها ـ مثلك أو من عينتك ـ فإن الأمور ستتوازن فى نفسيتى وأقتنع بأن الكلاب لن ينهشوا لحم مصر وإن أكلوا أموالها!

سأقتنع أن الثبات على المبدأ يؤتى بنتيجة طيبة! ستبقى حالتى النفسية بصحة جيدة وسأصبح من رعايا هند سليمان بعد أن كنت من رعاتها! . . أما ـ يا حلو ـ لو خيبت ظنى وفتحت فى بابها ولو ثقبا لإبليس اللعين يغريها بأن تختصر أيام الشقا والعزوبية وتعيش لها يومين حلوين فى ظل رجل كالحيطة من هذا الصنف أو ذاك! لو حدث هذا والعياذ بالله فسيكون الموت أهون علىّ من الشعور بالقهر والذل»! . .

«الشر بره وبعيد، أى نعم يا بيه ولكننى أقصد يعنى أن أصف لك حالى! . . هيه . . نأخذ العشرة الخامسة؟ . . براحتك! ليلتك فل إن شاء الله! . . أتيت لك بالعربة على ناصية الحارة لتمشى من بره بره وكفانى تعطيلاً لك ودوشة دماغ! بالسلامة يا بيه! لا تطل الغيبة وحياة أبوك!» .

٢٠

ثرثرة مصرية خطرة

. . «حماتك تحبك سعادتك! لا! . . حماتك مين سعادتك؟ أم جيجى تحبك أكثر من أى واحد فى الدنيا حتى لامؤاخذة أم سعادتك نفسها وسعادتك عارف لست محتاجًا لكلامى! . . طابخة كشرى مصراوى ماله من مثيل! أوصتنى بأن أسخن لك منابك بمجرد وصولك! . . أسخن؟ . . هيه . . أنتظر شوية؟ . . أنا تحت أمرك! ولو سمعت كلامى تأكل الآن فى حموتها والصلصة سخنة والتقلية فايحة! . . هيه! . . احسم الأمر . . خلاص . . براحتك . . وقتما تجوع أعطنى إشارة! . . الشاى على فكرة جاهز فوق ركية النار . . هيه . . أصب؟ . . الله الله الله . . شايف لون الشاى الأصلى؟ شايف الرغاوى؟ شام الريحة المنعشة؟ هذا هو الشاى الحقيقى من هدية المعلم عيد أبو القاسم تعبئة أجنبية لا تعرف الغش! أما ذلك الذى نغبُّه فى مصر فنشارة حديد على ملوخية على بلاوى سودة سعادتك! . . ذق واستطعم الشمخة! تكون جدعًا ابن حلال إن كان معك عدساية أفيون تليق بهذا الشاى المعتبر! . . معك؟ واضح أنك معك! ابن حلال سعادتك! . . هاتها . . تسلم يدك! نردها لك فى الأفراح! . . أما كان من الأفضل أن تأكل لك لقمة مادمت ستؤفين؟ . . خلاص أنت حر! . . خذ لك نفسين شيشة قرديحى لزوم التنفيض! . . آااه . .

وكمان جاى منفض جاهز؟ . . إنت جاى منين سعادتك؟ أكيد مررت على ورشة الأسطى حسين قشطة سويت الهوايل منك له صد رد»! . .

«شفت الأوتو ستراد؟ . . حاجة نظاكة فعلاً . . سيفتتحونه قريبًا سعادتك! سيدعون الصحفيين لحضور حفل الافتتاح مع الريس وهو يقص الشريط! . . طبعًا سيدعونك مع الصحفيين! وستجىء طبعًا غصبًا عن سعادتك! . . دعوة الرياسة لا أحد يقدر على الاعتذار عنها! . . والله إنه مشروع كبير ومفيد للبلد! سيختصر السكك والوقت يعنى من المطار إلى حلوان تأخذ لك نصف ساعة بدلاً من ساعتين ثلاثة! لكن بمنتهى الصراحة قلبى واجعنى سعادتك! . . فيها إيه لو أن شركة المقاولات بنت القحبة زحزحت الطريق لوراء منشية ناصر فى جبل المقطم الواسع؟! طب قل لى سعادتك! أنت رجل مثقف ومتنور وتقرأ فى الكتب أكثر مما تأكل وتشرب! . . هل سمعت أن من بين ألوف الجثث التى عجنها وابور الدك ودهنها الأسفلت رجال ونساء من عظماء التاريخ»؟! . .

«اسمع بس خليك معاى سعادتك! . . أنا حضرت اجتماع كبار الطربية أثناء المعمعة حضره جميع المعلمين من عينة المعلم عيد أبو القاسم! . . كل واحد معه كشوف وقوائم بعدد المقابر المسحوبة من عهدته لصالح الأوتوستراد! وأسماء المدفونين فيها مع نبذة وفذلكة عن تاريخ كل مدفون من الكبار الذين لا يجوز فى أى شرع أو قانون أن تزال مقابرهم تحت أى ظرف من الظروف! . . هذا كان كلامهم الذى سمعته بالحرف! كانت حوسة سعادتك! طول النهار جاء الورثة راح الورثة جاء المهندس راح المهندس! . . نسوان مش وش بهدلة يلطمن ويلغمطن وجوههن بالطين والتراب! . . عساكر الحكومة تجرجرهن

سحلا على الأرض ليوسعن الطريق للبلدوزر لكي يخلع جثث عيالهن وآبائهن وأمهاتهن من مراقدها الأبدية لأن طريقًا سيمر من هنا اسمه الأوتو ستراد! ! والله لو دفعوا لي مال قارون كي أتركهم يفعلون هذا في طربة أبي لن يشفي غليلي سوى التوليع في الحكومة كلها! ! كارثة سعادتك! . . سمعت أسماء لجثث كانت مقررة علينا في المدرسة غير أني نسيت ما كان من شأنها في الدروس! بعضها كان يجيء في كتب المطالعة وبعضها في حصص التاريخ! منهم من كان قائد جيش ومن قاوم الإنجليز أو الفرنسيس ومنهم من أقام الكباري على نهر النيل ومن بني المدن وشق المصارف وألف الأحزاب وكان رئيس وزراء و . . و . . ما تعدش! ربنا يتولاهم ويتولانا جميعًا بحق جاه النبي والإمام علي»! . .

«ولع سعادتك! على أقل من مهلك فالنار صاحية! . . شوية شاي حلوين كمان! ما يضرش! . . الله الله الله! . . الأفيونة دي متكلفة برواقة! بنت من هي يا ترى؟ من المعلم عيد؟ لأطبعا!الأفيونة التي مع المعلم عيد اليومين دول كباسة! تطلسم العين! . . الأفيونة دي يا سيدي يا سيدي أخذتها سعادتك من المعلم صابر حمؤه! صح! ! عيب يا أستاذ! يا سلام عليك يا واد يا أسعد ياللي بيسموك الدهل وأنت أبو المفهومية كلها»! . .

«إلا بالمناسبة سعادتك! عندك فكرة عن صابر حمؤه! تعرفه سعادتك طبعًا! . . أكيد عندك فكرة عن نشاطه! . . نعم؟ إه؟ لا! لا! هذا كان زمااان . . إ . . إ . . لم يعد صبيًا لأحد سعادتك! إنه اليوم عقبال أملتك من أكابر المعلمين! . . أمال يا بيه! تعرف سعادتك أني أعرف هذا الرجل الداهية منذ متى؟ من أيام ما كان يمسح سيارة معلمه

مهرب الأفيون الشهير الذى تعرفه سعادتك ويعرفه جميع الناس حتى الحكومة وتعاهده على أن يفوت لها ضبطية ويفوت لنفسه مائة صفقة على حسها! . . زفت الطين صابر حمؤه كان مناديا للسيارات فى ميدان المشهد الحسينى قبل سنجق الموجود حاليًا! وكان يعرف أن شنطة المرسيدس بتاع المعلم ملآنة بأقماع الأفيون المكفنة بقماش الكتان ويتستر عليها فالتقطه المعلم ورباه على مزاجه، دربه على التهريب فى الطائرات والمراكب والقطارات والتاكسيات وعلى كل الطرق! ! الولد طول عمره صايع ابن صايعة سعادتك! شرب المهنة وتعلم من كثرة السفر ما لا يعرفه معلمه! ولد ملحلح! فهلوى سعادتك! يلعب بالبيض والحجر! يأخذك فى كلمة فى حدوتة فى سيجارتين فى كاس ويسكى فى حركة جدعنة بعدخمس دقايق يبقى صديقك تحبه تتمنى أن تقدم له خدمة! لكن ابن الهرمة لا يطلب منك الخدمة أبدًا! هو ليس عبيطا مثلنا! ابن القحبة بموهبته يأخذ منك الخدمة من غير ما تعرف أنت أنك خدمته! أحيانًا تكون الخدمة مجرد أن يراه ناس معينون جالسًا بجوارك أو داخلاً معك إلى مكان مهم بالنسبة له! أو يتركك حارسًا على حقائبه الملغمة بالمصايب إلى أن يقضى حاجته فى دورة المياه وهو فى الحقيقة يزوغ من شرطة تطارده أو عصابة تتعقبه»! . .

«يا ما استكردنى صابر حمؤه هذا سعادتك! . . أيامها كنت غشيما ومدمنا صغيراً تنط عينى على بوستة أفيون فإذا به - لكى يشدنى - يعطينى جواليص تملأ قبضتى! . . من غشوميتى وخيبتى كنت أفرقها على صحابى! فاشتهرت بأنى أفرق الأفيون! فقلت شهرة بشهرة أبيعه وأستفيد! صرت أبيع فى السر لزملائى فى مصلحة الاستعلامات التى أصبحت الآن هيئة! أبيع لعمال الجراج والسعاة وبعض موظفى الإدارة وبعض المحررين والمترجمين! ولكن بصنعة لطافة سعادتك! أجعلهم

يفهمون أننى أختلط بالبائعين بحكم جيرتى لهم فى المساكن وأننى مجرد وسيط يؤدى خدمة لزملائه»! . .

«أقول لك ماذا كانت مهمتى فى مصلحة الاستعلامات! كانت مهمتى توزيع مظاريف كبيرة فيها مطبوعات سرية من المصلحة أطوف بها على رؤساء تحرير الجرانين ومكاتب ناس مهمين فى الدولة لأسلمها لهم يدًا بيد! معى موتوسيكل المصلحة أبو مقعد مثل القارب ملتصق به وله سائق! أنا والمظاريف نقعد فى هذا القارب والسائق يلف بنا على جميع العناوين! حاجة مملة سعادتك! دماغى ليس يفيق لمثل هذا العمل الخنفشارى! لقد أصبح سائق الموتوسيكل يفهمنى كأنه أنا وأفهمه كأننى هو! . . هيه يا اسطى علوانى؟ هكذا أسأله بمجرد خروجنا من الجراج! يقول لى: ع البركة يابو السعود! . . اطلع بنا على الإمام الشافعى! فى أقرب دكان بقالة أو مقلة لب فى جوار السيدة عيشة نبيع هذا الحمل الثقيل من الورق: مجلات ونشرات وجرانين صغيرة وكتب طويلة ليقرطسها المحل يبيع فيها الطلبات! . . بثمنها نشترى شايا وسكرًا وسجائر وساندوتشات! أعطيه سنة الأفيون نشرب حجرين على الطاير يروح لحال سبيله وأشوف شغلى مع صابر حمؤة! . . عن طريق الأسطى علوانى أصبحت أرشو جميع الإداريين بالحشيش والأفيون! ومن هنا فإن جميع ما كان يصدر ضدى من قرارات بعقوبات وخصومات لم ينفذ منها قرار واحد سعادتك بفضل خدماتى سعادتك! . . أحبابى كثيرون لعلم سعادتك إلى اليوم! . . الأشيا كانت معدن وفل الفل! مكاسب مضاعفة تجىء! رزق البنات الثلاث وأمهن»! . .

«وفى ليلة حبر مثل الكوبيا قفشنى الضابط! و. . لا أعرف

يا أستاذنا ماذا فى شكلى يجعل الضباط والمخبرين يتجرأون على!!
تعمى عيونهم عن ألف لص ونشال ونصاب وتاجر سموم وسناكيح
يتلقحون على المقاهى ويعربدون فى الشوارع والأتوبيسات والحدائق
فيتركونهم كلهم وتنفتح أعينهم على وحدى دون بقية خلق الله و . .
تعالى! بتشتغل ايه؟ بطاقتك؟ إلخ إلخ إلخ! . . شكلى فيه حاجة
سعادتك؟! مهما لبست من هدوم نظيفة وطويت جرنانا تحت إبطى مثل
المثقفين! كل أنواع الملابس جربت لبسها من الجلابية على القميص
والبنطلون والبلوفر والبدلة أم كرافتة! وكل لبس أجربه يحرضهم على
الإمساك بى للتحرى! حاجة عجيبة سعادتك! كلما فكرت فيها
أضحك! وأنظر فى مرآة الدولاب فلا أجد فى شكلى وملامحى أى
شىء شاذ يغريهم بى! أتكون هى أسنانى الكبيرة سعادتك؟ أم الطيبة
التى على وجهى؟ . . ما علينا! هجمت الكبسة على قهوة أبو ياسر!
طرمخ الضابط على ناس محترمين كانوا يحششون جوه وبره! نشن
على وحدى! فتشنى فى كل مكان حتى الحذاء أرغمنى على خلعه
ودلقه على وجهه فوق الأرض! قبض على محفظتى سعادتك! فتشها
جيبا جيبا! أخرج منها بوستة أفيون كنت أدخرها لوقت زنقة! . .
شحنونى على القسم وفين يوجعك! كل داخل أو خارج يلطش
فى! . . حجزونى فى التخشيبة ثلاثة أيام فى انتظار عرضى على النيابة!
كان فى محفظتى عشرة جنيهات خبأتها من أم جيجى لأشبرق بها
نفسى! دفعتها كلها! . . كلها والله سعادتك! أخذها مخبر صايع
وصدغ أجارك الله من غتاتته وشروره فى مقابل أن يذهب إلى أم
جيجى فى بيت قريبها الجزار ليبلغها خبرى حتى تعرف وضعى! . .
بسلامته استقرب المسافة وفات على الجزار نفسه فى المحل ـ لئيم ابن
وسخة يبحث عن صفقة إضافية ـ قال له الخبر بالتفصيل! . . الرجل ـ

كتر خيره - لف له قطعة من اللحم الريش وشكره! . . في المساء لحق بي الجزار قبل عرضي على النيابة! رجل كبارة وله خاطر ويخشى الكثيرون بأسه ويقدرون كرمه وحسن سمعته ! سوى المسألة وخرج بي من قسم الشرطة بلا نيابة ولا دياولو! . . من شدة كسوفي من الرجل ومن بناتي قلت ملعون أبو صابر حمؤه والذي يجيء من ورائه! نار الحياة ولا جنة صابر حمؤه! أما الأفيونة فإن جاءت من باب الله من غير وجع دماغ أهلا وسهلاً وإن لم تجيء عنها ما جاءت على الصرمة القديمة هي ومزاجي»! . .

«بسلامته . . صابر حمؤه . . جاء اليوم يغريني بفلوس كبيرة وسفريات إلى جميع أنحاء العالم! أسلم وأستلم أمانات صغيرة يمكن تخبئتها بسهولة! . . قلت له يا راجل يا طيب إذا كانت شرطة بلدي تشتبه في لله في لله فماذا يكون الأمر في شرطة العالم وهي الجهنمية والأذكى؟! قال: لا تخف! ستكون محروسًا بناس من وراء ظهرك يظهرون لك في الوقت المناسب يفوتونك من المسالك الصعبة ولن يتركوك صيدًا سهلاً لأي بوليس أو حتى عصابات المافيا بذاتها لأنهم أشد حرصًا منك على حياتك وعلى ما معك من كنوز يعني ستكون في الأمان بالصلاة على النبي! ثم عاد وقال إنني أصلح واحد في الدنيا للشغل معهم في هذه المهمة بالخصوص! . . شوف السرح وفنونه سعادتك! ! لماذا هذا ياسي حمؤه؟! لأن شكلك - شكلي أنا سعادتك - طيب عبيط على نياته وليس يخطر على بال من يراه أنه يمكن أن يشتغل في مهنة لا يسلك فيها إلا الأذكياء ذوو المظاهر المحترمة! العكس - يقول لي سعادتك - هو الصحيح في هذه الشغلة يعني أن الشرطة المحلية الصغيرة يجوز لها أن تنتبه لشكلي ومظهري وشعري المنعكش وأسناني الكبيرة وشكلي العبيط فيمسكونني للتحري إذ ربما أكون

حرامى غسيل أو نشال أتوبيسات أو بالقليل تسول! . . تلك هى حدود الاشتباه بالنسبة لى سعادتك! ! أما أن يشتبه فى البوليس الدولى باعتبارى مهربًا دوليًا للهيروين والكوكايين وما شابه، فهذا فى نظر صابر حموه من رابع المستحيلات! ! وبناء عليه فإننى يجب أن أتكل على الله من دون تردد حتى على سبيل التجريب فى سفريتين ثلاثة مع العلم بأننى فى السفرية الأولى أكون جاهزًا لشراء شقة سوبر لوكس فى مدينة المهندسين! وفى السفرية الثانية أكون جاهزًا لشراء سيارة ملاكى لا يقل مستواها عن البيجو! فلو خطفت رجلى فى سفرية ثالثة يكون معى رأسمال يكفى لإنشاء مشروع تجارى يؤكلنى وعيالى الشهد والبغاشة! . . فتخيل سعادتك لو أن الله وفقنى فى السفرية العاشرة أو العشرين؟! يعنى كان زمانى الآن يشتغل عندى ناس من وش القفص يعنى ناس نقاوة»! ! . .

«شوف الرجل الفاجر ابن بائعة الترمس والحلبة أمام جامع اصلان فى حى النبوية مع أنها كانت الشهادة لله أجدع منه ومن الذين خلفوه: رفضت أن تعيش عيشته، بقيت بارشة على الأرض أمام طبلية السبوبة إلى أن ماتت! . . كان بسلامته يفوت من الحارة الضيقة بالسيارة المرسيدس الخنزيرة فى أول مطلوعها فى مصر مع أن الحارة مقفولة بزحام يمنعها من الحركة! وياما سقط أطفال وبنات من الأدوار الفوقانية ونجوا من التحطيم لأنهم وقعوا فوق لحم بشرى حى يملأ الحارة! . . تصور أنه يفوت فيها بالمرسيدس الخنزيرة العريضة كما تفوت الشعرة من العجين؟ وعلى كل من فى الحارة أن يعمل حسابها قبل خطوات من وصولها! . . عند جامع أصلان يتلكأ أمام طبلية الترمس والحلبة ـ والحارة مش ناقصة عطلة سعادتك ـ ويعيد فتح الموضوع مع أمه بصوت عال! يتكرر نفس المشهد المعروف للجميع: هو يهددها بالضرب بالنار

إن لم تكسر صلابة مخها وتقوم معه إلى بيته تتنغنغ فى عزه! وهى رأسها وألف برطوشة أن لا تغادر هذه العتبة المباركة وهذه العيشة الهنية الراضية! ! يتطور الزعيق إلى سباب: أصلك مرة بنت شرموطة وش فقر ونكد، فترد عليه بانفعال صارخ محاذرة أن ينط طقم الأسنان من حنكها فيسمع الجميع صوت اصطكاك الفكين ببعضهما وهى تبصق بعنف على باب سيارته تحت ساعده البارز من نافذة السيارة: يلا يا فيل يا بوزلومة يا معفن! فما تكاد السيارة تزحف عنها خطوتين حتى تصيح فى أعقابها: إنت شخة أنا شخيتها ع الكوم ونسيتها.. شوف الزمن سعادتك»! !..

«الذى يكيدنى سعادتك! أن الحكومة تصدق أنه تاب عن التهريب وماتت شقاوته وانهد حيله عن السفريات والمخاطر! وأنه يعيش الآن من رصيد مغسول فى البنك الكبير بالدولارات ومن بعض عقارات وصالات لبيع السيارات!.. والله أنا غلب حمارى سعادتك!.. أصله موهوب يقدر على إقناعك بكل ما يريد! من يراه فى العصارى فى ورشة الأسطى حسين قشطة يكرع الويسكى ويمزمز بحجرين يقتنع أن الرجل استقام فعلا وهداه الله ونفخ فى جبينه زبيبة صلاة لا أحد يدرى كيف كبرت هكذا فى زمن قليل لتصير كالتينة! حتى وإن كانت زجاجة الويسكى مخبأة تحت ساقيه فإن الجلباب الأبيض الهفهاف الذى يغطيها! مع خمسات وعشرات الجنيهات التى لا تكف عن الطيران من يده التخينة الملظلظة إلى أيدى ناس لمجرد أنهم قالوا له: سا الخير يا معلم أو أتوا له بكوب ماء! كل ذلك يخدر العيون فلا تنتبه إلى الزجاجة وإن انتبهت تغاضت بمزاجها عن طيب خاطر!.. ولكن هل الحكومة غبية سعادتك؟! أم أنها واكلاها بمزاجها هى الأخرى وبالتالى تكون يده التخينة قد طالتها»؟!..

«خل بال سعادتك! أنا متأكد أن الحكومة ليست عبيطة كما يتصور المغفلون من أمثالنا سعادتك! لا! الحكومة على علم بأنه فعلا توقف عن الاستيراد واشتغل فى التصدير ولهذا كان يريد أن يضمنى إلى صبيانه! . . صابر حمؤه أصبح يقوم بتصنيع البودرة سعادتك! . . بحلق فى وجهى كما يحلو لك ولكن صدقنى سعادتك! . . صابر حمؤه عنده مصنع لاستخلاص الهيروين والكوكايين من شجرة الخشخاش التى تطرح زهرة الأفيون ويقوم هو بزراعة أفدنة منها فى سيناء والوادى الجديد والصعيد! . . اضحك أيضًا كما تشاء ولكن هى على فكرة ليست عقدة على ابن حرام كصابر حمؤه كان دائم السفر إلى بلد اسمها كولومبيا يقولون إنها من أمريكا اللاتينية وزار المصانع وتعاقد مع أصحابها على صفقات كبيرة ينشرها فى العالم العربى وقد لقط سر الصنعة ونفذه هنا فى مصر»! ! . .

«إيش عرفنى؟ أنا مش عارف سعادتك! لكن! أنا متأكد! نعم! عنده عمال وصنايعية أعرفهم»! . .

«تحب أن أقول لك سرًا ثانيًا؟ . . صابر حمؤه ينصب شبكته حول هذه التى يقولون إنها صاحبتك مدام هند سليمان»!

«أنا شفته بعينى! كان منزويًا فى ممر الأحواش بعد ورشة الأسطى حسين قشطة بحوالى خمس ممرات! عربته المرسيدس الشبح مختبئة فى ظل الحوش الكبير العالى! وهو كالفيل فاتح باب السيارة مدلدل قدميه فى الأرض يجرع ملء حنكه من زجاجة الدمبل ثم يغلقها ويسربها تحت كرسيه ويدخن بشراهة ويرمى السيجارة قبل احتراق نصفها ولابد أن يشعل الجديدة بالولاعة الذهب! واضح أنه كان فى حالة انتظار مربكة! . . كنت بالصدفة مارًا من هناك ذاهبا إلى سيدنا الحسين أشترى حجارة وسلاكة للشيشة! خرمت عليه كالدهل سلمت عليه فلاحظت

أنه اغتاظ مني وكاد ينكر معرفتي! . . لسوء حظه جاء الواد بلية صبي الأسطى حسين قشطة يحمل بين يديه مجموعة من الشنط البلاستك ووجهه منفوخ محمر والدموع ستفر من عينيه! انقلب وجه صابر وكاد يدفعني بذراعه لأحل عنه! لكن الواد بلية كان أسرع! سلمه الشنط وشفتاه ترتعشان يحزقه البكاء! . . لمحت في الشنط ملابس حريمي داخلية بألوان شفتشي وزجاجات عطر وشنطة يد حريمي بحذاء من جنسها مع جوارب وسوتيانات! . . نظر صابر للواد بلية في غيظ! أوشك أن يمسكه من زمارة رقبته ويأكلها! صار يبرطم: يا غبي يا ابن ديك الكلب رجعت بيهم ليه؟! . . بكى الواد بلية وهو يفتح باب السيارة ويرمي الشنط على الكنبة ويقول: هي اللي ضربتني ورمتهم في الشارع ولعنت أبويا وأبو اللي باعتني والأسطى اللي مشغلني . . ومشى الولد يمسح دموعه بكمه! . . وجدتها فرصة للنقورة عليه لسوء معاملته لي! غطيته بنظرة احتقار وقلت على سبيل التشفي: يا خسارة المراسيل . . وجريت وهو يبحث حواليه عن طوبة يرميني بها! . . أصله عيل سعادتك»! . .

«هه؟! إيه؟ نعم؟؟ . . إ . . إ . . ل . . حاضر سعادتك! لا لا حضرتك معندكش فكرة عني في مسألة حفظ الأسرار . . لا أحد في الدنيا يحفظ الأسرار مثلي»! ! . .

«هذا بيني وبين سعادتك فحسب! فضفضة يعني! . . أنا لقيتك متكاسلاً عن القراءة والكتابة! توقعت أن يكون الأسطى حسين قشطة طلسم دماغك بتعميرة خشنة خبيثة قلت فلأتكلم! فرصة أشغل فيها نفسي وأفرفشك! وفي نفس الوقت أعرض عليك بعض أخبار الزمان لعلها تكون مفيدة لك في شيء! . . إرمها في الزبالة وريح دماغك كأني ما قلت شيئًا! مساء الفل! . . ولع سعادتك»! . .

٢١
وأودعتنى شرفها أمانة

كان الرئيس قد افتتح طريق الأوتوستراد وانصرف موكبه إلى مصر الجديدة؛ وكنا، المعلم عيد أبو القاسم وأبو ميمى والحاج حسين الوراق والأسطى حسين قشطة وصابر حمؤه وأسعد الدهل وأنا، نقف على رصيف الطريق الجديد ومن خلفنا مباشرة حديقة حوش الأسرة الخديوية العلوية؛ صرنا نتحسر على ما أسماها المعلم عيد بسيدة الحدائق فى مصر كلها، كانت تحيط بالحوش المهيب قبل أن يعتدى عليها طريق الأوتوستراد فيسخطها إلى هذا المنظر البائس المحزن وهى التى كانت متعة للناظرين، لم يكن يزورها إلا ناس من طبقة الملوك والرؤساء والسفراء، من يدخلها يمشى على ممر طوله عدة كيلو مترات تحيط به الأشجار بكثافة، معظمها من الأشجار التى كرم القرآن الكريم ثمرها كالتين والزيتون وخلافه من ذوات القطوف الدانية وأحواض الزهور والورود العطرية ينسى الواحد نفسه فيها، يتوهم أنه صار من أهل الجنة . . من بعيد يقترب مبنى المدفن تحت كثافة الشجر والخضرة المبرقشة بألوان مبهجة. الحوش من الطراز الذى شاع فى العصور المملوكية فى مبانى الأسبلة والتكايا والمساجد أضيفت إليه ملامح مصرية كأعمدة على شكل زهرة اللوتس. . مدخل الحوش مهيب مرتفع عن الأرض بدرجات رخامية كثيرة ترفعك إلى بوابة ضخمة،

تقودك إلى صالونات وأنتربهات مفتوحة على ردهة مفروشة بأرقى ما فى العالم من أبسطة بمختلف الأحجام، أصغر قطعة ـ متر فى نصف متر مثلاً ـ يصل ثمنها إلى مئات الألوف من الدولارات؛ ناهيك عن التحف الثمينة من فازات وأيقونات وتماثيل لأعلام الأسرة العلوية ولوحات زيتية لكبار مصورى العالم فى القرنين الثامن والتاسع عشر؛ أحد هذه الصالونات كان مجهزًا خصيصًا لاستقبال الامبراطورة أوجينى يوم جاءت إلى مصر فى حفل افتتاح قناة السويس أو لعله افتتاح دار الأوبرا ثم جئ به إلى هنا. ولأن الكسوة الشريفة للكعبة المشرفة كانت تصنع فى مصر على نفقتها وتسافر كل عام مع المحمل بصحبة أمير الحج فى موكب هائل يضم جميع خيرات مصر وتبرعات أهلها وأمرائها لفقراء مكة؛ فإن أمير الحج مكلف بإلباس الكعبة كسوتها الجديدة والإتيان بالكسوة القديمة معه وهو عائد، فتوضع فى هذا الحوش فى مخزن كان متحفًا وحولوه الآن إلى مخزن للكراكيب. فى العمق الداخلى حجرة الدفن وهى تحفة فنية عبارة عن تحويطة من الرخام الشفاف على دائرة مفرغة، إذا نظرت فى قلبها ترى عبر سقف زجاجى فسقية الدفن بعدة شواهد رخامية محفور عليها أسماء الراقدين تحتها..

كان المعلم عيد أبو القاسم يروى هذه المعلومات المصورة بكثير من الحماسة وبلهجة رثاء أليم.

فجأة وعلى غير توقع لاحظت أن صابر حمؤه قد اعتراه ارتباك شديد، قال: عن إذنكم، وصافحنا على الهواء من وراء كتفيه المتختختين فيما يهرول فى اتجاه كوبرى منشية ناصر الذى كان العمل لا يزال جاريًا فى تشطيباته النهائية. طريقته فى الانصراف العاجل هكذا

لفتت أنظارنا جميعًا سيما أنه منذ قليل قرر أن يعزمنا جميعًا على الغداء في منتجع البسملة والحمدله وقضاء عصرية رائقة. تابعناه بدهشة، وجدناه يتجه نحو سيدة فارعة القوام لا نرى منها إلا ظهرها المشدود المفلوق تحت البلوزة الشفافة إلى ضفتين شامختين راسختين فوق ربوة عالية، وجانبا من وجهها، تقف بجوار الباب الأيمن لسيارة ميكروباس عليها شارة واسم الهلال الأحمر، وأمام الميكروباس ميكروباس آخر بنفس الحجم مكتوب عليه: وكالة أنباء الشرق الأوسط؛ كانت السيدة مندمجة في الحديث مع رهط من الرجال والنساء، حديثًا تبدو فيه روح الزمالة الودودة المتفاهمة؛ كانوا على الأرجح يتبادلون المعلومات ويشيرون لبعضهم بأذرعهم وأيديهم إلى اتجاهات وأبنيات. أخيرًا وصل الفيل الضخم صابر حموؤه إليهم، ووقف معهم يتحدث بلزوجته المقتحمة؛ انسحبت هذه السيدة في هدوء ورصانة وبشكل تلقائي حيث الجميع برفع ذراعها ثم استدارت عائدة في اتجاهنا بمشية عسكرية رشيقة واثقة؛ تبين لنا أنها مدام هند سليمان؛ داهمنا الارتباك صرنا كأطفال مذنبين منبوذين قد نكسنا رءوسنا في الأرض في حرج، كأن كل واحد منا يحاول أن ينفي عن نفسه - للآخرين - لهفته الشديدة عليها وسروره الطاغي بمرآها. أقبلت علينا كرجل ابن بلد التقى أبناء حارته في مكان بعيد:

- «مساء الخير يا رجالة»!

أجزم أنهم جميعًا قد عراهم ما عراني من لذة جنسية فائقة لمجرد أن صوتها الأنثوي الصريح الأنوثة كالشمس قد وصفنا بالرجالة، كأننا لم نكن من قبل رجالا بدون هذه الشهادة..

يا لجرأتها وتماسكها وقوة شخصيتها؛ يخرب بيتك، ها هي ذي

تقتحمنا في وقفتنا، تصافحنا يداً بيد، واحداً بعد الآخر، مصافحة توقف السفيه عند جده، أصابعها الطويلة كإبرة التريكو قوية تطبق على قبضة الرجل تفعصها دون أن تقصد ثم تتركها خرقة متجعدة مترهلة؛ هبطت عن الرصيف كراقصة باليه تطير فى خفة الفراشة، غادرتنا؛ بعد خطوات طويلة توقفت معطية وجهها لمنشية ناصر ممسكة بحمالة حقيبتها المعلقة فى كتفها. تبادلنا نظرة اندهاش من وقفتها؛ قال أبو ميمى فى لهجة ذات معنى:

ـ «يظهر إنها عايزة الأستاذ يروح يكلمها»!

قال المعلم عيد:

ـ «احتمال فعلا تكون عايزة حد يساعدها فى حاجة»!

قال الحاج حسين الوراق:

ـ «وماله! واجب يشوفها عايزة إيه»!

قال الأسطى حسين قشطة كأنه يريد إسكاتهم:

ـ «لو عايزة حاجة كانت قالت! . . دى ما بيهمهاش»!

وقفتها طالت قليلاً، تصورت أنها ربما تكون بالفعل فى ورطة من نوع ما تخجل من عرضها علينا. استأذنتهم وتقدمت منها فى وجل:

ـ «فيه حاجة يا مدام هند؟ أى خدمة»؟

ابتسمت فى دماثة وامتنان:

ـ «شكرًا أستاذ أدهم! أنا منتظرة واحدة صاحبتى! لكن عملت خير إنك جيت! . . ممكن أشوف حضرتك يوم الخميس الجاى فى جروبى برضه»؟

- «ممكن طبعًا! لكن إشمعنى الخميس عندك»؟!

- «أظن قلت لك إنه يوم أجازتى»!

- «ممكن طبعًا! سأنتظرك»!

- «بيضت القصة فى كشكول جديد! سأعطيها لك وأمرى إلى الله»!

وإذا بالسيارة الداتسون التى سبق أن وصفها لى الأسطى حسين قشطة تزحف نحونا ثم تتوقف. كانت الفنانة القديمة هى التى تقودها واضعة على عينيها تلك النظارة السوداء ذات الإطار المبطط العريض الآكل نصف وجهها بحيث يستحيل على من يراها أن يعرف أنها النجمة الشعبية أسطورة عصرها. حيتنى بهزة رأس وابتسامة. صافحتنى مدام هند، سارعت بفتح الباب لها، ركبت بجوار صديقتها؛ انطلقت بهما السيارة حتى دخلت فى الوصلة الموصلة إلى صلاح سالم..

تجمد الصحاب فى وقفتهم شابكين أيديهم خلف ظهورهم يحملقون فى وجهى بنظرة بلهاء ملآنة بعكارات من الحسد والغبطة والانبهار والغيرة الطفولية؛ توقفت بدورى متجمدًا أقلدهم فى الحملقة بحركة مسرحية؛ انفجروا ضاحكين؛ مشينا خلف المعلم عيد متجهين إلى البستان فيما كان أسعد الدهل يهرول أمامنا يسبقنا لكى يوسع السكة ويكون فى استقبالنا..

فى تلك العصرية أغرقونى فى بحر من التودد بصورة فجة أزعجتنى كادت تكتم أنفاسى. كان الوله بمدام هند سليمان بنفس عن نفسه فى سلوكهم معى حتى أصابنى من ذلك رعب مريع لدرجة أنى خشيت أن

يتطور الوجد بهم فأتحول فى أنظارهم إلى مدام هند سليمان. اعترانى القلق طوال السهرة؛ رفضت الحديث عنها بشكل قاطع! هددت بالرحيل وبالقطيعة نهائيًا إذا أتى لى أحدهم بسيرتها من قريب أو من بعيد. يبدو أنهم لمسوا حرارة غضبتى وصدق نيتى فى التهديد، فكفوا تمامًا عن ذكرها أمامى بعد ذلك. ثم دار بخلدى ليلتها أن أبتر علاقتى بها عند هذا الحد إن كنت أنوى الاستمرار فى تجربتى فى هذه المنطقة مع هؤلاء الناس؛ يكفى أن أمتنع عن الذهاب إليها يوم الخميس القادم لتعرف أننى قد سئمتها أو تخوفت منها فينتهى الأمر. ولكن هيهات؛ يوم الخميس بكرت كالعادة فى الذهاب إلى حديقة جروبى عدلى، بل وكنت مفعمًا بفيض من مشاعر طازجة غاية فى اللذاذة والأريحية والمرح..

عجبت من أمر هذه السيدة ذات الجاذبية الطاغية وكيف تترك جاذبيتها هكذا منطلقة حرة وفى نفس الوقت تحيطها بسياج سلوكى محترم وقاهر لرغبات المتطفلين والأدنياء من ذئاب البشر..

فى الموعد المحدد بالدقيقة رأيتها تخطر مقبلة من باب الحديقة. صافحتنى باشتياق حقيقى يليق بلهفة استقبالى لها؛ جلست، لم تكن رسمية تمامًا؛ إنما ينبعث منها إشعاع يتشخص فى بسمات وإيماءات ونظرات أشعر من خلالها أنها تضعنى فى مرتبة متميزة شديدة الخصوصية؛ تأمن ليدى بأن تحتضن يدها لبرهة طويلة تستسلم فيها اليد لليد فى استكانة دافئة حميمة، لا تجفل ولا ترتبك إن لامس فخذى فخذها عفوا، لا تتحرج من أن تميل نحوى بصدرها كله فى حركة إنصات لما أقول حين يرتفع ضجيج الزبائن، فأشم رائحة مريحة جدًا، لعلها رائحة النظافة الداخلية لنفس شريفة صافية تخلو تمامًا من شوائب

الالتواء واللوع وعقدة الجمال ومرض افتراض سوء النية فيمن يقترب منها من الرجال؛ أشعر أن الضوء المنبعث من صدرها من البرزخ الفاصل بين الثديين النائمين في وداعة كفردتي حمام ليس انعكاسًا للمعان بشرة جسدها الوردي، إنما هو انعكاس لما في قلبها من ضوء. . كانت قليلة الكلام هذه المرة؛ من الواضح أن ذهنها كان مشغولاً بأمور تبدو أكبر مما أظن وأتصور؛ ثمة ما يوعز لي بأن هذه السيدة تنتمي إلى نوعية فريدة من المثقفين الأدباء حتى وإن كانت في الظاهر مهمومة بنفي هذا عن نفسها. .

سلمتني مظروفًا يحتوي على كراسة من كراريس محاضرات الجامعة. قالت في خجل احمر منه وجهها:

- «إن شفت حضرتك أنها تستحق الاهتمام أو التعليق فإني سأكون شاكرة لو تكرمت عليّ بكتابة ملاحظاتك في نفس الكراسة حتى أستفيد منها! أما إن شفت أنها لعب عيال أو تخريفة من شغل الهواة، فلا تزعج نفسك بقراءتها ولكن ردها إليّ! . . إنها ربما كانت ساذجة التعبير لكنني أعتز بما فيها اعتزازي بشرفي! ففي هذه القصة شرفي! ثيابي الداخلية! أودعه أمانة عندك وأنا واثقة أنك ستوليه عنايتك وترده لي مصانا حتى وإن تصادف ألا يعجبك محتواه لسبب من الأسباب! . . ؟ لست متوكدة على فنون التعبير الأدبي. . لعلني أريد أن أقول باختصار: ما يهمني في هذه القصة ليس الحرفة بل موضوعها هو الذي يخصني سجلته بأمانة وصدق وعناء! هل أنا واضحة»؟

-«تمام الوضوح! بل لست في حاجة إلى قول ما قلت»!

ووضعت المظروف داخل حافظتي. .

ـ «إلى اللقاء إذن؟ سوف نتهاتف»!

سارت بجانبى إلى الشارع. فوجئت بالسيارة الداتسون راكنة وحدها على الرصيف المقابل. صافحتنى واتجهت إليها، واصلت أنا إلى حيث أركن سيارتى أمام نقابة الصحفيين فى شارع ثروت. كنت من فرط اشتياقى لقراءة الكراس أكاد أتصفحه خلال سيرى على رصيف الشارع المتلاطم بكتل من المخلوقات البشرية الضالة الفاقدة الرشد كالمحمومة تبحث عن ملاذ من نار جهنم القاهرة.

المثير لدهشتى من نفسى أننى برغم ما كان عندى من شغف عظيم لقراءة ما كتبته مدام هند سليمان فوجئت عند وصولى إلى بيتى فرحًا بالكراسة بأننى غير متحمس للقراءة. كنت لا أزال أتعشم فى قضاء سهرة حافلة بالمعلومات والاستنتاجات التى قد تساعدنى على فهم دقيق لشخصية هند سليمان لا سيما بعد إشارتها الذكية الموحية بأن هذه الكراسة تحتوى على شرفها؛ ثمة ما يشبه الاتصال العاطفى الحميم يربطنى بالكراسة كأننى على موعد مع حبيب يحلو لى أن أتدلل على وصاله بعد إذ بات الوصال ممكنا!.. وقد أويت إلى فراشى تلك الليلة دون أن أفتح الكراسة أو حتى أخرجها من حافظة أوراقى؛ تبين لى وأنا بين النوم واليقظة أن هذه الكراسة الراقدة فى حافظتى تكاد تكون معادلاً لصندوق البخت الذى كنا نشتريه فى طفولتنا وكان توقعنا لما قد يكون فيه ألذ وأمتع مما نجده فيه حتى وإن كان شيئًا ثمينًا، بل كنا ندمن شراء علبة البخت من أجل أن نمارس لعبة التوقع، ومدمن هذه اللعبة يحلو له تأجيل فتح العلبة لبعض الوقت حتى يشبع رغبته فى التوقع والتخيل والتأمل..

وهى تضع أمامى طعام الغداء فى يوم الجمعة ـ اليوم الوحيد الذى

أتغدى فيه فى بيتى - فاجأتنى زوجى بأن سعدية بنت خالى كلمتها اليوم فى التليفون؛ ثم سكتت؛ فكأنها أعطتنى فرصة لأن أتذكر شيئًا شديد الأهمية: كنت أنوى الاتصال بسعدية منذ أن أثارنى اكتشاف صداقتها لمدام هند سليمان إلا أننى كنت دائمًا أنسى كعادتنا دائمًا فى إغفال أقرب الأسباب ومألوف الأشياء.. توقفت عن الأكل منتبهًا فى انتظار ما ستقوله زوجى من خبر عن سعدية؛ فلما تباطأت فى ذكر الخبر توقعت أن تكون سعدية قد عرضت عليها أمرا ما ويحتاج لموافقتى، ومادامت تتردد هكذا فى ذكره فلابد إذن أنه أمر سيحتاج لمفاوضات على نار هادئة؛ عندئذ كنت على أتم استعداد للترخيب بأى كلام يتعلق بسعدية؛ وهكذا هتفت فى لهجة لينة تشى بأننى لن أمانع فى شىء:

- «سعدية قالت شيئًا؟ هى بخير؟».

لطمأنتى تبسمت:

- «تعزمنا على حفل عيد ميلاد بنتها الكبرى! وأنت تعرف أنها لا تتأخر عنا إذا عزمناها!.. كما أنها تودنا أكثر مما تودها أنت وهى بنت خالك!.. بصراحة أنا لى غرض فى أن آخذ العيال ونشترى لها كام هدية ونروح لها! بصراحة أنا مكسوفة منها ومن الدكتور مشهور»!

- «خلاص خلاص يا ستى! وأنا معكم! انزلى الآن واشترى لكل واحد منا هدية لطيفة مع استعمال الرأفة فى الأثمان»!

أجمل ما فى شقة سعدية بلكونتها الواسعة المفتوحة على ثلاث جهات فكأنها ثلاث غرف مختلفة الأجواء. امتلأت الشقة - المحتشدة أصلا بأثاث كلاسيكى ثقيل - بعدد كبير من عائلات الأصدقاء؛ أحدثوا

لغطا هائلاً؛ ضجة الأطفال وحدها تزلزل الأعصاب. فوجئت بأم سعدية ـ امرأة خالى ـ موجودة، وبأخيها شيخ البلد وزوجه وعياله. بعد أن تم التعارف بينى والحضور، وقطعنا التورتة وقدمنا الهدايا، وانهمك الدكتور مشهور وسعدية فى حوارات مهنية ثقيلة الوطأة جداً؛ حملت كأس البيرة وهججت على البلكونة فى ركنها البحرى، تخيرت كرسيًا من الطراز الأسيوطى ذى الشلت المربعة المريحة لصق سور البلكونة، لفحنى الهواء الحلوانى الحريرى الناعم، تباعدت مناقشات الدكاترة وانضغمت فى ضجة غنائية راقصة غوغائية، مسنى جو ذو نفس فرعونى حميم. . إن هى إلا دقائق وظهرت سعدية الجميلة قادمة من الصالة تحمل صينية صغيرة عليها زجاجة ويسكى مبططة على ثلاثة أضلاع وفيها ما ارتفاعه خمسة سنتيمترات تقريبًا، مع كأس طويل وجردل صغير للثلج ومساكة معدنية، وطبق مزة كبير ملآن بالكبد والكلاوى والسلطات. .

ببوز قدمها أغلقت الباب المفتوح على الصالة ثم استدارت ودفعته بمؤخرتها انزلق الشيش فى عتبته، انخفض الضجيج إلى طبقة جعلته أنسا وبهجة ـ جلست سعدية على الكرسى المواجه لى؛ وضعت الصينية على المنضدة الواطئة فيما بين الكرسيين:

ـ «ارمى البيرة دى بقى! خل بطنك فارغة لأنك ستتعشى الليلة عشاءً من طبيخ أمى نفسها! اليوم ذبحنا عجلاً صغيراً»!

ـ «تعرفين أننى لا أشرب إلا كأس بيرة من قبيل المشاركة و. . ».

ـ «لابد أن تشرب هذا الكأس! أيضًا على سبيل المشاركة! يفتح شهيتك! . . من ناحية ثانية ضيوفنا من قرائك! يبعثون لك هذا الكأس تحية فجاملهم واشربه! صب»!

ـ «فى صحتك يا سعدية»!

ـ«فى صحتك يا أدهم! نجيئك فى الأفراح دائمًا»!

ـ «سعدية! . . بودى أن أسألك سؤالاً يشغلنى»!

ـ «وكاتم فى قلبك؟ انطق! اتلحلح»!

ـ «هل تعرفين مدام هند سليمان»؟

حملقت فى عينى لبرهة؛ انعكست فى عينيها شهقة مكتومة كأنها تلقت سؤالاً لم تكن تتوقعه على الإطلاق. كانت الأنوار الذهبية المبثوثة من (أباليك) مثبتة فى أركان البلكونة على شكل عناقيد من البلح الأصفر السمانى المشوب بظلال باهتة من الحمرة تنعكس على الجانب الأيسر لوجه سعدية فيغمق لونه إذ يتعانق مع شعرها الغزير المنطرحة جدائله على ظهرها وكتفيها يضفى على سعدية ظلالاً أسطورية فكأنها ست الحسن والجمال بملامحها الفلاحية التى ازدادت رقة ونعومة وصفاء باستنارة العلم والثقافة؛ شعرت بقليل من الأسف على غفلتى وعدم انتباهى لهذا الجمال منذ وقت مبكر قبل أن أتزوج . .

بشفتيها المكتنزتين لامست الكأس خلال الشرود؛ اقتطفت رشفة، وضعت الكأس، رفعت رأسها؛ عيناها عُشان تنطلق منهما نظرات متكورة كالأفراخ كالكتاكيت، نظرات تبدو سابقة التجهيز توجهها أخت لأخيها الحبيب تهدف بها إلى استكشاف ما أمكن مما يغمض عليها من أسراره:

ـ «تعرفها أنت يا أدهم»؟!

اللهجة ذات معنى، فيها من التوجس والشقاوة وما يكاد يكون

اتهامًا لى بأننى واقع فى الحب لشوشتى أنا الرجل العاقل المشهور المتزوج أبو العيال الذى لا يجب أن يكون حرًا فى سلوكه إلى هذا الحد؛ كما أن لهجتها مخلوطة بأرضية من الاعتقاد بأننى لابد أن أكون على معرفة جيدة بها ومن ثم فسؤالها استنكارى تريد به أن تبحث عما قد يكون وراء هذه المعرفة من أسرار مروعة يهمها ـ باعتبارها بنت خالى ـ أن تعرفها كاملة . . هكذا كانت نظرات عينيها تحيطنى بتوجسها . .

أحببت توجسها ذاك؛ لاقيته بابتسامة حاولت أن أتهكم بها على القلق الذى بدا أنه يساورها :

ـ «اطمئنى يا سعدية! معرفتى بها قريبة جدًا! ولم ولن تتعدى الرسميات»!

ـ «طبعًا هذا عشمنا فيك! أنت رجل عاقل»!

ـ «وهى! مجنونة»؟!

ـ «مجنونة؟! ربنا يعطينا شيئًا من جنونها! إنها لعلمك من أكمل الناس عقلاً يا ابن عمتى! عقلها يزن الدولة كلها ويطب»!

ـ «أهى شريرة»؟!

ـ«فشر!! سلامتها من الشر! صديقة عمرى»!

ـ «صديقة عمرك»؟!

ـ «ولى الشرف! . . أنت طبعًا تعرف سعدية! أصحابى دائمًا على الفرازة»!

-«إذن! هل تخافين علىّ منها أو من معرفتها»؟!

ـ «بالعكس يا ابن عمتى! معرفتها تشرف! هى أجدع من ألف رجل ورجل! تجود بكل ما تملك ولا ترى صاحبة لها مزنوقة فى ورطة! . . يا ابن عمتى! إنها تشتغل وتنفق على الشغل من جيبها! متطوعة فى جمعية الهلال الأحمر ومن قبل كانت فى الصليب الأحمر! . . لو فتحنا سيرتها الطيبة سيعوزنا شاعر ربابة»!!

ـ «لكن! . . يا سعدية! أحس أنك توجست إلى درجة الخوف لما سألتك عنها! فهل أنا مخطئ فى إحساسى»؟!

قالت كأنها تقرر بديهة ينساها الناس دائمًا:

ـ «نعم خفت! . . أخاف عليك من جاذبيتها! من شدة أنوثتها! . . صدقنى يا ابن عمتى! . . جاذبيتها هذه من سوء بختها!! . . أى والله يا ابن عمتى شفت عجائب الدنيا؟؟ عقدتها فى الحياة أن أنوثتها تستفز الرجال وجميع من عرفتهم من الرجال يتعاملون معها كامرأة! كأنثى فحسب! فى حين أنها تحتقر هذه الأنوثة وتتمنى أن لا يرى الرجال فيها سوى شخصيتها القوية المثقفة»!

ـ «صارحينى يا سعدية! هل كنت تتوقعين أن أعرفها فى يوم من الأيام»؟

شوحت بالكأس فى وجهى بغوغائية محببة فى محيطنا العائلى فى البلد:

ـ «حيلك! حيلك! أنا غير مصدقة بأنك تعرفها منذ وقت قريب! كيف لا تعرفها من قبل يا أستاذ وهى تعتبر من زملائك البارزين»؟!

ـ «زملائى؟! تقولين من زملائى يا سعدية»؟!

ـ «طبعًا يا أستاذ! . . إنها صحفية مشهورة! كانت رئيس قسم التحقيقات بوكالة أنباء الشرق الأوسط! و اشتغلت فى وكالة وفا الفلسطينية سنوات طويلة وعاشت الأيام وغامرت بعمرها فى معسكرات ومخيمات صابرا وشاتيلا وعين الحلوة وتدربت على السلاح وحملته و . . و . . أقول لك نحتاج لشاعر بربابة»!

ـ «كيف عرفتها يا سعدية»؟!

شوحت بالكأس مرة أخرى وكان واضحًا أنها محبة للحديث عن هند سليمان بحميمية. انبرت تحكى فى تدفق: كانت هند سليمان زميلة لعاطف الفقى ـ الشقيق الأكبر لزوجها الدكتور مشهور الفقى ـ تخرجا معًا فى أول دفعة بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية عام أربعة وستين وتسعماية وألف؛ تزاملا معًا فى منظمة الشباب والتنظيم الطليعى، كان لكل منهما نفوذه الخاص بين الطلاب باعتبارهما من ذوى الحيثية فى التنظيم كما أنهما كانا يكتبان معًا بانتظام فى مجلة الشباب؛ وكانت هند متزوجة منذ حصولها على شهادة التوجيهية وهى فى الخامسة عشرة من عمرها؛ زوجها كان ابن خالتها وكان أستاذًا فى نفس الكلية هو الدكتور خليل عمران المشهور بكتاباته الغزيرة عن الأنظمة السياسية المختلفة، وهو الآخر كان عضوًا بارزًا فى الاتحاد الاشتراكى ثم فى التنظيم الطليعى؛ هو وهند كانا ينضحان على بعضهما؛ هى تنقل إليه عدوى الجمال والرقة، وهو ينقل إليها عدوى الجدية واللباقة والوعى السياسى. كانا يزوران أسرة الفقى باستمرار؛ وهند هى التى سعت وراء عقدى عمل فى دبى لكل من الدكتور مشهور وسعدية فى مستشفى خاص كانت هى تعرف أحد كبار المساهمين فى رأسماله. وكانت سعدية تعرف أن هند والدكتور خليل لديهما أطفال لكنها لم ترهم وليست تذكر كم كان عددهم؛ كما أن المدة التى تعرفت

سعدية خلالها على هند وزوجها كانت قصيرة، بدأت بعد خطوبة مشهور لسعدية فور التخرج واستمرت ما يقرب من عامين وربما أقل من ذلك حيث سافرت هى مع مشهور إلى دبى، وهاجرت هند مع زوجها بعد ذلك بقليل؛ إلا أن أخبار هند وزوجها كانت دائمًا عند عاطف الفقى وكان ينقلها إلى مشهور وسعدية فى خطاباته وزياراته؛ وهند نفسها ظلت وقتًا طويلاً تراسل سعدية من لبنان؛ إلى أن حدث ما حدث فى لبنان من دمار فانقطعت الرسائل ولكن خبر موت الدكتور خليل زوج هند وصل إليهما عبر نشرة الأخبار فى التليفزيون لأنها كانت ميتة صعيبة. ولذلك كان اللقاء بين سعدية وهند فى حديقة جروبى حاراً وإن كان خاطفًا؛ ولسوف تعمل سعدية على أن تتصل بها وهى ترجونى إن كنت أعرف عنوانها أو رقم هاتفها لأعطيه لها..

أكدت لها أننى لست أعرف لا هذا ولا ذاك، ووعدتها بأن أوافيها بهما إن عرفتهما.

٢٢
فوران الحمم

فتحت حافظة أوراقى لأضع فيها كتابا أهدانيه زميل زارنى فى مكتبى خصيصًا من أجله. اصطدمت يدى بمظروف هند سليمان الذى يضم كراستها. اعترانى شعور بالدهشة كأننى فوجئت به بل سألت نفسى لوهلة خاطفة عما يكون!.. تداعت فى ذهنى أسباب ومقترحات تصلح أن تكون سببًا لإهمالى كراسة هند سليمان إلى حد النسيان رغم ما كان بى من شوق إلى قراءة شىء بخط يدها: لعله اكتشافى مؤخرًا بأن هند سليمان ليست مجرد واحدة من هواة الأدب يمكن أن توقعها الغشومية فى الإفضاء بأشياء مثيرة تفسر لى ما كان غامضًا من شخصيتها، أما وقد اتضح أنها كاتبة محترفة قد يتصادم أسلوبها واتجاهها الفنى مع قناعاتى الفنية والاجتماعية، فإن ذلك ما يصادر حماستى للقراءة؟! لعله الشعور بأن هند سليمان فقدت الكثير من غلالة الغموض الساحر المثير المستفز؟ أم لعلنى قد سئمت هذه الحدوتة التى اقتحمتنى وأخذت أكثر مما تستحق من وقتى واهتمامى؟! لعله نفورى من تكالب الثعالب الانتهازيين الضالعين فى الفساد على هذه القطعة من الحلوى الجاذبة لجحافل الذباب الأزرق، ذباب المقابر! وتوجسى من أن أتحول فى أنظار الجميع إلى مسئول عن هند سليمان وحاجب لها؟ لعله، لعلنى، لعلها.. أوصلنى استعراض الأسباب إلى

شعور بالسأم فعلاً من حدوتة هند سليمان برمتها؛ ستبقى هذه الكراسة كما هى إلى أن ألتقيها صدفة فأسلمها لها معتذراً عن قراءتها دون تعليق . .

أفزعنى الرنين المفاجئ للهاتف؛ ضغطت على زر السماعة الخارجية؛ عامل السويتش ينبهنى إلى مكالمة لى من الأستاذة التى اتضح أنه يعرفها وتعرفه كما هو واضح من لهجة الترحيب وتبادل الود بينهما . رفعت السماعة، دهمنى صوتها :

ـ «مرحبًا أستاذ أدهم»!

ـ «أهلا مدام هند! . . أنا آسف جدًا! ظروفى منعتنى من قراءة كراستك»!

ـ «إنى أكلمك الآن لأنى اشتقت إليك فعلاً! قلت أكتفى بالاطمئنان عليك! . . أنا من مدة لم أطلع إلى القرافة! . . وأمس الأول كنت فى قهوة الفيشاوى أفسح صديقتى الفنانة! رأيت نفسى وجهًا لوجه مع الأسطى حسين قشطة! سألته عن أخبارك فقال إنك منذ حوالى عشرة أيام لا تطلع إليهم، شغلنى! لعل المانع خير يا أستاذ أدهم»!

ـ «خير طبعًا! أمى كانت زعلانة من أخى وجاءت تستنجد بى! انشغلت بها وسافرت معها إلى البلد أصلحت بينها وبين أخى الذى تتهمه أمى بأنه مطية لزوجته وأشياء من هذا القبيل»!

ضحكنا معًا؛ ثم إنى تذكرت شيئًا :

ـ «وعلى فكرة سيارتى عند الميكانيكى! انتهزت فرصة سفرى إلى البلد وأدخلتها الورشة نصف عمرة! وهذا أحد أسباب تعطيلى عن القرافة»!

- «الحمد لله أنك بخير! عن إذنك إلى اللقاء»!

- «إلى اللقاء»!

ما أن وضعت السماعة حتى رن الهاتف فى الحال؛ إنه الأسطى حسين قشطة، يسألنى نفس السؤال عن سر تغيبى عن القرافة، حكى لى - فى الهاتف! -لقاءه هند سليمان فى مقهى الفيشاوى وأنها سألته عنى، كان فرحًا متهدج الصوت بفرحة أخ أصغر يوالس أخاه الأكبر متسترًا على أخباره الغرامية . . إلا أنه فاجأنى بشىء نغص بالى:

- «القرافة بقى لها كام يوم بتضرب تقلب»!

- «خير يا اسطى حسين»؟!

- «بس أما تيجى وأنا احكيلك على رأى الغنوة»!

- «أعطنى ولو إشارة»!

- «إنت مش ناوى تيجى ولا إيه؟ حتقاطعنا»؟!

- «ما اقدرش اقاطعكم! دا انتوا شبطة»!

- «أمال سايبنا ليه فى الحوسه دى لوحدنا»؟!

- «يا اه! للدرجة دى»؟!

- «تعال بس يا أخى وحشتنا والله»!

- «عربيتى عند الميكانيكى»!

- «آجى آخدك يا باشا! فيه ميت عربية! كل واحد من أصدقائك مستعد يسلفك عربية تمشى حالك بيها شهر شهرين»!

- «خلاص يا سحس! فوت علىّ الساعة خمسة»!

ـ «ماشى! بعون الله»!

حاولت التكهن بما يمكن أن يكون قد حدث فى القرافة خلال غيبتى التى لم تزد عن عشرة أيام، وقد أدهشنى أن الأشياء أو الوقائع أو الأخبار المهمة تحدث دائمًا أثناء غيابنا المؤقت. رنين الهاتف صادر كل ما فى دماغى من لغط؛ من؟

ـ «دكتور هانى أبو القاسم؟! أول مرة أشرف بالاستماع إلى صوتك الجميل عبر الهاتف»!

ـ «متشكر يا أستاذ أدهم وآسف لاقتحامك! أريد أن أجلس مع حضرتك خمس دقائق بالعدد»!

ـ «أسبوعًا لو أردت من دون أن تسألنى»!

ـ «يمكن أن يكون الآن»؟!

ـ «من أين تتكلم»؟

ـ «من مكتب الاستعلامات تحت فى الجرنان»!

-«اطلع»!

كان الوجل باديًا على مظهره وهو يعالج إغلاق باب حجرتى برفق ثم يقبل نحوى معانقًا. جلسنا فى المواجهة على الفوتيه الملاصق للمكتب؛ وإلى أن صب الجرسون القهوة وانصرف لم يكن قد صرح بعد بمضمون ما يريده من هذه الزيارة المفاجئة الملحة؛ حتى وهو يرفع الفنجان إلى شفتيه كان الخفقان الأحمر المحتقن تحت بشرة خديه الأسيلين قد استكنت مويجاته المضطربة أو هكذا خيل إلىّ، فبدا كما لو كان قد تراجع عما كان يقصده من الزيارة؛ عندئذ لمعت فى ذهنى

بوارق من كلمات الأسطى حسين المواربة فاعتراني توجس مقلق مربك . .

ـ «أنتم جميعًا بخير يا دكتور هانى»؟!

استقرت ابتسامته الخجولة على شفتيه :

ـ «أستاذ أدهم! جئت أستعلم منك عن مدى صحة خبر سمعته يتردد بقوة فى القرافة! . . إنى أستحلفك بحق صداقتنا وحبى لك أن تكون صريحًا معى كعادتك! لا تخف عنى أى شىء تعرفه بأية حجة من الحجج قاطبة لأنه أمر لا تنفع فيهَ المواربة أو المجاملة»!

ـ «ماذا تريد أن تعرف على وجه التحديد»؟!

ـ «أبى! المعلم عيد أبو القاسم»! . .

ـ «ماله»؟!

ـ «هل حقًا أنه . . تزوج من مدام هند سليمان»؟!

أصابنى الخرس لبرهة طويلة جدًا كنت أسمع خلالها صوت هدير الضحك فى صدرى مع أننى مطبق الشفتين فى انتظار أن يفتح الله علىّ بكلام مناسب أقوله :

ـ «وإذن فهذا هو الخبر الذى يتردد فى القرافة»؟!

ـ «الناس كلهم مصرون على التهنئة! لدرجة أننا لم نجد مفرا من التصديق! . . حضرتك تعرف أن المعلم يمكن أن يختفى بالأسابيع وراء الموالد والطريقة الشاذلية لكننا نكون على علم بكل شىء من أول الذبيحة التى نأخذ منها نصيبنا إلى الحمص الذى يعود به من كل مولد مع الحلوى بكميات تكفى لعيالنا جميعًا! . . أما

الاختفاء بدون مناسبة والمبيت خارج البيت لعدة ليال كل كم يوم فهذا لابد أن يثير الريبة! . . أم السعد التى تخدمه اشتكت منه! تقول إنه تلخبط غزله وأصبح يسكر سكراً بينا! . . أنت لست غريبًا عنا اليوم ولا أخجل من أن أحكى لك عمايله المضحكة! أم السعد ذات فجر ترقبت عودته لتضع له العشاء! فدخل يتطوح ويهذى! ثم ارتمى على الكرسى رافضا العشاء! فلما سمع صوت أذان الفجر سحب السجادة وفردها وأقام الصلاة!! . . أم السعد بالنسبة لنا وله أيضًا تعتبر دادة! هجمت عليه وهو راكع وفين يوجعك بعصاتها ورمت له أجنابه ومؤخرته! . . فبذمتك ودينك هل هذا يليق؟ هل هذا هو المعلم عيد أبو القاسم صاحب الهيبة؟ وابنه الأكبر يشار إليه الآن بالبنان فى جامعة أوكسفورد؟! لا لا! هناك أسرار فى حياته لابد أن نعرفها»!

ـ «ولكن ما رأى المعلم نفسه فى هذا الخبر؟ هل واجهتموه»؟

ـ «لا نأخذ منه غير الضحك والسخرية! كل واحدة من إخوتى البنات انفردت به وسألته! ليس فينا من لم يسأله بوضوح: هل تزوجت هند سليمان حقًا؟ مع ملاحظة أننا لسنا نمانع ولكن من حقنا أن نعرف فحسب وأن يكون لنا رأى فيمن ستنضم إلى عائلتنا على آخر الزمن! . . وهو كلما انفعلنا يضحك ويقسم بالله أنها إشاعة! ولأجل اليمين صارحنا بأنه سبق أن فكر فى الزواج منها فعلاً، لكنه صرف نظره ولم يفاتحها! لكن الفأر الذى يلعب فى عبنا جميعًا يقول إنه تزوجها بالفعل»!

ـ «شوف يا دكتور هانى! أبوك يقول الحقيقة بنسبة مائة فى المائة! صدقنى! مدام هند سليمان سيدة ليست للزواج ولا للبيع! إنها

أكثر احترامًا مما يتخيل أهل القرافة! . . كانت تكلمنى منذ حوالى ساعتين ولم تقل لى أى شىء عن هذا الموضوع»!

- «وهل كانت ستقول لحضرتك لو تزوجت»؟!

- «بالتأكيد! على الأقل فى حالة زواجها من المعلم بالذات! . . ثم . . عفوا . . لم يكن يليق بى أن أقول لك ما سأقول لو لا أن الأمر يقتضى ذلك! نعم أنا آسف إذا قلت لك إننى متأكد تمام التأكد من أن مدام هند سليمان لا تحب المعلم عيد ولا تطيق سيرته لأسباب أنت ربما لا تعرفها ولا داعى لذكرها الآن! . . يعنى مسألة زواج المعلم عيد من هند سليمان محض خرافة كالغول والعنقاء والخل الوفى»!

باضت الابتسامة على وجهه تكورات مدحوة من الضوء المخصب بلقاح اليقين:

- «أنا على علم بأنها صديقة لحضرتك»!

- «يعنى! ليس إلى هذا الحد ولكننى متأكد من أنها إنسانة نقية جدًا وشريفة جدًا ومحترمة جدًا . . وهذا يكفى لأن تكون صديقة للبشرية كلها! فاطمئنوا تمامًا»!

- «وأنا صدقتك يا أستاذ»!

ثم رشف ثمالة القهوة وتلمظ فى تلذذ ووضع الفنجان وجرع رشفة ماء:

- «القرافة مزعجة يا أدهم بك! حتى الأموات لا يجدون فرصة للسكينة فى مراقدهم حضرتك؟! الناس من حولهم كالذباب! كالبعوض! يخرم الآذان بزنينه ويمص الدم من الوجوه! . . ناس فاضية! . . عدد الموتى فى انخفاض كل يوم! لم يعد يكفى

لشغلهم جميعا فمن البطالة يتلقحون على المقاهى يمسكون سيرة الناس لا يتعظون من أنهم بعد حين سيرقدون مع الراقدين من تحتهم تحت التراب! . . ولكن إذا كانوا بلا قلوب توجعهم فماذا تنتظر منهم؟! خرموا فى أحشاء المقابر جعلوا من الأحواش غرزًا للتحشيش وقهوات وورشًا للسمكرة والدوكو والكهرباء وأكشاكًا لبيع السجاير والمعسل! أتخن ما فيهم جبان يبيع الجثث لمتعهدى كليات الطب والطلبة بمبالغ كبيرة! الجثة إن كانت طازجة لها سعر وإن كانت مجرد هيكل عظمى لها سعر أقل! . . بعضهم عنده مخزن سرى ملىء بالعظام الآدمية التى جمعوها من وراء البلدوزر عند شق طريق الأوتوستراد! ناس اغتنت من عظام الموتى! يبيعونها مثل قطع الغيار، للجمجمة سعر وللساق سعر! ويختلف السعر من ساق رجل إلى ساق امرأة! . . الأبشع من كل هذا حضرتك! أن الشيطان المأفون المدعو صابر حمؤه هو أكبر تاجر روبابيكيا آدمية! تخصص جماجم! له صبيان من لصوص المقابر يوردونها له! يجففها! يطحنها! يخلطها بمسحوق برشام أبو صليبة أو أى سوكولان ويبيعها للمدمنين على أنها هيروين وكوكايين! بأسعار باهظة! يوهمهم بأنه هيروين خام نقى! ويصدقونه لأنه شداد مثلهم! ولأن سطرين اثنين يشمهما الواحد يصير لوحا من الثلج مركونًا على كرسى! . . لا أدرى لماذا لا تكتبون عن هذه الجرائم؟! ولكن! الحق لله يا ما كتبتم ولا حياة لمن تنادى! آسف! عطلتك ووجعت رأسك»!

ـ «أنت نورت وشرفت»!

عانقنى بحرارة ثم انصرف. .

فى نحو الخامسة مساء جاء الأسطى حسين قشطة بسيارة ماركة

كمارو؛ ركبت بجواره، انطلق، لكنه بدلاً من أن يلف ليدخل من شارع فؤاد إلى كوبرى الأزهر إلى القرافة واصل سيره إلى الكورنيش ومنه يمينا إلى وكالة البلح؛ تركنى فى السيارة ونزل؛ بعد حوالى ربع ساعة عاد حاملاً بعض قطع الغيار؛ انطلق على طريق الكورنيش بهدوء إلى فم الخليج إلى صلاح سالم ومنه إلى القرافة كل ذلك ليطيل زمن الانفراد بى. كانت الخواطر تتدفق منه طوال الطريق دون أن يعى بأنها تتضمن معلومات مهمة، أو لعله كان يعى، إنما كان يهدر بانفعال يشوبه التوجس والوجل من أشياء مهولة قد تحدث فى القريب العاجل. قال إنه من موقفه كمراقب مهتم بكل كبيرة وصغيرة لاحظ أن صراعًا خفيًا مخيفًا نشب وتطور بين ثلاثة إذا اصطدم أحدهم بالآخر يولد شررًا يشعل الحرائق التى ربما لا تنطفئ مدى الحياة، الثلاثة أقوياء يقولون للشيطان قم لنقعد مطرحك: صابر حمؤه وأبو ميمى والمعلم عيد أبو القاسم، ومن ورائهم الحاج حسين الوراق وهو داهية إن كنت لا أعلم، فإن لم أكن أعلم فلأ علم بأنه أخطرهم على الإطلاق إذا أراد فعل شيء فعله فى السر والكتمان مستعملاً السكك الدينية، يقتل القتيل دون أن يرفع سلاحًا، لا يجب أن أغتر فى صلاحه ذاك الشكلى بزبيبة الصلاة كالوردة الذابلة فوق جبهته المدببة مثل رأس الثعبان براق العينين مثله، ولا بلحيته السنية التى يلوذ بها وبشيبتها لتدارى شخصيته الحقيقية الثعلبية المفترسة، وعند احتدام الكلام عند الفصال فى البيع والشراء يحلف بها قبل حلفانه بشباك النبى الذى زاره سبع حجات. . يجب كذلك أن أعلم بأنه أغنى أغنياء مصر حاليًا من تجارة الورق الدشت وتصنيعه فى نوت وكشاكيل وكراريس وتذاكر أتوبيسات وتذاكر مترو وتذاكر سينما ومسرح وهلمه، إضافة إلى أحبار المطابع وآلات الطباعة بجميع ألوانها وأحجامها، وتجارات أخرى كثيرة لا

تخطر أسواقها على بال أحد غيره . . ولعلمك الخاص فإن هذا السهتان المهزار يتصنع البلاهة كالمجاذيب ليطمئن إليه الناس المتعاملون معه واضعين فى اعتبارهم أنه رجل من أهل الله لا يغش لا يسرق لا يكذب ليس له فى الخبص والمسخرة، بدليل أنه على عينك يا تاجر يعيش على قده عيشة متواضعة؛ من أجل تثبيت هذه الصورة فى أدمغة الناس يطوى سجادة الصلاة تحت إبطه أينما ذهب ليفردها على الأرض حيثما كان يؤدى الفرض لحظة حلوله مهما كان مندمجًا فى عمل أو حتى عراك يقطعه بإقامة الصلاة، فتموت العركة فى الحال أو يموت الفصال أو تموت البضاعة لتئول إليه بعد فراغه من الصلاة بتراب الفلوس؛ من سخريات الدهر أن امرأة رقيعة ملونة من غانيات القرافة كانت تبيع الحشيش وتحمى نفسها بجسدها فى براعة، حكت للأسطى حسين قشطة فى لحظة صفاء بينهما أن الحاج حسين الوراق اشتغل عليها لمدة عام كامل ينفق عليها من مجاميعه فى سبيل أن تنام معه ليلة واحدة، وكانت هى ميالة لكن المشكلة كلها فى المكان الذى يقضيان فيه وطرهما، فأخذها الحاج حسين فى سيارته، وذهب بها إلى أبعد منطقة ظلماء فى دروب جبل المقطم، ثم فرش سجادة الصلاة على الأرض وخبطها واحدًا فى الهواء الطلق تحلف بحياته إلى اليوم! . .

يستدرك الأسطى حسين قشطة قائلا: إن الحاج حسين الوراق فى حقيقة الأمر سياسى محنك، يشتغل بالسياسة يعوم فى بحورها ببراعة ولكن من تحت قشرة التبن السميكة المفرودة فوق ماء وجهه ستاراً من العبط والبلاهة! ولقد تأكد للأسطى حسين أن هذا الرجل السهن ينفق أموالاً كبيرة على شباب كثيرين من العيال المضروبين بالتكفير والهجرة! أحيانًا ينسى الحاج حسين نفسه بعد الحجرين الحلوين فيتكلم فى الدين والسياسة فينجلى متحدثًا عن أمنيته وأمنية سيد الخلق بأن يحكم

الإسلام وتعود الخلافة من جديد لتحقيق العدل بشرع الله، وفى رأى الأسطى حسين أن الحاج حسين مخادع لا يهمه إسلام أو غيره إنما يريدها فتنة! يصبح الناس كلهم دراويش لا عمل لهم سوى التجارة والعبادة وكان الله يحب المحسنين، ففى مثل هذه الفتة يكثر أمثال الحاج حسين الذين تجارتهم الإسلام والإسلام منهم برىء براءة الذئب من دم ابن يعقوب. . ولعلمى أيضًا ـ إن كان يعجبنى ـ ولا يجب أن أضحك فالأمر ليس بنكتة؛ إن الحاج حسين الوراق هو الآخر ـ بسلامته ـ من عشاق مدام هند سليمان، بل لعله العاشق الوحيد المستعد للتضحية بغير حدود بغير عقل، يكتم العشق فى صدره فلا يبوح به لأحد، ولكن ملاحظته ليست صعبة على الأسطى حسين قشطة على وجه خاص وبالذات فى هذا الأمر؛ ولهذا فإن الخوف منه هو لا من الشياطين الثلاثة؛ إنه الأقوى بصمته ورساوته والتحكم فى لسانه وبأمواله الغزيرة ومئات الشبان المتطرفين الذين ينفق عليهم وينفذون ما يأمر باسم الله: هذا كافر فاقتلوه يعنى لابد أن يقتلوه دون مناقشة والأجر والثواب على الله. يحلف الأسطى حسين قشطة ويبصم بالعشرة أن الحاج حسين الوراق ربما يكون هو الفائز فى النهاية بقلب مدام هند سليمان أو على الأقل بجسدها تحت مخدر الستر والورع والخشية من غضب الله وعذاب الآخرة؛ وإلى أن تكتشف النمر الأرقط تحت جلد القط الأليف تكون خرابيشه قد صفت دمها؛ ولماذا لا؟ هنا يجب أن أجعل بالى من الأمر وأصحو للدور وأكون على علم بأن الثعلب الكبير سيترك الديوك تنهش لحم بعضها ليظهر هو فى الوقت المناسب باعتباره المنقذ التقى الورع هيأته السماء العادلة الرحيمة لأن يكون سترا لها وغطاء؛ وجميع المصريين للعلم وهو وأنا منهم يأكلون دائمًا أبدًا من هذا الكلام ويضعفون أمامه لأنه طريق سهل يكفى

المؤمنين شر القتال! . . هذا فى الواقع ما ينغص بال الأسطى حسين قشطة وها هوذا يصرح لى به عملاً بالقدوة الحسنة القائلة : اللهم إنى قد بلغت اللهم فاشهد! . .

ولم يكن يدرى لحظتئذ أننى أقاوم لكتمان الضحك ولم أكن لأقوى على كتمانه لولا أن ما يقوله ملىء بالإثارة وليس يخلو من نظرات ثاقبة وخيال مستنير ؛ إلا أن أقوى ما كان يعكسه كل هذا التوجس من تأثير عميق فى نفسى هو عمق شعورى بمدى ما يكنه الأسطى حسين قشطة لهند سليمان من حب حقيقى يذكرنى بالرومانسية فى أزهى عصورها برغم الواقعية الفجة المفرطة التى يعيشها عصرنا المنحط ؛ بل إن الأسطى حسين يكاد يسخر من واقعيتى المفرطة ؛ ها هو ذا لا ينى يطرح على عجلة القيادة خواطره وهمومه ومكابداته وشعوره الواضح بأنه ـ بنفس تعبيره الشعرى العميق ـ وحيد أو كالوحيد البائس يهرول فى الصحراء ملتاعًا يستغيث فى طلب حكيم يسعف بالدواء جريحا يئن فى داره من فرط الألم . .

وكنت أظن أن هذه العبارة هى بمثابة النقطة التى انتهت بها جملة الحديث ؛ فإذا به يستطرد بحماسة أشد يعلننى بأن كل واحد من الفرسان الثلاثة ورابعهم شيخ المنسر ، يشيع فى القرافة الآن أن الهانم هند سليمان واقعة فى غرامه هو ، وأنه وليس غيره هو الفارس الذى يليق بها وتليق به لكذا وكيت من الأسباب ؛ الضرب شغال تحت الحزام ومن وراء الظهور بعنف رغم أنهم فى الظاهر أحباب يسهرون مع بعضهم ؛ إلا أن إشاعة زواج هند سليمان من المعلم عيد انتشرت من يوم ما أنا زرت المعلم عيد فى قصره وتغديت معه وتفرجت على عش الزوجية . . ثم أضاف الأسطى حسين مؤكدًا أن خبر تواجدى للغداء فى قصر المعلم عيد وصل إلى القرافة قبل أن يوضع الطعام أمامى ، إذ

إن كل واحد من العشاق يوظف وراء الآخر مخبرين وجواسيس؛ ثم إن حضرتى اختفيت بعدها فلم أظهر فى القرافة كما أن مدام هند اختفت هى الأخرى، وبعدها بيوم جاء الدكتور هانى يسأل الأسطى حسين عن أبيه الذى لم يعد إلى القصر منذ ليلتين دون أن يترك خبرًا أو يتصل بأحد من عياله. قويت الإشاعة لا أحد يدرى كيف، أصبحت بكثرة التداول حقيقة، من يسمع الخبر لا يكذبه بل يساهم فى تأكيده بشواهد من عنده، لدرجة أن كلا من صابر حموّه وأبو ميمى ركبهما الهياج المنذر بالشر، صارا يقضيان فى ورشته ساعات طويلة والشياطين تتنطط على وجهيهما حتى وهما يحاولان الضحك والسخرية من الموضوع، ولو كانت مدام هند قد ظهرت فى القرافة ولو لمرة واحدة فى الأيام الماضية لأطفأت النار المتقدة فى قلوب الكثيرين، أما وقد اختفت هى الأخرى فى وقت سريان الإشاعة فإن الجميع قد صدقوها ولن يتنازلوا عن تصديقهم بأى حال من الأحوال، ولكن ـ ربى والحق ـ أن الأسطى حسين حينما قابل مدام هند فى ممر الفيشاوى هى والست التى كانت معها وكانتا لحظتها تقلبان فى الصحف والمجلات فى دكان المتعهد المواجه لمطعم الفول والطعمية فوجئ بالمعلم عيد واقفًا فى نفس الممر أمام محل شرائط الكاست يشترى أشرطة ويرقبهما كأنه ينتظرهما ثم إنه اقترب منهما واشتبك فى كلام مع الست المرافقة؛ وعندئذ لمح الأسطى حسين فأوحى له بأنه معهما، سلم الأسطى حسين على ثلاثتهم وتكلم مع مدام هند كلمتين ومشى لكنه اختبأ فى دكان صديقه الحاج سيد الكبابجى المطل على ميدان المشهد الحسينى، فرأى مدام هند تركب سيارة صديقتها وتمشى، ووراءهما مباشرة ركب المعلم عيد سيارته وتبعهما، يعلم الله إلى أين؟..

خبط الأسطى جبهته بكفه اليمنى واستدرك فى حرارة ومرارة بأنه عند

عودته إلى القرافة وجد الخبر فى انتظاره حيث علم الجميع فى القرافة أن المعلم عيد كان يفسح زوجته مدام هند وحماته فى الحسين!! . .

اكتفيت بالاستماع دون تعليق . . ظللت هكذا طوال قعدتنا الخلوية وراء حوش خوند؛ وكنت قد تأكدت أن الأسطى حسين قشطة قد لاحظ أننى سأمان وقرفان من تطويل الكلام فى السيرة، وبالفعل سرعان ماحسم الموقف:

- «قم لأوصلك إلى البستان»!

تركنى أمام البستان وقفل عائدا إلى ورشته. كانت المرسيدس الشبح راكنة بحذاء السور، توقعت وجود المعلم عيد فى تعريشة أسعد الدهل؛ لكننى فوجئت بدلاً منه بأحد البكوات المحترمين وإن كان صورة طبق الأصل من شخصيات رجال الأعمال الأثرياء المكرشين الذين يرسمهم فنان الكاريكاتير حجازى فى مجلتى صباح الخير وروز اليوسف: فخامة فى الملبوسات وفى السيجار وتفاهة فى العقل وفى اللسان؛ فلما وقف بصعوبة ليصافحنى تبينت أنه صابر حموه. أصر على احتضانى ساحبًا إياى نحوه بقوة فوجدتنى قد صرت أضأل من ذراعه؛ وإذ جلسنا نكمل الترحيب هتفت به:

- «ما هذه الشياكة يا صابر بك»؟!

قال من بين أصداغه اللحيمة:

- «شفت المعلم عيد وهو فى لبس الأفندية»؟!

- «طول عمرى أراه فى الأطقم البلدى»!

- «لو شفته فى لبس الأفندية تظنه الملك وأنا الوصيف! هدوم أفخم وأغلى وأرقى»!

- «ولكن أية ريح طيبة أتت بك إلينا»؟!

- «سمعت أن المعلم عيد زعلان منى جئت أصالحه»!

قال أسعد الدهل رافعًا رأسه فاشخًا أسنانه الكبيرة فبدا مثل الحمار حين ينهق، ولعله فعل شيئًا من هذا القبيل إذ هو يسحب ضحكات من الحلق كلهاث صوتى يتردد بين شهيق وزفير:

- «المعلم عشرة قديمة سعادتك! حبايبه هنا كتير سعادتك! و.. من فات قديمه تاه فلا تنسى سعادتك»!

على سبيل المزاح هبطت الكف الثقيلة المتختخة على قفاه رنت رنينا مدويًا، كانت اللطمة سخينة موجعة كما ظهر على وجه أسعد مما أثار غضبى واستيائى. قال صاحب الصفعة:

- «خليك فيما أنت فيه يا ابن القحبة! لا تلت ولا تعجن! إياك واللت والعجن»!

ثم دفع إليه بكلكيعة حشيش من البودرة المعجونة فى عرق اليد:

- «رص يابو السعود»!

عندما صب الدهل الشاى سحب صابر ميدالية المفاتيح الذهب وكشط بظفر إبهامه من فوقها ما كان أشبه بحلية سوداء فى الجنيه الذهبى، وزعها علينا بسخاء جعل الدهل ينسى ألم الصفعة فى الحال ويهتف بالدعوات كشحاذ محترف..

رحنا نشد الأنفاس بشهية ومرارة الأفيون فى حلوقنا كأنها رحيق العسل الشهد. كانت الأفيونة جيدة ونقية بحق لدرجة أنها ما لبثت حتى حوطتنى بحوش زجاجى أرى من شفوفه ذاتى والآخرين فى نفس

الآن مع وجود برزخ شعورى لا يبغى أحدنا على الآخر؛ سرحت فى مشاعر كثيرة دافئة مبهجة تطرح أفكارًا وأسئلة واستكشافات. . على أن البرزخ الفاصل بين خيمتى النفسية الذاتية وبين القعدة سرعان ما تهدم تحت سنابك خيول كخيول التتار والمغول، راحت تقرع رأسى تدوس فوق مشاعرى تدهسها؛ فلما بربش عقلى بعينيه ناظرًا إلى خارج خيمتى الذاتية مستطلعًا أنباء تلك الخيول المقتحمة المنذرة بزلزال دموى، تبين لى بكل وضوح أن المسألة كلها هى أن صابر حمؤه يتكلم، بصوت جهورى عميق معًا ثقيل الوطأة على الأعصاب كسقف يتساقط فوق الصدور، صوت مطعوم بمئات الخرفان والعجول والديوك والمعيز والغزلان؛ حنكه العريض المفرطح كحنك القلة الزيروية يتدفق منه الكلام مفرطحًا مفرشحًا غير محكوم غير منغوم لا ترن فيه أية مشاعر على الإطلاق؛ لا يقطع استرساله إلا صوت كركرة المياه فى الشيشة حينما يجئ عليه الدور لشد الأنفاس. .

كنت فى أعماقى رافضًا لصوته لكلامه لظله لوجوده برمته فلم أعن باستيضاحه مفردات كثيرة كان ينطقها على عجل مأكولة الحروف ضائعة الإيقاع فى تطجين صوته الغليظ؛ إلا أننى مع ذلك، لم أقو على المقاومة، لم يكن أمامى ثمة من حل سوى أن أحاول قدر الإمكان فهم كلامه ولو بالويم، ثم انتبهت إلى الجانب الطريف فيه؛ فلما بدأت أستظرفه بدأت أقوى على احتمال ثرثرته؛ ثم إذا بى أتكشف أنها ثرثرة ليست فارغة على الإطلاق. . وهكذا روضت نفسى على الصبر فاتضح لى أن مدام هند سليمان هى محور حديثه وحكايته منذ أن فتح حنكه بالكلام، يعيد ترديد نفس الكلام مثنى وثلاث ورباع، كأن الحكايا مسامير قديمة صدئة يدقها فى رأسك بالشاكوش فتنعوج فيخلعها بالكماشة ويعدلها ويعيد دقها فى رأسك بضربات متتالية عنيفة. . .

٢٣
أمانة الثعلب

. . «الناس فاهمانى غلط يا عم الأستاذ! . . الست هند هانم . . هى الأخرى . . مع الأسف . . فاهمانى غلط! . . ليست تعطينى وجهًا . . لا تطيق النظر فى . . فى خلقتى . . مع أننى . . والله العظيم يا عم الأستاذ . . طيب . . قلبى أبيض . . هذا الولد . . الدهل . . القاعد قدامك هذا . . يشهد بأننى . . طيب وابن حلال مصفى . . يعرفنى من أربعين سنة . . كذا؟ أم أننى غلطان يا ابن الدهل؟ . . قل للأستاذ كيف يحبنى جميع الناس فى الجمالية . . والباطلية . . والغورية . . والحمزاوى . . والعطوف . . وكفر الطماعين . . والبلد تمًا . . لو أشرت بأصبعى هذا لكرسى فى مجلس الشعب عن دائرة الجمالية يجيئنى لحد عندى يترجانى أن أقبله! . . قل له يا واد يا دهل كيف لا ينجح إلا المرشحون الذين أرضى عنهم فحسب! . . غيرهم لأ . . حتى لو كان المرشح وزيرًا فى الحكومة وليس لى مزاج لنجاحه لا ينجح» . .

«كل هذا ببركة دعاء الوالدين . . الحمد لله ماتت وهى تدعو لى من قلبها»! . .

«بص قدامك يا ابن الرفضى خلينى أحدث الأستاذ على رواقة بدون غش! . . لماذا تنظر للأستاذ من تحت لتحت وأنا أتكلم؟ مش عاجبك

كلامى؟ إولع بجاز بس ما تبصليش كده أحسن أدب صوابعى فى عينيك دول اللى عاملين زى عينين التعلب العلق»! . .

«ما علينا! ماذا كنت أقول؟ . . ديك أمك يا ابن الدهل! . . توهتنى»! . .

«آه . . قلبى مفتوح مثل الجرنان . . لكن . . الست هند هانم . . من غير مؤاخذة تعطينى الطرشاء . . والحولاء . . تسوق التقل على محسوبك . . براحتها ياعم . . من حقها . . مثلها خلقهن الله خصيصًا للتدلل علينا غصبًا عن بوزنا . . وهن على قلوبنا أحلى من العسل . . تتدلل كما تشاء وتهوى . . الود ودى أن تعرف أن الله خلقنى خصيصًا أيضًا لتدليلها على جميع كفوف الراحة . . ورحمة أبى . . وحياة سيدنا الحسين أنا بعون الله عندى كفاءة أن تكون كل شغلتى فى الحياة تدليلها! . . أفرش لها الأرض ذهبًا وألماظًا . . تمشى عليها وتتمخطر . . تمشى؟! . . تمشى ازاى؟! . . مثلها لا يمشى على الأرض! . . طب تصدق بالله؟ . . يمين المصحف أنا . . ناوى أشترى طيارة! . . وإيه يعنى طيارة؟ . . صعاليك من رجال الأعمال الآن عندهم طيارات ملاكى . . ما أسهلها . . غير أنى لن أشتريها إلا إذا . . نظرت لى الست هند هانم بعين الرضا . . نظرة واحدة بس تفتح نفسى للحياة! . . ياناس . . سبحانك يا رب أعطيتنى فلوسًا بالكيلة ولكنى . . لامؤاخذة يا رب . . غير مستمتع بها . . لا عيل ولا تيل . . والنسوان فى البلد أكثر من الهم على القلب . . لكن . . كلهن بتاع ليلتها واتكل على الله شوف غيرها وتشوف غيرك! . . لو بصيت للبلدى ألقى نسوان كثيرة ترغب فى الزواج منى! . . لكنى أهرب! . . كلهن طامعات فى مالى! . . وأنا عينى تخرم عين الصايع وتعرفه على حقيقته من أول

نظرة!. . يعنى أشوف الطمع جوه عيون النسوان أكش منهن. . ساعات تكون الواحدة عارية أمامى فى الفرشة وأنا أتجهز لها وفجأة. . أكرفها! أشم فيها ريحة الطمع!. . ريحة الحرفنة. . يعنى جاية تضحك على بشوية مياصة وأه وأوه وإيه وتعمل الحلمبوحة وتلهف القرشين وتجرى!. . أرتخى فى الحال. . أرمى لها هدومها: إلبسى! يعنى إيه؟ يعنى إتكلى على الله شوفى غيرى وخدى تمن مواصلاتك اهه! وأعطيها ما كانت ستأخذه»!. .

«معنى كلامى يا عمنا الأستاذ. . أننى ميت فى عتبة الست هند هانم وأشعر أن الله قد بعثها لى من تحت طقاطيق الأرض لتبدأ حياتى من أول وجديد على نظافة وشياكة». .

«لئن كانت هى تحمل الشهادات العالية. . وبنت ناس. . ومترقية. . فإن الرجل ليس يعيبه سوى جيبه. . الرجال. . طبعًا أنت فاهم. . قوامون على النساء. . بإيه؟. . بما صرفوا من أموالهم. . فما بالك والأموال عندى بلا حساب والحمد لله»؟!. .

«على فكرة!. . أنا. . أعرف أتكلم بالإنجليزى والفرنساوى والطليانى والأسبانى!. . يعنى لو. . رحت بلدا من هذه البلاد. . أقدر أدبر أمورى كلها ولا الحوجة للترجمان». .

«ليس هذا ما أريد أن أقوله لك. . إنما أنا أريد أن أقول لك حاجة تانية. . أنا. . بكل صراحة. . فى رقبتى دين لهذه الست لا أنام الليل بسببه!. . أحب طبعًا أن أرده أضعافًا مضاعفة لكنها تصدنى بقسوة قلب لا أستحقها منها». .

«سأقول لك ما هو الدين الذى فى رقبتى لها»!. .

«هى تلقاها نسيت أنها شافتنى من سنين طويلة قبل أن تظهر فى القرافة! . . وأنا . . عدم المؤاخذة . . حاولت الطرمخة على رد الجميل فما قدرت» . .

«أول ما شفتها فى القرافة تقطع قلبى عليها . . قلت يارب ماذا يكون وراء مجيئها هنا؟ . . فلما قالوا لى إنها تسكن هنا فى حوش أهلها كدت أشق الهدوم غيظًا : هند سليمان بجلالة قدرها تسكن فى القرافة؟ هل انقلبت الدنيا؟ القطة أكلت عيالها؟ . . هكذا كنت أقول للناس . . وقلت لنفسى : يا ولد البيوت أسرار والزمن غدار كما تعرف ولابد أنه جار عليها أصله نذل ابن نذل! . . ولكن إذا كان الزمن نذلا ابن نذل فنحن لسنا بأنذال مثله! . . نحن رجال يا جدع! . . والرجل لأخيه كالبنيان المرصوص يمسك بعضه بعضًا . . يعنى باختصار أنا لا يرضينى أن واحدة هانم مثل الست هند تسكن فى القرافة مثل الناس الركش الذين لا سعر لهم . . ولا متناش معايا حضرتك؟ . . يرضيك أنت أن أولاد الأصول يجرى لهم مثل هذه البهدلة»؟ . .

«أنا لما قربت من وجهها كان سيجيئنى لطف والعياذ بالله . . دماغى يضرب يقلب . . أصلها ليست غريبة على . . حطيتها فى نافوخى . . صممت على أن أفتكرها . . فيـ يـ يـ ن وفين على ما تذكرتها . . لا شىء يموت فى دماغى أبدًا . . خصوصًا الحاجات الحلوة اللى الواحد يحب يفتكرها زى مدام هند سليمان دى مثلاً . . أصلها كانت شابة صغيرة قطقوطة يوم رأيتها أول مرة من سنين طويلة جدًا . . وعملت فى محسوبك جميلاً لا ينساه أبدًا» . .

«أيامها يا عم الحاج . . كان ميدان المشهد الحسينى هو . . هو . . الموقف بتاعى . . أقصد يعنى . . لا تنظر لى هذه النظرة الغبية يا دهل

يا ابن القحبة. . تظن أنى سأنكسف؟! لا وحياة أمك. . سأقول للبيه بصراحة!. . البيه الآن منا وعلينا».

«أيوه يا عمنا. . ميدان المشهد الحسينى كان الموقف بتاعى. . أصلى من غير مؤاخذة كنت مناديًا للسيارات مثل الولد سنجق الذى لابد أنك ركنت عنده كثيراً. . كنت شابًا صغيراً لكنى ولد عترة ومجدع وآخر تفتيح ومفهومية وأعجبك. . لهذا أحبنى الله وأعطانى من وسع. . المهم يا با الحاج أننى يومها يا دوبك أعطيت ظهرى للعربات مدة خمس دقائق بالعدد. . عملت فيها شغلاً!. . يعنى لقمة عيش متدارية. . أولاد الحرام أكثر من الهم على القلب. . منهم خمسة ستة يكرهوننى بسبب حلاوة لسانى ودردحتى مع الناس!. . عينهم فى اللقمة التى يكرمنى بها الله. . دبروا لى مغرزًا يزيحوننى به عن موقف العربات بأى شكل ليمسكه واحد منهم يدفع للباقين إتاوة وفردة وكلام فارغ مما لا أحبه ولا يمشى معى. . حلو لحد هنا»؟. .

«يا دوبك خطفت رجلى لشارع الأزهر يعنى لم أبتعد عن مبنى إدارة الأزهر الذى تركن العربات خلف ظهره. . كان الكلاكس المتفق عليه قد نادانى فجريت إلى العربة بسرعة مددت يدى من شباك العربة خطفت الحسنة وعدت: شال الحمام حط الحمام. . ما دريت إلا والصويت اشتغل!. . مش صوات صوات يعنى إنما حاجة تقترب من الصوات. . رميت نظرة إلى ناحية الصويت و الزعيق. . رأيت الست هند هذه. . شابة صغيرة فى حدود العشرين من عمرها لكن نفس الطول نفس الجسم نفس الوجه سبحان الله لم يتغير فيها شىء. . كانت تولول وهى تعاين ما حصل لعربتها الفولكس واجن الخنفسة من أضرار. غطاء الشنطة كان مفتوحًا بطفاشة ومرفوعًا! كما أن باب

السيارة كان مفتوحًا على وسعه والذى فتحه كسر زجاج الهواية ومد ذراعه منها أزاح أكرة المسوجر وفتح الباب . . الولية . . أقصد مدام هند . . جـعلت . . تقلب فى كل شىء وهى لا تكف عن الزعـيق والتهديد . . اتلم الناس . . فى غمضة عين جاء ضابط المرور . . العيال الأبالسة أتوا به من إشارة الدراسة بسرعة أكدت لى أن العملية كانت مدبرة لاختيار هذه العربة بالذات لأن باتش ميزان العدالة كان ملصوق على البرابريز القدمانى والورانى يعنى مصدر خطر . . الصياع المقاطيع أحاطوا بى وبالضابط وبالست هند» . .

«يا خبـر أسـود ومنيل بستين نيلة يا با الحـاج على مـا حصل لى لحظتها . . صرت أقول يا أرض انشقى وابلعينى . . دخت يا عمنا . . وحق من جمعنا على غير ميعاد كنت لحظتها أشوف الأرض بعينى وهى تنشال بى وبالجميع تدور بنا وتنقلب وأنتظر أن يردمنى التراب والهديم لكنى أرانى لا أزال واقفًا وعشرات الأيدى قابضة على ذراعى والضابط يستفهم من الست هند عما يكون ضاع من عربتها . . البلوى لم تكن فى العربة فكل ما يحدث مقدور عليه فى نهاية الأمر . . إنما البلوى يا با الحاج كانت محشورة تحت قميصى ما بين سرتى وبكية البنطلون تحت الحزام : أربع فرد حشيش يا عمنا . . كل فردة طول عدم المؤاخذة فردة الشبشب الزنوبة . . كان المفروض أن تاجر الحشيش القطاعى سيجىء بعد ساعة تقريبًا ليركن عربته هنا وبعد أن ينزل منها أميل أنا فى فتحة الباب بالفوطة على زعم أننى أنظف الأرضية والكرسى بينما أنا أدفس فرد الحشيش تحت الكرسى» . .

«يعنى رحت خلاص فى داهية . . ليس قدامى خرم إبرة أتنفس منه . . قال الضابط للست» :

ـ راجعتى كويس؟

قالت:

ـ كله تمام مفيش حاجة ضاعت.

«حمدت الله لكنها ربطت كلامها بذيل خبيث»:

ـ حتى الآن كل شيء موجود! لكن ماذا أفعل لو تذكرت بعد فترة ما تنساه ذاكرتى الآن؟

«هز الضابط رأسه فى اقتناع وأشار إلى جنديين معه»:

ـ هاتوه!

«وقال للست»:

ـ سنعمل له محضراً فى قسم الجمالية فلو تكرمت تعالى وراءنا بعربتك!

«هزت رأسها موافقة»:

ـ تفضل وأنا وراءك!

«عدوك يجرى له ما جرى لى يا عمنا.. الآن أنا متأكد يا عمنا بأن منظرى كان يصعب على الكافر وأنا معجون بين ذراعى الشرطيين وزغدات أولاد الأبالسة صياع الباطلية والغورية كأننى قتلت قتيلاً.. الدموع تفرفط من عينى كحنفية سائبة ولا أجد صوتى لأرفعه بالنواح.. كل ما فعلته يا عمنا أننى وهم يدفعوننى فى ظهرى بعنف لويت رقبتى نحو الست وطيرت إليها نظرة استرحام كنت واثقًا بأن قلبى ينط منها ليشرح لها بؤس حالى.. سبحان الله يا عمنا.. طب

تصدق بالله؟ . . هذه البصة كان لها مفعول الخلاص والرحمة . . الست فى الحال نادت يا حضرة الضابط من فضلك . . وقف الضابط . . جاءت إليه بابتسامة ربنا يعطينا ويعطيك من حلاوة شمسها . . خطت نحوى كالغزال . . بكل رقة خلصتنى من القبضات الحديدية وقالت لى بكل بساطة» :

ـ روح لحالك يا راجل أنت . . اتكل على الله وابقى خلى بالك من عربيات الناس!

«وأمسكتنى من حلمة أذنى قرصتها وهزتنى بقوة: فاهم؟ قلت فاهم يا ست هانم ربنا يكفيكى شر المصايب ولا يوقعك فى ضيقة أبدا . . وهى شكرت الضابط واعتذرت له وركبت عربتها ومشت . . وصعب على الضابط أن يمشى كما جاء بغير فعل فصفعنى وزغدنى ومشى يتمخطر كالديك الشركسى . . حمدت الله على النجاة بفضل هذه الست التى طلعت لى من تحت طقاطيق الأرض لتوحلنى ثم تنجينى . . كل يوم مر على بعد ذلك كانت صورة الست هند مرسومة فيه» . .

«حط نفسك مطرحى يا عمنا! . . حينما ترى هذه الست فجأة فى مكان كهذا! أنت الذى بقيت طول عمرك تتمنى أن تراها لتشكرها على ما قدمته لك من جميل! . . قل لى بحق الله والعلم الذى تعلمته إذا لم يكن هذا الوقت هو المناسب لرد الجميل فمتى يكون؟! قل لى يا عمنا متى يكون»! . .

«هذا هو كل الموضوع من طق طق لسلام عليكم يا عمنا . . يعلم الله أن غرضى شريف ومقصودى خير فى خير»! . .

«اللهم استر على ولايانا» . .

«الستر يا عمنا هو أصل مقصودى . . فهل أنا عايب فى هذا يا ناس»؟ . .

«إن كان غيرى ينكب على الست هند متعشمًا فى علاقة من نوع معين فأنا لست منهم»!

«يا عمنا . . ماذا تفهمه ـ عدم المؤاخذة وأنت سيد العارفين ـ عن معنى رد الجميل»؟! . .

«تتصور أننى أعطيها فلوسًا مثلاً؟ . . وماله؟ لو كانت محتاجة فإن رقبتى سدادة من جنيه إلى مليون وأنا قد القول»! . .

«أدافع عنها وأحفظ لها كرامتها وأستر عرضها؟ ماشى . . هذا هو رد الجميل حسبما أفهمه يا عمنا . . أليسوا يقولون: المثل بالمثل؟ خلاص . . الجميل الذى فعلته الست معى أنها سترتنى! نجتنى من السجن والفضيحة شدتنى من تحت أسنان الوحش قبل أن يغرس نابه فى لحمى . . فماذا فى ظنك يكون الجميل الذى يليق بى أن أفعله معها؟! على الأقل يكون من نفس النوع! نفس المستوى»! . .

«أما مسألة الزواج يا عمنا فهى حرة فيها تتزوج من تشاء . . ولو أنها تعقلت وشاورت نستطيع أن نوعيها . . وعلى كل حال إذا كانت تزوجت من المعلم عيد فيازين ما اختارت ويازين ما اختار . . ألف مبروك لهما معًا»! . .

«شوف يا عمنا كم الساعة الآن؟ انتصف الليل والمعلم عيد لم يجئ وهذا لم يحدث من قبل ابدًا . . كذا أم لا يادهل يا ابن القحبة شكلك؟! . . طبعًا . . هنياله يا عم . . طب قل لى: وأبو ميمى أين ذهب؟ والحاج حسين لماذا تأخر»؟ . .

«ما المانع أن يكون المعلم عيد دعاهما للسهرة معه احتفالاً بالزواج؟!.. زمانهم الآن مصهللين على سنجة عشرة ونحن قاعدون هنا فى انتظارهم»!..

«ما يضرش!.. شفنا مزاجنا نحن أيضًا!.. رص لنا يا ابنى طقم الحوحو خلينا نقوم نشوف حالنا»!..

«دوشناك يا أستاذ! بس بسطناك والا لأ؟!».

٢٤
انفجار البركان

في الواحدة من صباح تلك الليلة كان صابر حمؤه يتأهب لمغادرة التعريشة بعد يأسه من قدوم أحد من أقطاب السهرة الذين أكد لى تخلفهم أن القطيعة على وشك أن تدب بينهم نتيجة للشائعة القوية التى سرت بزواج المعلم عيد من هند سليمان. . كان صوت صوات حاد قد اندلع من بعيد وراح يتقحمنا شيئًا فشيئا بدرجة أرعبتنا. . يتزايد الرعب فينا كلما وضح أن الصوات طالع من داخل حدودنا، من بين حنايانا؛ إلا أن صابر حمؤه ظهر فى عينيه الصفيقتين اضطراب عظيم، أطلق زفرة عميقة اكتسحت ما يتراكم على صدره من آهات مكتومة، ثم ضرب ركبتيه بكفيه ونهض واقفا:

ـ «تصبحوا على خير»!

انصرف مسرعًا مضطربا بشكل يشى بأنه يبادر بالرحيل قبل أن تدهمه أخبار غير سارة. صرير صوت باب البستان الخارجى عند إغلاقه كان لا يزال يطن فى آذاننا حينما اقترب الصوات بدرجة تؤكد أنه من داخل البستان نفسه؛ بل صار فى قلب التعريشة التى نجلس فى حجرة منها؛ ثم صار أمامنا فى مواجهتنا تمامًا شاخصًا فى ثوب أسود فى داخله روح ملتاثة تنشال وتنحط ويعكس الضوء العليل ظلها

الأسود على الحيطان وفوق الأرض والكراسى والشيشة كتنين خرافى بعشرات الرءوس ومئات الأيدى والأرجل يزلزل الأرض بدقات رهيبة من قدميه ومن زئير يطلقه فيتكسر على وجهينا أسعد الدهل وأنا حيث تيبست مفاصلنا وانسحبت الدماء من عروقنا. بعد لأى تبينا أن هذا التنين الأسود الصارخ هو أم محمود زوج الخفير وهدان. .

ـ «مالك يا ولية سيبت مفاصلنا»؟!

هكذا استطاع أسعد الدهل أن يقف على ساقيه المرتعشتين وهو يعيد عليها السؤال المفجوع من حلق جاف متصلب. .

اندفعت الحمم الصوتية الملتاثة من فم التنين:

ـ «المعلم عيد مات يا أسعد! المعلم عيد مات يا أسعد! المعلم عيد». .

وكأنها ملحن يكرر تيمة لحنية اكتشفها ويريد حفظها؛ راحت تكرر الجملة على إيقاع من اللطم على خديها. .

أخذت الأرض تدور بى فى دوامة معتمة، صار كل همى فى الحياة لحظتئذ أن أحتفظ بتنفسى أطول وقت ممكن؛ مع ذلك سمعت أسعد الدهل يردد فى ذهوله:

ـ «المعلم عيد مات؟! إزاى سعادتك»؟!

صرخ التنين الأسود:

ـ «سقطت به العربة من فوق كوبرى منشية ناصر! ولد صايع كبس عليه بموتوسيكل من الشمال ففاداه فراح هو»!

قالت أم محمود هذه العبارة مفككة، كأن عشرات السكاكين فى

يدها تقطع فى لحمنا فى انتظار كلمة جديدة تقولها. صفق أسعد الدهل كفا على كف صائحًا فى ولولة:

- «يعنى المعلم عيد أول شهيد لطريق الأوتوستراد؟! يعنى ينجى الحوش ويموت هو؟! مصيبة إيه دى»؟!

وقع العبارة فى أذنى كاد يدعونى للضحك؛ فلما رفعت رأسى بصعوبة ونظرت إليه وجدته فى منتهى التعاسة والغلب، مقعيا على الأرض يبكى بحرقة؛ ووجدت زوجه أم جيجى وبناتها الثلاث قد جئن وأقعين فى فتحة الباب تعيسات ذاهلات بعيون حائرة تسبح فى بحيرات من الدمع الهتون. سمعتنى أقول:

- «الحاج حسين الوراق وأبو ميمى يعرفان بالخبر»؟

قالت المرأة المولولة:

- «هم أول ناس عرفوا بالخبر!.. الحاج حسين وأبو ميمى كانا فى ورشة الأسطى حسين قشطة ساعة الحادثة بعد صلاة العشاء بوقت قليل!.. والولد بلية صبى الأسطى حسين شاف الحادثة ساعة ما وقعت فجرى وبلغهم الخبر.. طاروا إليه! لحقوه والروح فيه! نقلوه إلى مستشفى الحسين واتصلوا بعياله فجاءوا وهو يطلع فى الروح!.. المناحة الآن نارها مشعللة فى مستشفى الحسين والدنيا كلها مقلوبة هناك»!

تلبستنى قوة مفاجئة فانتفضت واقفًا. أخذت معى أسعد الدهل إلى المستشفى. التقانى الدكتور هانى عيد أبو القاسم بعيدًا عن الزحمة؛ من خلال البكاء المتدفق حاول التلميح بعبارات مضطربة ملتاثة بأن فى الحادث شبهة جنائية قوية إذ إن المعلم عيد وهو يتشبث بروحه كان

يهذى: الموتوسيكل! الكلب! الكريك! دماغى! عينى! . . قال إن المعاينة الأولية رجحت أن سيارة أبيه تلقت خبطة عنيفة فى الباب الأيسر فانحرفت السيارة إلى اليمين انحرافة حادة طائشة أخذت السور الحديدى وسقطت فى الأرض على بوزها وألقت بالمعلم عيد إلى بعيد تحت الكوبرى قبل أن تنقلب على سقفها فوق أحد العمال الفنيين الذين كانوا يعملون فى التشطيبات النهائية لهذا السور الذى اتضح أنه ـ فى نظر الدكتور هانى ـ يصلح بالكاد لنشر الغسيل يعنى بدلاً من أن يكون مصداً للخطر صار هو الخطر نفسه: قال أيضاً إن السيارة التى كانت فى اليمين خلف سيارة أبيه مباشرة لطشها الجنب الخلفى لسيارة أبيه فى الجنب الشمال فعجن بيت الموتور كله ونجا السائق بأعجوبة ليكون هو الدليل الوحيد على أن موتوسيكلا طائشاً مستهتراً هاجم سيارة أبيه من الشمال وأن شخصاً كان راكباً خلف سائق الموتوسيكل ضرب أباه بكريك عدة ضربات أصابت كتف المعلم وشوهت الباب؛ ولكن الدكتور هانى غير قادر على تصور كيفية حدوث هذا وإن كان موقنا بأن فى الحادثة شبهة جنائية لابد من كشفها عاجلاً. شاركته العشم فى عدالة الله سبحانه وتعالى بكشف الجانى. .

لم أذق طعم النوم مطلقاً، مجرد إغماءات متقطعة وأكثر إثارة للإرهاق. أخيراً رميت بنفسى على الأرض واقفاً، تحممت لعلنى أفيق، انطلقت من فورى إلى قصر المعلم عيد أبو القاسم، شاركت فى تشييع الجنازة، بقيت مع الدكتور هانى وإخوته والحاج حسين الوراق وأبو ميمى والأسطى حسين قشطة وعدد من ألمع الطربية المعلمين، منهم معلم كان ابنه وزيراً شهيراً ذا سطوة وحظوة وعزوة. فى المساء جاء عياله الغرباء من انجلترا وأمريكا وفرنسا والخليج العربى؛ أقيم سرادق كبير مهيب على طول وعرض المساحة بين حرم القصر ورصيف

الشارع، لعلع الشيخ عبد الباسط عبد الصمد بالتبادل مع الشيخ الطبلاوى حتى قرب منتصف الليل؛ حضر للعزاء وجهاء كثيرون من رجالات الدولة لا يتصور المرء أنهم يعرفون المعلم عيد أبو القاسم، بله أن يكونوا من أصحابه؛ إلا أنه من السهل إدراك أن هيبة العزاء دائمًا لا تكون تعبيراً عن قدر الفقيد ومكانته بقدر ما هى تعبير عن مكانة وارثيه؛ لا غرابة إذن والمعلم عيد ـ رحمة الله عليه ـ له أولاد ذوو شأن عظيم لكل منهم محيط من علية القوم ونخبة المجتمع . .

فى الليلة التالية أقيم سرادق عزاء مماثل فى حى القرافة أمام الحوش امتلأ عن آخره بالمعزين من كل مكان. وقد دفن المعلم عيد فى المقبرة التى أقامها جده الكبير على مقربة من مدفن ظاظا باشا داخل الحوش الكبير.

انصدت نفسى عن القرافة تمامًا؛ فكرت فى الاستغناء عنها وبدأت بالفعل أحاول ترويض نفسى على الانسلاخ من جوها واعتياد أجواء أخرى سوف اكتشف فيها عوالم جديدة بأجواء مختلفة ربما تكون أكثر غنى بالنماذج الإنسانية. أنفقت أيّاما كثيرة أتنقل بين أماكن عديدة فى جميع أنحاء المدينة أستكشف المقاهى والمشارب الجديدة والقديمة فلم أجد سوى الابتزاز والضجيج والسفالة والشعور بالإحباط وبالاغتراب لدرجة أننى كنت أعد أيام ابتعادى عن القرافة باليوم. وفى عصرية اليوم العاشر أفقت من شرودى الكئيب على سيارتى ماضية بى فى شارع الأزهر فى طريقها إلى القرافة كأن شخصًا غيرى يقودها . .

وإذ وجدتنى فى قلب القرافة بالفعل فطنت إلى أننى يجب أن أعدل سكتى مبتعداً عن طريق البستان معرجًا على ورشة الأسطى حسين قشطة. لقد أصبحت أجفل من سيرة التعريشة والبستان؛ لكننى كنت

مع ذلك مشوقًا لمعرفة أنباء ما تم فى حادثة مقتل المعلم عيد أبو القاسم هل تكشفت معلومات جديدة؟ هل توصلت تحريات المباحث إلى شيء عن الجانى؟ . . إلخ . .

حين ركنت سيارتى فى الممر المعتاد فى زمام الورشة كان الواد بلية قد لمحنى؛ جاء مهرولا، أشار لى فتبعته إلى ما خلف حوش خوند. فوجئت بالقعدة حابكة: الأسطى حسين قشطة والحاج حسين الوراق وصابر حمؤة وضابط النجدة وجيه. كان شيء من التوتر يتمشى بين ملامحهم جميعًا، يكثرون من التلفت حواليهم فى توجس ملفوف بجسارة زائفة، ينزعجون لأى حركة مفاجئة أو ظل يزحف على الأرض نحوهم. قام الأسطى حسين قشطة عن الكرسى وأجلسنى ثم جلس فوق شاهد حجرى غاصت مقبرته فى الأرض إلا القبة المستطيلة. سرعان ما انتقلت عدوى التوتر إلى أعصابى من منظر الحزن المرسوم بوضوح على وجوههم: أيكون الحزن على المعلم عيد وراء هذا التوتر؟ لم أركن إلى هذا التبرير لأنهم تتفلت منهم ضحكات مرحة لا تنم عن أى حزن بل هى الهزل بهذه النكت الماجنة التى يرويها صابر حمؤه عن طائفة العربجية، إلا أن الضحكات ماتلبث حتى تؤوب إلى صمت تتخلله زفرات من الحاج حسين الوراق يتبعها بعبارة: لك الأمر يا صاحب الأمر!

قلت للواد محمود وهو يقرب بوصة الجوزة من فمى:

ـ «فيه إيه يا محمود؟ حصل حاجة هنا»؟!

قال محمود فى دهشة:

ـ «ما تعلمش حضرتك»؟!

نحيت البوصة عن فمى مؤقتا :

ـ «لا! فيه إيه؟ إيه يا جماعة»؟!

قال الأسطى حسين قشطة بلهجة كالرثاء :

ـ «أبو ميمى بعيد عنك»!

ـ «ماله»؟!

ـ «اتمسك فى قعدة بودرة بيشم هيروين فى مدينة نصر! . . فتشوه لقوا معاه متين جرام! خدوه طبعا بقى له خمسة أيام والنهاردة النيابة ادت له استمرار حبس أربعين يوم»!

ـ «يا خبر اسود! يعنى قضية كبيرة»!

هتف صابر حمؤة من حلقه الغليظ :

ـ «فيها على الأقل عشر سنين حبس مع الرأفة»!

كل شعرة فى جسدى وقفت متصلبة. صاح الحاج حسين الوراق فى ابتهال :

ـ «منه لله اللى كان السبب! مصيبة واتدبرت له تمام يا با الحاج! تلبس ما تخرش الميه وتفتيش بإذن النيابة! . . اللهم اكفنا شرور الخلق يا رب»!

أصابنى الخرس فوق التوتر؛ لكننى مالبثت حتى اعترتنى حالة تشبه الاستبياع، فقدت ـ عن عمد لست أدرى دوافعه ـ الإحساس بالشرطة وبكل من حولى؛ استغرقتنى حالة من الغياب لم أفق منها إلا على صوت الأسطى حسين قشطة يدعونى إلى تشريفه فى المكتب فى الحجرة الفردانية :

ـ «فاكره؟ من فات قديمه تاه! أنا منضفه تمام! صلحت النور! بابنا يتقفل علينا! . . قصادنا باب البيت! لو احتجنا أى شىء نقف على باب المكتب ونقول يا هادى . . هادى ده ابنى الكبير انت عارفه! بمجرد ما تنادى حيطلع لك واحد من العيال تقول له هات شاى، هات قهوة، هات أكل، هات نار، غير الشيشة ما يهمكش! وأنا ساعتين تلاتة كده وأقفل الورشة واجيلك أنا والحاج حسين»! . . ليلتك فل لحد ما أشوفك.

رغم أن المكتب دكان كزنزانة السجن الانفرادى إلا أنه ذو حميمية خاصة، الحصير المفروش على أرضه وفوقه الكليم الصوف والمساند السميكة الخاصة بالكنبة، والكنبة نفسها وحلاوة الاسترخاء عليها، إنها كنبة عجيبة إذا تمددت فوقها غفوت بعد ثوان. يبدو أننى كنت مدفوعا إلى حب هذه الكنبة توثيقا لألفتى مع الدكان لشعورى بأننى ربما أقضى فيه الكثير من ليالىّ المقبلة.

أثار دهشتى فى سهرات الدكان أن الحاج حسين الوراق ظهر فيها بشخصية تكاد تكون مختلفة عن تلك التى عرفتها وألفتها فى سهرات التعريشة؛ فوجئت به داهية من الدواهى العظمى، قشرة البلاهة على سمته هى سرقوته وهو موهوب فى استخدامها ببراعة لا مثيل لها. الفرق بين بلاهة وجه الدهل وبلاهة وجه الحاج حسين هو أن بلاهة الدهل وراءها قلب إنسانى موجوع بآلاف الجروح المجهولة والمعلومة تبث فى دماغه أخيلة عبثية عدمية لكنها لا تخلو من عظة وبعض حكمة وطرافة مسلية مؤنسة! أما بلاهة الحاج حسين الوراق فوراءها عقل عملى تجارى جبار لا يعرف الرحمة ولا الإنسانية قاطع كالسكين بشفرة ماضية يخطط لكل صغيرة وكبيرة فيما هو لابد فى حقول القصب وراء لحيته السنية فوق بشرة جرداء قحلاء من المشاعر كالثعلب يدبر

للانقضاض فى اللحظة المناسبة عائدا فى الحال يتستر خلف قناع البلاهة اللامع كالزلطة، مما يوهمك ويُدخل فى روعك بأنك تتعامل مع رجل صالح تقى ورع برىء من نوايا الغش والخبث والغدر، تعطيه كل الأمان وأنت لا تدرى بأنه قد نشَّن على الشريان السالك فيك وراح يمتص دمك دون أن تظهر عليه النشوة!

فى سهرة الدكان شاهدت الحاج حسين الوراق وهو يستقبل عمالاً يشتغلون فى السوق لحسابه يبيعون سلعا تحقق أرباحًا بالملايين ويتقاضون عمولات تافهة وهم مع ذلك يلهجون بشكره العميق لأنه يبرع فى إقناعهم بالصورة التى يرسمها لشخصية الخسران فى البيعة غير أن قلبه لا يطاوعه على قفل أبواب الرزق فى وجوههم حتى ولو خسر الجلد والسقط!! وإذن فهذه العمولات التى يتقاضونها تعتبر منحة منه وليست حقا أهدروا فى سبيله عرقهم وعافيتهم وربما حياتهم الرخيصة. لقد كرهته جدا، تجرعته كالعلقم، كاد يدفعنى للجنون، فكرت جديا فى مناهضته وتوعية هؤلاء العمال بحقوقهم عنده، لكننى ما لبثت حتى تيقنت من أنهم سوف ينقلون إليه كل ما يدور بينى وبينهم وفى النهاية سينضمون إليه ضدى، تيقنت كذلك من أنانيته البالغة حد الخسة والانحطاط فى سبيل أن يفوز باللقمة قبل أن تمتد إليها يد غريمه، وكل الناس له غرماء وخصوم حتى وإن كانوا من أهله بل وعياله أحيانا!! . . صرفت النظر عنه مكتفيا بالحذر منه بقدر ما أستطيع من لطف ولباقة . .

كنت أذهب إلى الدكان مبكرا حتى أستفيد بفترة المساء الهادئة لإنجاز بعض ما أود إنجازه من قراءة أو كتابة لتبقى السهرة محض فرجة وتحصيل خبرات من ناس درجنا نحن المثقفين ـ وربما المتعلمين بوجه

عـام ـ على الاسـتـهـانة بشـأنهم وهم فى الواقع يمسكون بمصـائرنا بين أيديهم ويستحوذون على اقتصادنا بالدجل والشعوذة . .

باب الدكان كان مفتوحا على وسعه عصر ذلك اليوم ؛ وكان الواد محمود قد سقانى عشرة حجارة ثم ذهب إلى عشة الورشة ليغير ماء الجوزة ويأتى بحجارة ونار جديدين ؛ وفيما أنا مطرق فى الأرض أحاول تجميع دماغى المشتت ، شاهدت ظلا يزحف على الأرض يأخذ شكل أنثى رائعة الصدر رشيقة القوام ؛ تعرفت عليه فى الحال ، رفعت رأسى معلنا الترحيب الحار المبتهج ؛ وإذا بهند سليمان مقبلة من العطفة الشبيهة بالكوع ، تنثر حواليها نظرات استطلاع تجوس بين ممرات المقابر العارية تحاول معرفة إلى أى الجهات تسلك هذه الممرات؟ سرعان ما ظهر الأسطى حسين قشطة متخلفا عنها بضع خطوات فاشخا حنكه بابتسامة ظافرة . .

جلست مدام هند بجوارى على الكنبة بعد أن رفعت الشال القطيفة عن كتفيها وكومته بينى وبينها . بقى الأسطى حسين واقفا . أتى الواد محمود وأقعى أمامى واضعا أشياءه على الأرض ؛ مال الأسطى حسين ورفع خشبة الحجارة وجعل يرصها بتوقيعات الحشيش وهو فى حالة زأططة صبيانية حميمة . .

قالت هند وهى تزيح البوصة عن فمها قبل أن تصل إلى شفتيها فيما تسلق الواد محمود بنظرة تأنيب حادة :

ـ «تعرف أنى لا أشرب يا محمود! أدخن السجاير غصبا عنى وهى تكفى لحرق صدرنا وفلوسنا!» .

ثم توجهت بنظرها نحوى فى دماثة :

ـ «أخبار حضرتك إيه يا أستاذنا؟» .

- «بخير يا مدام هند! إيه أخبارك انتى؟».

- «صاحبتى الست الكبيرة التى تعرفها تعبت فى مصر! لا شغلة ولا مشغلة! الصحافة تسبب لها وجع الدماغ! ناس كالذباب يريد أن يستفيد من مصائب الناس!.. تصور أن بعضهم ألح عليها أن يكتب لها مذكراتها؟ هى ناقصة؟ هى ما صدقت أنها نسيت!.. هؤلاء هم الذين طفشوها! رجعت إلى لبنان لتموت بين صحابها أكرم لها من المتاجرة بمصائبها وأعصابها!.. حجزت لها وسفرتها منذ حوالى أسبوع واليوم كلمتها فى بيروت بالتليفون! ربنا معها»!

الأسطى حسين والواد محمود كل منهما ظهر فى عينيه أنه يحاول أن يتكهن الشخصية التى تتحدث عنها؛ كان الفضول واضحًا فى عينيهما والسؤال عمن تكون ينط من عيونهما! انسحبت من لسانى لإسكات هذا الفضول قبل تفشى الظنون:

- «الست هند تتكلم عن خالتها المتزوجة فى بيروت من رجل مهم»!

فعظمت الدهشة على وجهيهما لا أدرى أمن التصديق لما قلت أم من رفضه. قال الأسطى حسين فى وجل وبحسن نية:

- «حضرتك حتباتى هنا الليلة إن شاء الله»؟

قالها بأخوة كأنه صاحب البيت، يسره أن يبيت أخوه فيه؛ إلا أنها رمقته بنظرة متحدية انغرست حرباتها فى عينيه:

- «عندك مانع يا اسطى حسين»؟!

دفن المسكين رقبته بين كتفيه مبتسمًا فى ارتباك عظيم:

- «العفو يا مدام! أنا قصدى عشان نخلى بالنا! نحرسك يعنى»!

ـ « الحارس هو الله يا اسطى حسين! ما تشغلش بالك»!

ثم وقفت؛ بخطوة واحدة من ساقيها الطويلتين صارت على عتبة الباب؛ رمت عقب السيجارة على الأرض وداسته بحذاء في لون الهافانا، يبدو وكأنه لم يدس بعد على الأرض من فرط أناقته ولمعانه وأصالة جلده. ثم ارتدت الخطوة نفسها فسحبت الشال طرحته على كتفيها:

ـ «سلام يا جماعة! ليلتكم فل إن شاء الله»!

ميزتنى بنظرة ودودة مبتسمة فى تخصيص واضح، هزت لى رأسها فى تحية تكاد تنطق بعبارة: لنا لقاء؛ لوحت بذراعها إذ هى تعتدل على الطريق وتمضى كغزال سرمدى الأنوثة والفتوة والشباب. .

بعد انصراف الأسطى حسين قشطة والواد محمود صارت عباءة الليل كأنها من الجوخ الإمبريالى الأسود قد انطرحت فوق المقابر والأرض والمصاطب. . بدت غيات الحمام المصنوعة من شرائح الخشب البغدادلى فوق بعض الأحواش العالية من حوالى هذه الدائرة الضيقة، كأنها ـ الغيات ـ أعشاش لكائنات شريرة غير مرئية سيما إذ يهيج الحمام فجأة لتحدث رفرفة أجنحته ضجيجًا مفزعًا. .

أغلقت باب الدكان من الداخل بالترباس؛ أطفأت اللمبة المدلاة من السقف، أضأت عمودى النيون المتقابلين مثبتين على الحائطين المتواجهين من أمامى ومن خلفى. فتحت حافظة أوراقى، سحبت كراسة هند سليمان، تمطرقت على الكنبة ممددًا ساقى، ساندا رأسى برقبتى على مسند مسنود بدوره على الحائط المواجه للباب. . شرعت أتصفح الكراسة فى شغف كبير متمنيا ألا يقطع خلوتى أحد إلى أن أنتهى من قراءة آخر سطر فيها بكل دقة وتركيز وانتباه. . . . . . .

٢٥
مأساة فى كراسة هند سليمان

منذ ما كانت طفلة زغنطوطة وهى عاشقة للأمومة، لا تقبل فى أعياد ميلادها أية هدية إلا عروسة، فإن جئ لها بشىء آخر رمته على الأرض وصرخت ودبدبت بقدميها، لا تكف عن الصريخ والضجيج إلا إذا نزل أحدهم واشترى لها عروسة، حبذا لو كانت ذات حجم كبير.. طول عمرها لها فى البيت حجرة خاصة بها وحدها من يوم ما ولدت، أصبحت متحفًا للعرائس من كل لون وحجم.. حتى بعد أن كبرت وصارت صبية يافعة فى مدرسة فرنسية يلتحق بها الطفل من طور الحضانة ويخرج منها حاملاً شهادة التوجيهية تتوجه بها إلى الجامعة؛ كانت لا تزال تحب تجميع العرائس من حواليها لتحنو عليهن، فوجدت فى زميلاتها وزملائها مدينة من العرائس الحية جذبتهن إليها أمومتها المتوقدة.. كانت لهم أمًا حقيقية بالفطرة، تشترى لهم ولهن الهدايا فى المناسبات بل هى التى تقيم هذه المناسبات إن لم يكن على نفقتها فبتدبير ذكى تجمع النفقات من الميسورين منهم.. اعتادت خدمة من يتواجدون حولها لا تدخر وسعا فى الدفاع عنهم لرد أى عدوان عليهم، ولا فى معاونتهم على حل مشاكلهم وتخفيف همومهم.. فى الخامسة عشرة من عمرها نالت التوجيهية من المدرسة الفرنسية فى الوقت الذى نضجت فيه أنوثتها بشكل أثار قلق العائلة.. ابن خالتها

كان يحبها بجنون وهى كانت معجبة بجده واجتهاده وحصوله على إجازة الدكتوراه فى الاقتصاد السياسى من جامعة أكسفورد فى سن مبكرة جداً تشى بنبوغه وتفوقه . . تقدم لخطبتها، وافق الأهل ووافقت . . أقيم لهما فرح مهيب فى فندق هيلتون النيل حضره أعضاء اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى وقيادات منظمة الشباب وكثيرون من وجهاء مصر من العائلات السياسية العريقة الصديقة لعائلتى العروسين . . عين العريس أستاذا فى كلية جديدة أنشئت حديثًا للاقتصاد والعلوم السياسية، فتقدم بأوراق خطيبته إليها . . فى عام ألف وتسعمائة وأربعة وستين تخرجت «صفية» ـ فليكن هذا هو اسمها ـ ضمن أول دفعة بتقدير جيد جداً، وكانت فى نفس الوقت أنجبت ولدين جميلين، زوجها قارئ نهم وذو فكر متماسك وصاحب وجهات نظر مهمة فى فلسفة الاقتصاد السياسى وطبائع البنية الاجتماعية للأنظمة السياسية والعقائدية، ولذلك يضيق مدرج الجامعة على رحابة أفكاره الغزيرة التى لا يتسع لها المنهج المقرر، فيضطر إلى طرحها فى مقالات لمجلة الطليعة ومجلة دراسات اشتراكية وصفحة الرأى بجريدة الأهرام وفى كتب يساهم من جيبه الخاص فى الإنفاق على طبعها، ولأنه كان مؤمنا بفكره عن دراسة واستيعاب وموهبة فقد تعلم بفطرة الشعور فنون بلاغة التعبير والقدرة على مخاطبة أعرض مساحة ممكنة من عموم القراء فبات مشهوراً كصحفى وكاتب أكثر من شهرته كعالم اقتصادى مرموق فى كثير من جامعات الشرق والغرب . . أصيبت صفية بعدوى القراءة حتى ضاق البيت بمكتبتيهما معا، كما ضاق الوقت بينهما عن الاستطراد فى المناقشات الفكرية والفنية والسياسية التى كانت تقوم بينهما فى بداية العلاقة، انصرف كل منهما إلى أفكاره يكابد كيفية التعبير عنها بوضوح وشفافية . . بحكم

تفوقها فى الدراسة إضافة إلى نفوذ زوجها عينت فور تخرجها محررة بوكالة أنباء الشرق الأوسط فانفتح أمامها سلم الترقى بسهولة نظراً لنشاطها الغزير ووعيها بما تفعل وارتفاع مستوى التعبير عن أفكارها . . فى بحر سنوات قليلة أصبح زوجها مرشحًا لعمادة الكلية وأصبحت هى مرشحة لرئاسة التحرير ، وكانا قد أنجبا مولودهما الثالث طفلة أجمل من القمر . .

التنافس كان محتدما بينها وزوجها فى تعظيم حب الوطن مصر ، كلاهما كان جاداً فى إخلاصه للضمير العملى والوطنى معًا ، حلمهما كان مشتركا ، بسيطًا كان ومحدداً على ضخامة طموحه : التحرر الوطنى من كافة الاحتلالات الأجنبية ومن كل القيود البالية المعطلة لحرية الإنسان ؛ العدالة الاجتماعية بالقضاء على الفوارق الطبقية الحادة وإنصاف عرق العامل والفلاح ، والوحدة العربية التى كانت برغم فشلها التجريبى المبدئى فى تجربة اتحاد مصر وسوريا فى الجمهورية العربية المتحدة ، لا تزال واقعًا ماثلاً ليس يعوق تحقيقه إلا خلافات الحكام . . لم تكن صفية ـ ولا زوجها ـ ماركسية الهوى ، إنما كانا معًا مصريين يؤمنان بالديموقراطية البرلمانية فى ظل مجتمع يسوده ـ حقًا ـ مبدأ الكفاية والعدل ، زوجها الذى يكتب عن الحرية والعدالة والوحدة يصحو مبكرًا ليدرك صلاة الفجر جماعة فى أقرب مسجد . ومع ذلك يؤمن إيمانًا قاطعًا بأنه لا دخل للدين فى السياسة ولا للسياسة فى الدين ، فالدين لله والوطن للجميع ، وكانت هى على نفس الهوية . .

بعد رحيل الزعيم الخالد جمال عبد الناصر وقيام ما سمى بثورة التصحيح الساداتية التى أطاحت بجميع رموز العهد الناصرى ثم ظهر بوضوح الاتجاه إلى تفكيك النظام وإطلاق سراح رأس المال الطفيلى

يبرطع فى البلاد وكذا إطلاق سراح أعداء الثورة من مصطفى أمين إلى الإخوان المسلمين، أصيب زوجها بالكآبة، كل كتاباته أصبحت مستهدفة للمنع والشطب والتأجيل والمراجعة؛ ظهرت فى الأفق ميول عدوانية تجاه كل من يحمل فكراً محترمًا مستنيراً، ثم أرخيت الأعنة للتيار الدينى فانقلب إلى إرهاب دموى، استشرت ظاهرة القبض العشوائى على المواطنين لأى سبب من الأسباب وما أكثرها . . ظل كلاهما ـ صفية وزوجها ـ متمسكًا بجذوره مفضلاً البقاء فى بلده إلى أن فاض الكيل بعدد كبير من المثقفين الأصلاء أوشكوا على الاختناق فكان لابد من الهجرة إلى منفى اختيارى . . لم يكن أمامهما آنذاك أنسب من لبنان، فلزوجها علاقات واسعة بجميع الصحافة اللبنانية يكتب فى معظمها وعلى علاقات متينة بمفكرين وسياسيين وأدباء كما أنه صديق شخصى للمناضل الفلسطينى ياسر عرفات وجميع الرءوس الكبيرة فى فتح ومنظمة التحرير الفلسطينية . . التحق هو كاتبًا سياسيًا بإحدى الجرائد اليومية السيارة المرموقة بمرتب شهرى يساوى ما كان يقبضه من مصر فى عام كامل؛ والتحقت هى مديراً للتحرير فى وكالة الأنباء الفلسطينية (وفا) . . كل منهما عثر على متنفس يفرغ فيه طاقته المستوية الجاهزة للعطاء بغير حدود . . كان هو يكتب عموداً يوميًا فى الصفحة الأخيرة بطول صفحة الجرنان ويكتب دراسات وأبحاثا ينشرها فى عديد من المجلات والدوريات المتخصصة، أما هى فكانت تتلذذ بوجودها فى قلب الخطر الذى أصابها بتوتر لذيذ ساحر نظراً لارتباطه بالحلم الوطنى العربى الممثل بالدرجة الأولى فى استرداد أرض فلسطين السليبة من العدو الصهيونى الدخيل؛ احتفظت بعملها الصحفى ونزلت المعسكر، تدربت على جميع أنواع الأسلحة، على المناورات، على القيام بعمليات، على حرب العصابات؛ شاركت فى عمليات،

نفذت وحدها عمليات صغيرة بسيطة فكبيرة مركبة من عدة مراحل تقوم هى بمسئولية تخطيطها والإشراف على تنفيذها بكل دقة ؛ لم تكن تنتظر أجراً ولو فكرت فى انتظاره ما نفعت أصلاً ، إنما كانت تفعل ذلك عن قناعة بأهميته لخدمة قضية قومية تؤمن بها هى القضية الفلسطينية التى هى فى نظرها أم لجميع القضايا العربية المصيرية ؛ أجرها الوحيد الذى يسعدها حقًا هو نجاح أى عمل تقوم به ـ صحفيًا كان أو نضاليا ـ فى تحقيق أهدافه المرجوة ؛ كانت أشد من زوجها حنبلية فى مسائل الضمير وشرف العمل الوطنى ؛ تجمعهما هذه الخصيصة المشتركة على كراهية المرتزقة بجميع أنواعهم على جميع مستوياتهم فى العالم أجمع وبخاصة فى بلادنا العربية التى يفوز بخيرها المرتزقة إذ إن جميع حكامها ومسئوليها مغتصبون للسلطة ولابد لهم من أيد مأجورة للقمع والسحل والوشاية ووضع العراقيل فى سكك الشرفاء غير المتعاونين وإلقاء التهم على كل من يزمزق أو يضجر من سلطنة السلطان . .

لم يكن العيال مشكلة بالنسبة لهما فى بيروت الجميلة التى تتعايش فيها الأضداد ؛ يقضى العيال فى المدارس معظم النهار وفى الليل تجتمع الأسرة ليراجع كل فرد فيها واجبه ، والبيت إذا سادته الجدية والصرامة والاحترام والوضوح الكامل ـ كبيتهما ـ صار أطفاله رجالاً وإن كانوا فى سن الحضانة تنتقل إليهم عدوى النظام والجدية والاعتماد على النفس وقوة الاحتمال وبخاصة إذا كانوا يرون الأب والأم فى عمل دءوب يخلصان له ويؤديانه بحب وتفان . . هكذا ربى عيالها الثلاثة وباتوا يبشرون بنبوغ فى الدراسة والحياة . .

لبنان الجميلة بطبيعتها الساحرة وأهلها اللطفاء الرقاق وروحها العملية الخصيبة باتت جحيما بمعنى الكلمة فى قتال يومى بين الطوائف والملل . . الحياة مع ذلك مستمرة تحت القصف المتبادل العشوائى

الغشوم، العمائر الفاخرة تتهاوى فينخض الجبل يفزع، الكردونات والكمائن وبوابات التفتيش فى كل مكان والحياة فى منتهى الصعوبة إلا على قلة من المعروفين للأوساط المتقاتلة . . قنبلة غادرة سقطت على مقر الجريدة التى يعمل فيها الزوج، نسفت الرءوس المبدعة وخلطت أشلاء الأجساد بالهديم بخردة المكن، استخلصوا جثة زوجها الحبيب نتفا صروها فى ملاءة . . حزنها الذى شق كبدها كان ضئيلاً أمام هذا التكريم الذى أحيطت به رفات الرجل، نعته جميع صحف العالم العربى وكثير من الصحف الأجنبية وأقيمت فى تأبينه ندوات وبرامج تليفزيونية كما نشرت فى رثائه دراسات وأبحاث فى فكره ونظرياته وشخصيته الدمثة الخيرة . .

قلبى عليك يا حبة قلبى يا صفية؛ هكذا صرخت أمها المسكينة حينما بلغها الخبر فى مصر، وقعت ميتة، كانت الأم تقيم مع ابنها الوحيد بعد رحيل أبيه الحكمدار وكان بدوره ضابط شرطة برتبة لواء ولكن نظراً لتدهور حالته الصحية بسبب علة فى القلب من ناحية ولثقافته من ناحية أخرى، كلفوه بإدارة العلاقات العامة لديوان وزارة الداخلية وحيث كان هو الذى ينتظر الموت فوجئ بموت أمه التى كانت بصحة جيدة . كان الحوش مهجوراً منذ أن دفن فيه أبوه فجدده ونسق أشجار الصبار وكأنه كان يجهزه لنفسه، وبالفعل لم يمر أكثر من ثلاثة أشهر إلا وقد توقفت دورته الدموية وهو جالس إلى مكتبه فى ديوان الوزارة، تولى أخواله عملية دفنه فى موكب جنائزى عسكرى مهيب . .

وقعت المسكينة من طولها لحظة تلقيها الخبر ؛ المؤسف أن الخبر وصلها شفويا بعد حوالى خمسين يومًا من رحيل الخال، يعنى لم يقدر لها المشاركة فى تشييع جنازة أمها أو أخيها وهما آخر من تبقى من

أسرتها أي أنها فقدت زوجها وأمها وأخاها وراء بعضهم فى بضعة أشهر قليلة . . غير أن الألم الذى قطع نياط قلبها أشد من ألم الفراق كان ألم الحرمان من الوطن ؛ ذلك أن صديقها الكاتب الفلسطينى ممثل المنظمة فى مكتب القاهرة هو الذى نقل إليها خبر وفاة كل من أمها وشقيقها نقلاً عن خالها وكيل وزارة الثقافة والمسئول الإدارى عن العلاقات الثقافية الخارجية ، وفسر لها سر عدم الرد على خطاباتها وبرقياتها والعراقيل التى كانت تلقاها كلما حاولت إجراء مكالمة هاتفية مع أحد من أهلها أو أهل زوجها فى القاهرة حيث الخطوط متقطعة ومتداخلة والأصوات مضخمة مبهمة غير واضحة من فرط الخرخشة والشوشرة ؛ وكانت هى قبل رحيل زوجها على ذلك النحو المؤلم قد تلقت منه خبراً اعتبرته نكتة ، قال لها إن مصادره السرية فى القاهرة أنبأته اليوم أنه وزوجه وعياله قد سحبت منهم الجنسية المصرية بأمر من الرئيس السادات ، وصدر قرار بمنعهم من دخول البلاد أو القبض عليهم إذا دخلوا باعتبارهم من أعداء مصر ، ولأن زوجها كان يفيض بالسخرية وهو ينقل إليها الخبر مصحوبًا بعبارات تندد بهذا الرئيس الذى اعتبر النقد الموجه إلى سياسته هجومًا عدوانيا على مصر نفسها! ويؤكد لها ولعياله أن هذه ـ وإن صحت ـ تعتبر طرفة من طرف التاريخ لن تتحول إلى واقع لأنه لم يخلق بعد من يملك أو يستطيع حرمان مواطن من وطنه مهما بلغ من سطوة وجبروت وجنون ؛ لهذا لم تحفل صفية بالخبر ولم تحاول حتى الاستيثاق من صحته ؛ فلما تأكدت من رسالة خالها الشفوية عبر صديقها الكاتب الفلسطينى أنها لا تزال ممنوعة من دخول وطنها تعاظمت أحزانها وشعرت بأنها أصبحت غصنا مفصولاً عن شجرته تتدلى منه ثلاثة براعم تلعب به وبهم رياح صرصر عاتية . .

زوجها المرحوم لم يترك شيئًا يعتد به من الأموال؛ ضاعت حياته هدرًا وبالمجان، حتى الفكر الذى تبناه والقضايا التى ناضل فى ملفاتها بأبحاث ودراسات ومقالات واغتراب فى المنفى أصبحت بضاعة كاسدة ومثار سخرية فى العالم العربى بعد هذه الانعطافة الحادة نحو الاقتصاد الحر أو الفوضوى بمعنى أصح، لقد بدأ العصر السعودى النشط بالهيمنة على اقتصاد الدول العربية ذات الرصيد الثقافى العريق كمصر والشام والعراق والمغرب، أحكمت السعودية سيطرتها على المؤسسات الصحفية وعلى الفضاء الأثيرى، حشدته بقنوات مختلفة الأسماء والأصحاب، تبث كلها بلسان الخطاب الدينى العتيق العجوز، خلقت سوقًا رائجة للدعاة يلغطون ليل نهار فيما سبق حكيه وقوله وتمثيله وتحفيظه طوال عشرات السنين ويتاجرون بالضعف الإنسانى تجاه الدين فيعيشون فى رغد وبلهنية وإن بقيت الشعوب مكبلة العقول والإرادة والأقدام حتى تتعفن فى أماكنها فتكسحها الجرافات الإسرائيلية الأمريكية . .

لكن صفية كانت مضطرة للبقاء فى لبنان تحت أى ظرف كان حتى يحصل الولدان على شهادة الثانوية العامة والبنت على الشهادة الإعدادية حتى لا تضطرب أحوال العيال من كل ناحية وقد يحتاجون لوقت طويل حتى يتواءموا مع المجتمع الجديد الذى سينتقلون إليه وربما لا يتواءمون فى ظل حالتهم النفسية المتردية بعد رحيل الأب . . بكل نفس ذائقة الموت قدر الله صفية على النهوض بعبء العيال؛ كانت تشتغل طوال الأربع والعشرين ساعة، تترجم كتبًا ومقالات للصحف العربية المهاجرة إلى لندن، تشتغل بالترجمة الفورية على نطاق واسع وبخاصة فى المؤتمرات السياسية الكبرى؛ فى نفس الوقت تباشر العمل كمتطوعة فى جمعية الهلال الأحمر لإسعاف وتمريض الفلسطينيين

الذين سقطوا بالآلاف فى مخيمات عين الحلوة وصبرا وشاتيلا؛ تكتب رسائل ميدانية من المواقع الملتهبة لتنشرها الصحف المحلية والعالمية، تنقل البيانات، تقوم بوساطات سرية بين المتفاوضين وقت الأزمات؛ مع ذلك لم تنج ولا أولادها نجوا من جروح غائرة أثخنتها كراهية بعض الفلسطينيين وعرب الخليج والمغرب العربى للرئيس السادات بسبب توقيعه لاتفاقية كامب ديفيد كراهية انسحبت على المصريين جميعا بل على مصر نفسها كدولة؛ أصبح المصريون يعاملون فى بقاع كثيرة من العالم العربى باعتبارهم خونة حقراء تليق بهم القسوة والإهمال والاضطهاد أحيانًا . .

التحق الولدان بالجامعة الأمريكية واحداً بعد الآخر فى بيروت فى عامين متتالين، كبيرهما فى كلية الهندسة والثانى فى كلية العلوم . . بعد ذلك بعامين لحقت بهما أختهما فى كلية الآداب قسم الأدب الفرنسى . . تولدت فى العيال طاقة من الاستنفار والتحدى انصبت فى الجد والاجتهاد صارت تفوقًا ونبوغًا، أصبح لهم من المواقف بين الطلاب ما يذكر صفية بشجاعة أبيهم واستنارته وتفانيه فى خدمة ما يقتنع به من المبادئ . . كانت صفية فخورة بعيالها وهى ترى أنشطتهم الطلابية يعبرون فيها عن ميولهم الأدبية والفنية والسياسية وترى وقع ذلك على المحيطين بهم ينعكس تقديراً وحبًا واحتراماً لعيالها الجادين فى غير تجهم أو خشونة، الأقوياء الشخصية فى غير كبر أو غطرسة، المؤمنين بمبادئهم وعقائدهم الدينية والأخلاقية والسياسية فى غير تصلب أو تشدد . . كل ذلك كان يداوى جراحها، يشعرها بأن تعبها وشقاءها قد أثمر ثماراً يانعة . . مع ذلك لم تكن فى أعماقها سعيدة أبدًا؛ يؤرقها الوجع من حرمان عيالها من مصر موطنهم الأصلى؛ وبرغم عشقها للهجة الشامية فى سوريا ولبنان والأردن وفلسطين فإنها

كانت تغتاظ من عيالها حين يتكلمونها بإتقان على الرغم من أنها حرصت دائمًا على تعليمهم كيف يتكلمون فى البيت على الأقل بالعامية المصرية وخاصة أنها مستساغة يحبها جميع العرب؛ كانت صفية فى حالة انزعاج دائم خشية أن تضمحل الروح المصرية من وجدان عيالها . .

عيالها مع ذلك وقد باتوا فى زهوة شبابهم أصبحوا فى اشتياق عارم لمصر التى يرونها فى روايات نجيب محفوظ وقصص يوسف إدريس ويحيى حقى وأشعار بيرم التونسى والمسحراتى فؤاد حداد وصلاح جاهين وعبد الرحمن الأبنودى وأغانى أحمد فؤاد نجم والشيخ إمام وفى كتب مصرية تزدحم بها حياتنا فى بيروت؛ بعضهم كان يبكى من لغز حرمانه من السفر إلى مصر التى يكاد ينسى تفاصيلها؛ حقًا إن الوطن لا بديل له على الإطلاق، حتى وإن تربى الواحد منا خارج وطنه يظل وطنه الأصلى هو الجنة الموعودة حتى وإن كان جحيما والجنة هى البلد الذى يقيم فيه . . العيال اشتاقوا لرؤية مصر بشكل أسعدها وأشقاها فى نفس الوقت من أن وطنهم المأمول قد وضعهم فى قائمة الأعداء الألداء بلا ذنب جنوه لمجرد أن أباهم كان ينتقد سياسة الرئيس السادات التى صدمته وصدمت جيلا عربيا بأكمله انسحبت الأرض فجأة من تحت أقدامهم . .

إلا أن صفية كانت قد انهد حيلها، قاربت الأربعين من عمرها المشحون المتخم بالكوارث الوطنية والشخصية على السواء، أهمدها الإحباط والسأم والجهد المغبون، هبطت طاقتها إلى أقل من خمسين فى المائة، أصبحت تدبر نفقات التعليم الباهظة بطلوع الروح فما بالك بنفقات الحياة فى بيروت فى ظل حروب واضطرابات لا تهدأ ولا تنتهى إلا لتبدأ فى صيغ جديدة . . كان أنور السادات قد رحل، أكله

الوحش الإرهابى الذى أطلق سراحه باسم الصحوة الإسلامية وتصحيح أخطاء ثورة يوليو . وكان ذلك مقدمة للتحالف السعودى المصرى بدخول الملك فيصل بن عبد العزيز شريكا فى حرب أكتوبر بالدعم والمساندة حتى وإن كان من بين نوايا أنور السادات استخدام الميلشيات الإسلامية المتطرفة فى إسكات الشيوعيين والناصريين والقوى اليسارية بوجه عام اعتقاداً منه بأنها الوحيدة المناوئة له على الساحة ، وقد تعرقل سعيه فى مخطط الحرب لاسترداد سيناء فى مقابل اتفاقية سلام مع العدو . . شيئًا فشيئا وبدأت الاتصالات بالقاهرة تتفتح على مصراعيها . . وصلت لصفية أخبار مفرحة تقول إن خالها أحد وكلاء وزارة الثقافة قد ناب عنها فى حصر الميراث الخاص بها من أمها وأبيها وأخيها الذى منعه مرض القلب من الاستمرار فى الزواج فعاش ومات أعزب بغير ولد ، وأن خالها قد اطلع بصفة شخصية استثنائية على حساب كل من أمها وأخيها فى البنك الأهلى وأنه أخطر البنك بأن صفية قادمة قريبًا لعمل الإجراءات اللازمة أما نصيب زوجها فى ميراث حميها الذى هو فى نفس الوقت زوج خالتها فعلى حد علم خالها أنه محفوظ عند إخوة زوجها وهم أبناء خالتها ولن يكون ثمة مشاكل فى التفاهم معهم وقتما تجئ مع العلم بأنها أصبحت تستطيع المجىء متى شاءت هى وعيالها . .

عندئذ شعرت صفية لأول مرة بعد عمر طويل بأن جذورها فى أرض مصر لا تزال ضاربة فى تربتها وأنها لو فكرت فى العودة حالاً ستجد حضنا دافئا يؤويها . . هاجت عواطف العيال ، قرروا الرحيل إلى مصر مهما كانت الظروف والأحوال . . كانت تخشى من تكاليف الحياة التى تسمع أنها ارتفعت فى مصر فى الآونة الأخيرة وبخاصة مصاريف التعليم وبالأخص التعليم فى جامعة أجنبية كالجامعة

الأمريكية . . إلا أن ابنها الأكبر حسم الأمر قائلاً: إن عيشة متواضعة فى الوطن الأم أريح وأكرم من عيشة رغيدة فى وطن مستعار . . وافقوه جميعًا وتحمسوا للعودة بفارغ الصبر . . بالفعل لعبت الحقيبة الدبلوماسية دورًا مشكورًا فى توصيل أوراق عيالها الثلاثة إلى خالها وكيل وزارة الثقافة فى القاهرة ليتولى تقديمه للجامعة الأمريكية فى القاهرة لاستكمال سنوات الدراسة وهى لحسن الحظ قليلة العدد، فالكبير فى البكالوريوس بكلية الهندسة، والثانى فى السنة الثالثة بكلية العلوم، أما البنت فستنتقل إلى السنة الثانية . .

شحنوا كل أمتعتهم وما كان مهمًا من كتبهم وأوراقهم وتحفهم وهدومهم، سلموا الشقة لمالكها . . وكانت أسعد لحظة فى حياتهم لحظة صعودهم إلى طائرة شركة مصر للطيران، الكراسى فى الطائرة كانت متجاورة، وصفية لاتنى تستجيب لأسئلة عيالها فتعيد وصف شقتهم التى تنتظرهم فى مصر الجديدة فى القاهرة باتساعها وكثرة غرفها التى ستتيح لكل منهم غرفة يستقل بها لأول مرة فى حياته، أسهبت فى وصف الغرف وأحجامها لدرجة أن كل واحد منهم اختار الغرفة التى سيحتلها من دون أن يراها . . الوقت كان فجرًا، أحلى فجر عاشوه فى حياتهم، شافوا صبحه الفيروزى المعرق المغبش وهم طائرون فوق سماء أرض الكنانة . . خالها كان فى انتظارهم فى مطار القاهرة ومعه سيارته وابنه الكبير ومعه سيارته هو الآخر تحسبًا لكثرة عدد الحقائب لأسرة من أربعة أفراد لكل منهم أمتعته الخاصة والكثيرة؛ وبالفعل فاضت الحقائب فوق سطحى السيارتين . . وكانت شمس الصباح القاهرى الخضراء قد بدأت تشتد حينما كانت سيارة الخال تهبط من فوق كوبرى المطار لتلتحق بشارع صلاح سالم حيث تمهل الخال إلى أن تلحق به السيارة الثانية، وعرض على صفية أن يتوجه بها إلى بيته

فى المعادى ليبعثوا بمن يقوم بمسح شقتها وتنفيض الغبار المتراكم فوق عفشها طوال السنين الماضية؛ لكن صفية وعيالها أصروا على أن يتوجهوا من فورهم إلى شقة أبيهم فى روكسى بمصر الجديدة، إنها شقة لقطة، دفع فيها زوجها خلو رجل كبيرا فى عز الرخص، تتكون من خمس غرف واسعة وصالتين كبيرتين ودورتى مياه ومطبخ عريض، فى عمارة من عمر مصر الجديدة بإيجار أصبح أقل من ثمن علبة سجائر : ستة جنيهات فى الشهر كان زوجها يواظب على إرساله فى أول كل عام لأخيه الأصغر وهو محام مشهور له مكتب ومسكن خلف هذه العمارة مباشرة، الشقة فى الطابق الأول بعد الأرضى، ولربما يحتاج تنظيفها لأسبوع كامل، وخير ما يفعله خالها أن يرسل لها غداً من يساعدونها على هذه المهمة التى لا شك تكون شاقة . .

دخلوا حى روكسى بطلوع الروح من شدة الزحام وبطء المسير وكتمة الأنفاس؛ عدد السيارات الراكنة فوق الأرصفة ومداخل الحوارى كبس على صدورهم، حاولوا تغيير السكة، لكن ذلك كان مستحيلاً، لا مفر من أن يستسلموا صاغرين للاسترخاء بأكبر قدر ممكن من التبلد، إذ إن السيارة تزحف ثلاثين مترا كل عشرين دقيقة؛ فى اللحظة التى أيقنوا فيها بأنهم تاهوا عن شكل العمارة حيث اختفت لافتات أسماء الشوارع، فوجئوا بأنهم فاتوا من أمام العمارة عدة مرات فلما سألوا أحد البوابين أشار لهم على العمارة من خلفهم؛ كانت كل معالم الحى قد تغيرت تماماً حتى العمارة طرأ على بابها وشكلها تعديل وإضافات؛ وإذن فهذه هى العمارة، وإذن فلابد أن هذه هى شقتها؛ نزلت تعاين مدخل العمارة وتراجع ذاكرتها، فعلا هى العمارة، ولكن ما هذه اللافتة الطويلة المثبتة تحت شبابيك وشرفات شقتها : (عمران للأدوات الكهربائية المعمرة) . .

عمران؟! ودارت الدنيا بصفية؛ ذلك أن زوجها المرحوم الدكتور خليل عمران عالم الاقتصاد السياسى الكبير لم يكن فى يوم من الأيام له أية علاقة بالتجارة، وإذن فلابد أن عائلته قد استغلت غيابه ثم استولت على شقة زفافها وحولتها إلى محل تجارى يحمل اسم العائلة؟ إنها إذن لكارثة..

تلبستها العفاريت؛ تحفزت فيها شخصية الفدائية المستعدة لتسديد الضربات والركلات والقفز من فوق الحواجز واقتحام الطائرات. كانت كالفراشة المندفعة نحو الضوء؛ قفزت درجات السلم؛ اقتحمت الشقة: لا شيء من آثارها، شوارها، سجاجيدها، مكتبتها، مطبخها، كل ذلك حلت محله معروضات احتشدت بها الصالة والغرف: أجهزة كمبيوتر وآلات حاسبة وثلاجات وبوتاجازات وتليفزيونات ومسجلات وفيديوهات ونجف.. تحدرت الدموع غزيرة من عينيها.. من الغرفة المحاذية للباب هب وراءها شاب لطيف لبق، هتف بها بلهجة فيها من الاستهجان والاستنكار أضعاف ما فيها من ترحيب:

ـ «أى خدمة يا مدام»؟!

ارتدت نحوه والعفاريت تتنطط على وجهها:

ـ «هذه شقتى أنا، فمن أنت وما هذا الذى فعلتموه ببيتى»؟!

جفل الشاب وارتبك وتلجلج:

ـ «آه! حضرتك مدام...».

ـ «مدام عمران! الدكتور خليل عمران رحمه الله»!

ـ «تفضلى حضرتك»!

قادها إلى حيثما كانت فى الماضى غرفة نومها، أجمل وأهدأ غرفة فى الشقة كلها؛ ها هى ذى تحولت إلى مكتب وصالة استقبال للتفاوض والبيع والشراء؛ وراء المكتب رجل ضخم الجثة يتوه وجهه كله وسط لحية عريضة طويلة كصفصافة مائلة فوق جدول جفت مياهه، فشاخت الصفصافة وتهدلت؛ بنظرة ثاقبة وبديهة سريعة استطاعت صفية أن تحلق لحية الرجل بشفرة المخيلة لترى من تحتها ملامح زوجها الراحل بحذافيرها بنفس بسمته الدبلوماسية الرقيقة التى اعتاد أن يواجهها بها لحظة غضبها، بل وترى بعض ملامحها هى، بعض دمها المشترك بينها وبين زوجها باعتبارهما أولاد خالة. . عادت دموعها تنهمر وتعقد لسانها. .

ارتفعت اللحية عن سطح المكتب قليلاً؛ انفتح فى أعلاها ثقبان انطلقت منهما نظرة فاحصة مدققة. . يا ربى، نفس نظرة زوجها السمحة الباسمة. قطع الشاب اللطيف عليه نظرته الفاحصة:

- «تقول المدام إنها صاحبة الشقة»!

هب الرجل واقفا يصيح بحرارة:

- «صفية بنت خالتى؟ يا مرحب يا مرحب بامرأة أخى»!

خرج عن المكتب يتدحرج نحوها؛ أوشك أن يعانقها لكنه ارتد متحفظًا واكتفى بالمصافحة باليد:

- «تفضلى يا امرأة أخى! اقعدى واستهدى بالله»!

جلست على حافة الكرسى؛ جلس هو قبالتها، عندئذ دخل خالها وابنه وعيالها الثلاثة:

ـ «سلام عليكم»!

قالوها أداء للواجب فحسب، يخيم على رءوسهم طائر أسود الجناحين لا يظهر منه سوى ظل جناحيه القاتم السواد يرفرف فى فضاء الغرفة. نهض الرجل، صافحهم بحرارة على إيقاع صوت صفية وهو يقدمهم له:

ـ «خالك! ابنه! ابنى! ابنى! بنتى»!

رحب الرجل بهم، احتضن العيال واحدًا واحدا فى حرارة صادقة، قبلهم فى الجبين، أشار لهم أن يجلسوا:

ـ «أنا عمكم لزم! الشيخ حامد عمران! لاتخافوا ولا تنخضوا! أمكم ليست زوجة أخى وحسب إنما هى ابنة خالتى أيضًا، يعنى لو لم تسعكم الأرض يسعكم قلبى! كل أموالى لكم يا حبايبى»!

جاءتهم علب المياه الغازية فنحوها جانبًا. قالت صفية للشيخ حامد عمران بنظرة حقد متوترة مكظومة:

ـ «أقدر أعرف إيه معنى اللى حاصل ده يا شيخ حامد؟ هل هذه هى أصول الوفاء لأخيك المرحوم وعياله الذين حرموا من وطنهم ومن أهلهم سنين طويلة؟! تطرد عفشهم من بيتهم وتعمله محلاً تجاريًا»؟!

ـ «حاشا لله! صفية! ينقطع ذراعى إن فعلت هذا!.. تتوهين عن الشيخ حامد يا ست صفية وعن مدى إيمانه بالله»؟!

ـ «أعرف أنك دفعت ربع عمرك فى السجن لم تخرج منه إلا على يد السادات الذى حرم أخاك من جنسيته ومن وطنه»!

ـ «عليه اللعنة! ليته ما أخرجنى! والله كان السجن أحب إلىّ من هذه الحرية المزعومة الكاذبة! . . ما ترينه حولك ليس ثروة وليس رواجًا! إنها بضائع شركات أجنبية تشغلنا لحسابها مع الأسف! نحن نشقى فى البيع بالتقسيط وفى التحصيل بالمحاكم والمحاضر ووجع القلب وهى تقبض فلوسها مجمدة لا تنقص مليمًا بينما نحن يأكلنا الزبائن الكحيانين! ما علينا» . .

ـ «يا شيخ حامد لا تأكلنى بهذه الأسطوانة المشروخة! نحن لسنا فى درس الوعظ بالمسجد! أنت الآن تحتل بيتى! بددت عفشى وجهاز عمرى!! فما معنى هذا»؟!

ـ «سأتجاوز عن الغمز واللمز فى كلامك من أجل خاطر المرحوم وعياله الأحباب! . . على فكرة يا حبايبى حقكم فى الحفظ والصون! وأنت أيضًا يا ست صفية عفشك كله مستف فى بيتى لم تنقص منه ملعقة واحدة! هل نقبل الحرام يا ابنة خالتى؟ تعرفين هذا عن ابن خالتك التقى الورع؟! هل نبدد مال أخينا ونهين ذكراه؟ كيف تتكلمين هكذا يا صفية»؟!

نطق ابنها الكبير فى نفاد صبر:

ـ «عدم المؤاخذة يا عمى! نريد أن نفهم نقطتين محددتين: ما معنى هذا الذى حدث فى شقتنا؟! وما معنى أن حقنا فى الحفظ والصون»؟!

ـ «اسم الله عليك يا حبيبى! ما شاء الله . . ما شاء الله! خليل عمران لم يمت! . . شوف يا ولدى! عمك خالد عمران المحامى انتبه إلى أن صاحب العمارة رفع على أبيك قضية طرد أثبت فيها

أنه مهاجر ومقيم فى لبنان بجنسية لبنانية منذ سنوات طويلة وأنه أصبح من أعداء مصر الرسميين وأن الحكومة سحبت منه الجنسية المصرية، يعنى لن يدخل مصر طول حياته، فحق لصاحب العمارة أن يسحب شقته ليزوج فيها بنته! وحصل بالفعل على حكم بالطرد وطالب بلجنة قانونية لحصر ما فى الشقة من محتويات لإخطار أحد أقارب الساكن باستلامها بمحضر رسمى! . . كل هذه الأوراق وملف القضية كله عند عمك خالد! . . لم نجد مفرا من التفاوض مع صاحب العمارة والتحايل عليه لتبقى الشقة فى حوزتنا حتى تعودوا فيكون لنا تصرف آخر، المهم ألا تضيع الشقة منا وهى خسارة فادحة! . . بالتفاوض أعطينا صاحب العمارة خمسين ألف جنيه مقابل تغيير العقد باسمى ويادار ما دخلك شر! . . وقدرنا بيننا عمك خالد وأنا فى حالة رفضكم العودة إلى مصر نعطيكم ثلاثمائة ألف جنيه كخلو رجل فى الشقة! ولكم الخيار الآن فى أن تقبضوا المبلغ أو نخلى لكم الشقة ولكن هذا سيحتاج لوجع دماغ قانونى وربما يكلفنا محاكم ونيابات فضلاً عن أنه سيأخذ وقتًا طويلاً! فليتكم تأخذونها من قصيره وتقبضون المبلغ ونشترى لكم به شقة حديثة محترمة فى حى محترم يليق بعيال خليل عمران! . . يا ولدى أنتم لحمنا ولو لم يكن لكم فلوس عندنا أعطيناكم كل ما عندنا! أفيقى يا صفية يا بنت خالتى واعرفى أن الدنيا لا تزال بخير! . . إياك أن تحملى هم أى شىء وأنا على قيد الحياة! دخلتكم علىّ الآن تساوى الدنيا كلها! . . والآن . . استعدوا للمرواح معى إلى بيتى فقد حان موعد غدائى! . . ستقيمون عندى! بيتى ما شاء الله فيلا من خمسة طوابق! لى واحد أنا والست ولكل بنت من بناتى طابق

بأكمله على شقة واحدة! . . اقعدوا فى الطابق الخامس فهو خال! . . إنه شقة ابنتى الصغرى والأخيرة وهى لم تتزوج بعد! . . من يدرى؟ لعل الله يكون قد أرسل لها العريس اللائق بها»!

جفل ابنها الكبير من هذه الغمزة المكشوفة وكان قد أُفهم مثلها من رقم الثلاثمائة ألف الذى ينتظرهم . . عاجلهم الشيخ حامد مستدركا :

ـ «وعلى فكرة! عفشكم كله محفوظ فى شقة ابنتى شيماء هذه! . . يوم واحد ويكون العيال قد نظفوها وفرشوها على سنجة عشرة ولو لم يكفها عفشكم أرسلنا لكم عفشًا جديدًا من محلاتنا أيضًا»!

وافقت صفية فى الحال؛ فإقامتها فى بيت شقيق زوجها، مع استقلالها بحياتها فى نفس الوقت، تعتبر إقامة فى بيت العائلة على كل حال، وهو أمر يحفظ لها شيئًا من كبريائها، ثم إنه أفضل على جميع الوجوه من الإقامة فى بيت خالها المزدحم . . وهكذا نقلتهم السيارة المرسيدس بحقائبهم إلى فيلا عمران فى منشأة جديدة فى مدخل الطريق الصحراوى مصر اسكندرية تحت هضبة الأهرام مباشرة، وهى منشأة جديدة بالفعل وهادئة وذات جو أرستقراطى وإن كان شكليًا فحسب . .

وجدت عفشها القديم قد أصبح أقرب إلى الروبابيكيا، مثلما توقعت تمامًا، الكتب صارت تلالاً من الورق مرمية فوق الأرفف كيفما اتفق . . حتى بعد إزالة أكوام التراب كان كل شىء بائسًا جدًا؛ وضعهم نفسه كان أشد بؤسًا بالقياس إلى البذخ الهائل فى الطوابق الأرضية من تحتهم . . اتضح أنه ليس هناك أمل فى ثلاثمائة ألف ولا حتى فى فتح

الموضوع معهم من أساسه؛ اضطرت إلى رفع صوتها فى مكتب الشيخ حامد، وفى مكتب أخيه خالد المحامى، ولا حياة لمن تنادى، كل منهما يحيلها إلى الآخر، حامد يقول لها: الأوراق مع الأستاذ، وخالد يقول لها: الفلوس مع الشيخ، وهكذا إلى ما لا نهاية. . ذهبت من يأسها إلى أحمد نبيل الهلالى المحامى الذى كان صديقًا حميمًا لزوجها، لا تنقطع بينهما الرسائل، استشارته فى الأمر؛ بعد أن استمع إليها جيداً استخلص من وسط الركام ملامح قضية خاصة بميراث عيالها فى حق أبيهم فى ثروة أبيه التى كانت هى تعرف بعض عناصرها من عقارات وتجارات ومزارع ماشية وخيول. . ما إن وصلهم الإعلان صادرا عن مكتب أحمد نبيل الهلالى حتى بادروا بالتفاوض معها. . فى حضور أحمد نبيل الهلالى وخالها والشيخ حامد عمران وخالد عمران وعمهما الحاج سالم عمران من أعيان الباجور منوفية؛ اتفقوا على دمج قضية الميراث فى قضية الشقة على أن تتقاضى صفية وعيالها مبلغ مائتى ألف جنيه حق عيالها فى الميراث وفى الشقة معًا. . فى حوار جانبى انفرد بها الهلالى ونصحها بأن هذا هو أفضل عرض وعليها أن تقبله وإلا فهى الخاسرة. . قبلته على مضض قائلة فى أسف وحسرة:

- «كل ما نابنا مبلغ لا يكفى لشراء شقة للعيال بدلا من شقتهم التى طمع فيها أهلهم! يعنى لو أنا أردت بيع هذه الشقة الآن لقبضت فيها نصف مليون على الأقل»!

علق الشيخ حامد بهدوء وهو يمشط لحيته:

- «هذا لو كنت مقيمة فيها ياست هانم»!

وهرش فى زبيبة الصلاة:

- «موضوع الشقة هذا لا تتكلمين فيه! كانت ضائعة ضائعة لا

محالة! نحن اشتريناها بعد طردكم منها بحكم المحكمة ونُشكر لأننا احتفظنا لكم بالعفش في بيتنا! . . ولا تنسى يا ست هانم أن مسألة الميراث هذه فيها نظر! . . أنت عدم المؤاخذة لا تعرفين شيئًا عن أملاكنا! ولا المرحوم نفسه كان يعرف! . . ما ترينه الآن هو من تعبنا وشقائنا! . . ما ناب كل واحد منا من ميراث أبيه لن يصل إلى ثلث هذا المبلغ الذى قبضته أنت وعيالك ولا ربع ما صرف على المرحوم أيام الدراسة فى لندن سنوات كلفتنا الجلد والسقط! إنما نحن ندفع لعيالنا سواء كان لهم حق أو لم يكن! . . على فكرة يا أولاد أخى . . إياكم أن يحتاج واحد منكم لشىء ولا يكلمنى فيه! . . ثم . . إننى أحب أن أراكم كل يوم فى المحل! تعالوا! إنه محلكم! من يبقى فيه عدة ساعات معى بعد الظهر له يومية يقبضها كأى موظف! شغلتنا شطارة وإدارة ولباقة! يعنى من يمسك زبونا ويريحه ويداديه ويغريه حتى يشترى سيقبض فوق اليومية عمولة بيع محترمة! مفهوم»؟!

وصفية تقلب الكلام فى رأسها لم تجد مفرًا من الاقتناع به وشكر الشيخ أيضًا؛ حتى ابنها الكبير وابنتها نهى راحا ينظران إلى عمهما بإكبار وانبهار وربما بإجلال؛ لقد ظهر عليهما أنهما تجاوزا عن كذبته فى أول اللقيا واعتبروها براعة فى تهدئة النفوس وامتصاص الغضب . . المذهل لها أن عيالها الثلاثة مالوا إلى عمهم الشيخ حامد بشكل ملحوظ لجاذبية ما، لعلها مسحة الصلاح والطيبة على وجهه، لعله قرب الشبه إلى حد التطابق بأبيهم، نفس طاقة الحنو، حتى اللدغة الخفيفة فى لسانه - والتى كانت تضفى على أبيهم جمالاً أخاذًا عند نطقه للغة الفرنسية بطلاقة أبنائها - كانت أوضح فى لسان عمهم الشيخ حامد؛ لعلهم أحبوه قياسًا على عمهم الأستاذ خالد الذى كان ثقيل الظل

متشنجًا بدون مبرر مفهوم، جاد المظهر والمخبر إلى حد الصلابة والتجهم المتواصل حتى وهو يجرب حظه فى المرح بإلقاء نكتة يضفى عليها وعلى نفسه سماجة غير محتملة. . كان لابد لصفية من إخلاء الطابق الخامس قبل أن يستتيم ابنها الكبير لعمه تمامًا ويقبل الزواج من صغرى بناته الآنسة شيماء وهى فتاة إن كانت تغرى من يبحث عن شقة فى فيلا وحياة رغدة بالمجان فإنها ليست تصلح لابنها على الإطلاق؛ إنها ليست فحسب بلا تعليم بعد الشهادة الابتدائية بل إنها فوق البيعة جاهلة بلهاء بمعنى الكلمة، لا تعرف عن الحياة أكثر من فنون الطبخ واللبس والأغانى والمسلسلات التليفزيونية المكرورة التافهة، كما أنها مدكوكة الجسد عبارة عن بناء لحمى صلب متراكم بغير دهون، ولأن جسمها فى أصله جميل التكوين على خريطة أنثوية صريحة، فإن كل تفصيل قد كبر على وضعه وتضخم فى اتساق وتناسب مع بقية التفاصيل، فبدا كما لو أنك تراه من منظار مكبر من قريب، فإذا أنت أمام صدر كالهضاب وخصر كالشكارة المجعدة ومؤخرة كقبة الولى ووجه ساحت حدود ملامحه على بعضها فأضفت عليه مسحة من بلاهة؛ إلا أن البنية مع ذلك تفيض بالجاذبية الجنسية، ولهذه الجاذبية وقع شديد الخطورة شاهدت تأثيره الناجع على ولديها، سيما أن البنت من بنات هذه الأيام تفهم معنى الحرية خطأ وتفهم التحضر على أنه عرى وبهرجة وانكشاف وتعامل مع الرجل بندية!! . . كانت صفية واثقة من أن الشيخ حامد على أتم استعداد لأن يبنى لهم طابقًا سادسًا فوق فيلته إذا ما تزوج ابنها الكبير من ابنته شيماء واستقلا معًا بهذه الشقة الكبيرة؛ لكنها أبدا ليست تقبل أن تبيع مستقبل ابنها بشقة مهما كانت الظروف صعبة عليها، إن ابنها الكبير نابغة فى دراسة الالكترونيات فى كلية الهندسة، وبعد عام واحد سوف يعين معيدا فى

الكلية إذا استمر تفوقه فى صعود وقد يصبح شخصية عالمية مرموقة كأبيه، فأين يذهب وكيف يعيش فى ظل زيجة كهذه لابد أن تقعد به فى الأرض؟! لا! لن تتعس ابنها أبدًا. .

كانت تدخر آخر ورقة فى مخططها: بيت أبيها فى الحلمية الذى تسلمت مفتاحه من خالها، يتكون من طابقين تحيط به حديقة فقيرة بسور نصفه بناء وأعلاه شبكة حديد مدبب؛ كان مسكونا حتى وقت قريب بعد رحيل أمها ثم أخيها منذ بضع سنين. . ذهبت إليه. . وجدت حى الحلمية قد أصبح يشغى بالناس والسيارات والورش والباعة؛ لكنها وجدت البيت كما هو، كل ما فى الأمر أن جارهم البقال ـ فى مقابل حراسته للبيت ـ قد اتخذ من الحديقة مخزنا للبراميل والصناديق والصفائح. . بالرضا وباللسان الحلو شال الرجل أشياءه. . صرفت على البيت بضعة آلاف، جددته من الداخل، دهنته من الخارج أتت بجناينى أعاد تخطيط الجنينة وتهذيبها والعناية بها؛ نقلت عفشها أضافته إلى ما كان فيه من أثاث تلتصق به شرائح من ذكريات لا يمحوها الزمن؛ لقد انتهى أبوها من بناء هذا البيت وهى على عتبات الصبا المراهق فعاشت فيه مدة قصيرة لكنها كانت من أجمل أيام عمرها. .

استقرت فى مهد ذكرياتها الجميل، جددت خط التليفون، كانت الفيلا البديعة على الناصية المواجهة ملكًا للنجمة السينمائية الشهيرة التى هربت إلى بيروت من مطاردة صلاح نصر وزبانيته ولم يقدر لصفية أن تراها فى بيروت أبدا، وكانت تعرف أن هذه الفيلا مهجورة، فإذا بها ذات ليلة تقف فى الشرفة تستروح النسمات فوجئت بأنوار الفيلا مضاءة؛ فى الصباح ذهبت إليها. . كل منهما وجدت فى الأخرى ملاذها؛ أصبحت الراقصة تقضى معظم يومها فى بيت صفية،

أصبحت سيارتها تحت تصرف صفية . . لانت الحياة ورقت جوانبها ؛ صحيح أنها فشلت فى العودة إلى عملها بوكالة أنباء الشرق الأوسط ، لكنها وجدت الكثير من العمل فى العديد من الوكالات والمكاتب الصحفية التى افتتحتها كبريات الجرائد العربية فى القاهرة ، تترجم القصص الأجنبية والموضوعات العلمية والتقارير السياسية ببراعة مشهود بها ، تكتب المقالات والعروض النقدية عن الكتب الجديدة والأفلام والظواهر العامة . . يتجمع لديها كل شهر مبلغ لا بأس به يضاف إلى الفوائد العائدة من البنك الأهلى ، يحقق لها ولعيالها حياة هنيئة كريمة ، كل ما يريدونه يجدونه والحمد لله . . ظهرت بوادر إلهية تغذى فيها الأمل فى حياة مشرقة لعيالها ؛ جاء لزيارتهم شاب أمريكى غاية فى اللطف والتواضع والثقافة والموهبة ، دكتور حديث الدكتوراه فى الأدب الإنجليزى المعاصر ؛ اتضح أنه غارق فى حب ابنتها نهى لدرجة أنه لم ينطق بالعربية سوى الكلمات التى عبر بها عن مدى حبه لنهى ؛ نهى أيضًا كانت واقعة فى غرامه بصورة تؤكد عدم رجوعها عنه بأى حال من الأحوال ؛ فليكن ؛ تقدم لخطبتها ، لا بأس ألف مبروك ، تلعثم قائلاً : إنه سوف يعود إلى بلاده أستاذًا فى جامعة فى ماساشوستس ، انبرت نهى مغطية على تلعثمه قائلة بصريح العبارة وبشكل حاسم إنها سوف تكون معه أينما كان حتى ولو فى المريخ وهذا وارد بإذن الله ؛ لا بأس أيضًا ؛ علامة الحسم أن البنت كانت قد اتخذت بمعاونته إجراءات نقل أوراقها بالفعل إلى الجامعة التى سيعين فيها ؛ البنت يا حبة عين أمها طهقانة ، صدمتها مظاهر التخلف الفظيع فى مصر برغم انتشار التكنولوجيا فى كل مكان فيها ، أولياء الأمور يتدخلون فى المناهج ويثورون من أجل عبارة بعينها مشكوك فى مدلولها وردت فى كتاب من كتب الدراسة ، النساء المحجبات يمشين

كـأبراج طينيـة سـوداء، الرجـال غـلاظ، ذئاب، الحـرمـان يفح من وجـوههم، اغـتـصـاب ونهب عـينى عـينك، زوجـات يقطعن لحم أزواجهن يعبئنها فى أكياس ترمى فى القمامة، نواب برلمانيون يسرقون مدخرات الناس من البنوك، سـماسرة ووكـلاء وقوادون ومجرمون يتبوأون الأماكن والمراكز الحساسة؛ ما كانت مصر هكذا أبدا فى يوم من الأيام، أين ذهبت مصر؟! أين الشعب المصرى الجميل الخفيف الظل الشجـاع الخجـول الحى الحنون المتحـضـر؟! قتلوه؟ يبـدو، فـالروائح الكريهـة تنبعـث من كل خطوة تخطوها صـفـيـة، الغـثـيـان يطاردها، الابتذال سيد الأخلاق، لا أمان على الإطلاق؛ ما أشد ما أصبحت وعـيالها يشـعرون به من ندم على تسـرعـهم فى العـودة إلى القـاهرة، لكأنهم أمسكوا بكرامتهم وشرفهم ونظافة أخلاقهم وسلموها طواعية على باب المطار لمن كورها ورمى بها فى القمامة، الطريقة التى يعامل بها المواطنون فى مطار القاهرة دون مستوى البهائم والمواشى، يعنى إلى أن ينتهى المواطن من إجراءات خروجه من المطار يكون قد انسحقت إنسانيته؛ لها حق إذن هذه البنت نهى فى أن تتعجل الرحيل بأى شكل إنقاذا لما يمكن إنقاذه من كرامتها التى تهدر كل لحظة فى هذا البلد لمجرد أنك لم تعجب الآخر الغليظ، لمجرد أنك لم تستجب لأطماعه فيك، لمجرد أن فيك بقايا أخلاق . . بقايا عزة نفس . . بقايا ضمير . . بقايا أى شىء لم يعد فيه منه أى ظل؛ لقد صدقت ابنتها نهى حين قالت لها إن المواطن هنا لم يعد إنسانًا، بل أصبح مجرد كائن كل هدفه فى الحياة أن يبقى حيا يستمتع بأى شىء تافه حتى وإن سرقه أو اغتصبه، هنا كما تقول نهى وهى تتصفح جرائد مصر : إن لم تأخذ حقك بيدك عنوة واستقدارًا فلا حقوق لك ولابد أن تنزل إلى سابع أرض طالما أنك ليس من ورائك ولا من قدامك ولا فى يدك سلطة تحميك، فما دمت وحيدًا

بغير سلطة وما دمت تريد أن تعيش بكرامتك فى مجتمع لم يعد يعترف بالكرامة، فلتكن جباراً عصيا بقوة الإجرام أو تنفذ بجلدك أو فلتمت كمدا وقهراً . . ومن هذه القناعة وافقت صفية ابنتها على الرحيل بهذه السرعة . .

كل الأمور سارت على ما يرام، احتفلت بالعروسين، رفض عمها الشيخ حامد حضور عقد القران إلا بعد أن أسلم العريس على يديه ونطق بالشهادتين باللغة العربية الفصحى، وقام عمها خالد بتوثيق عقد الزواج فى كل جهة مطلوب وثاقتها و . . بالسلامة يا نهى والقلب داعى لك . .

النجمة السينمائية المعتزلة بسيارتها الجديدة أدخلا البهجة على قلب صفية؛ وجدت فى النجمة رفيقًا مؤنسا حقًا، وفى السيارة أداة تشهيل لعملها . . لم ينغص بالها سوى شىء واحد لم يكن يبعث على الاطمئنان أبدًا: التصاق الولدين بعمهما الشيخ حامد عمران التصاقا كاملاً يوشك أن يكون التحامًا وتمازجًا . . بات القلق يتزايد كل يوم بازدياد لهفة الولدين على الذهاب إلى روكسى؛ أصبحا يخرجان من الجامعة إلى روكسى مباشرة، أكلهما وشربهما فى المحل، لا يعودان إلا آخر الليل حيث يتسلل كل منهما إلى غرفته فيمكث راقداً حتى الصباح لا يلتقيانها إلا على مائدة الفطور للحظات خاطفة، ليس ثمة من فرصة لتبادل الحوار، إن سألتهما عن أحوال الدراسة يقولان إنهما يعتمدان على حسن استيعاب المحاضرات العملية ويراجعان فى فترات الركود فى المحل وكلاما من هذا القبيل . . لكأن الشيخ حامد عمران اغتصبهما من صفية وضمهما إلى ملكيته الخاصة، يغدق عليهما الأموال بغير حساب ـ فيما يقول ابنها الكبير ـ إشباعًا لحاجة فى نفسه ناتجة عن

حرمانه من خلفة الصبيان فاعتبرهما ولديه ويحلو له دائمًا أن يجعل من ابنها الكبير نائبًا عنه فى إدارة المحل فى غيبته، وفى صرف شيكات واستلام بضائع وما إلى ذلك؛ ومن الواضح أن فكرة عقد قران ابنها على ابنته شيماء عششت فى دماغه حتى اعتبرها واقعًا منتهيًا وأصبح الولد على علاقة فعلية بالبنت ليس ينقصها سوى الخلوة الجنسية .

ياللكارثة! سقط الولدان معا فى هذا العام، أول عام دراسى لهما فى مصر وهذا ما لم يحدث لهما من قبل أبدًا . . وقد سمعت منهما أعذارًا كثيرة كادت تقنعها بنفى التقصير من جانبيهما وتلقى بمسئولية الرسوب على تأخر ولديها فى التواؤم مع الوسط الجديد الذى انتقلا إليه فكانا كالغرباء؛ وحقيقة الأمر أنها كانت تريد أن تقتنع بأية حجة حتى لا يرتفع ضغط دمها . .

ما كادت صفية تستوعب أبعاد الرسوب عامًا دراسيًا سوف يكلفها أعباءً مادية ونفسية حتى دهمتها أكبر مصيبة لم تكن لتخطر لها على بال مطلقًا، هى اليسارية الفكر زوجة اليسارى الكبير : ولدها الكبير ـ واسمه خالد على اسم عمه ـ بدأ يرسل لحيته، يقرأ الكتب الدينية الصفراء بتركيز وإمعان تعقبه حالة من الشرود تشبه الذهول الكامل مصبوغًا بمسحة من الكآبة السوداء، راح يعلن اشمئزازه من كل ما ومن حوله، يعترض على كل شيء : التليفزيون والسينما والمسرح والأغانى والتماثيل والتصوير والأعمال الدرامية والملابس والوظائف ومرتبات الحكومة وعلم الجامعات بل وعلى أمه نفسها فكرا وسلوكًا ولبسًا وسفورًا، يطالبها بالتوبة . . أيقنت المسكينة أن الولد قد جن، وقع فريسة للجماعات الإسلامية الإرهابية المتطرفة، مسحت عقله تمامًا . . كانت صفية تعلم أن إعدام قادة جماعة التكفير والهجرة لم يقض على

الخلايا الإرهابية التى تتخذ من الإسلام عباءة تستر أغراضها السياسية فى الوصول إلى أريكة السلطنة بالقوة؛ ولكنها لم تكن تتوقع مطلقًا أن مثل هذه العقول الخربة الجاهلة يمكن أن تطول فلذة كبدها بله أن تضرب عقله فى مقتل وهو الذى تربى فى وسط عقلانى متوازن بين العلم والإيمان بأجلى معانيه القرآنية؛ ولكن ها هو ذا قد بات يرفض العقل نفسه من أساسه، لا يعترف بكل ما أنجزه العقل البشرى من تقدم، إن هذا إلا كفر فى كفر والعياذ بالله فى نظره! . . كيف كان ذلك ياربى؟ أفى الجامعة الأمريكية التقى الزبانية؟ إنها لتستبعد ذلك فالجامعة الأمريكية على حد علمها مجتمع عقلانى صرف. . فمتى وكيف حدث هذا لابنها من وراء ظهرها؟! . .

لم تهدأ صفية، جعلته شغلتها، كفت عن العمل الذى ترتزق منه أصبحت تنتقل وراءه فى كل مكان يذهب إليه، ترصده، تكثر من زيارة المحل تمكث فيه بالساعات، تحتمل ثرثرة الشيخ حامد ووصفه لما طرأ على الحياة من فسق وفساد وكفر وكيف أن الله على وشك أن يشعل النار فى هذا البلد، لعل أهله يتعظون ويتقون الله فى حكم الناس وأرزاقهم وضمائرهم. . إلخ إلخ. . كل شخص يلتقيه ابنها تسعى للتعرف عليه وتجميع التحريات عنه بأشكال ذكية، هدفها من ذلك أن تتعرف على مفرداتهم ومفاتيحهم، لعلها تجد فيها معابر للتحاور مع ابنها بشكل عقلانى تراجعه فى أفكاره الجديدة هذه، بعد فض غلافها الدينى الزائف. . كل ذلك وابنها ماض كالإعصار الكاسح فى لقاءات وقراءات ومكالمات تليفونية غامضة مريبة، غير عابئ بأمه أو بأى عرف أو قانون، محض مجنون تم تسييحه وصبه فى قالب فكرة لا يعرف غيرها لا يرى لا يسمع دونها. . علمت صفية أن محل عمه كان هو البؤرة النارية التى انصهرت فيها روحه البريئة ونفسه الطيبة، فى

المحل التقى هذه النوعيات من أصحاب اللحى المضروبين بعشرات الأمراض الاجتماعية والصدمات النفسية الحادة . .

المسكينة راحت تتخبط فى كل اتجاه لكى تسترد ابنها، مجرد أن تسترده فحسب، فليجلس فى البيت يتعبد كيفما شاء لا كلية ولا علم ولا وجع دماغ، المهم أن يعود إلى حضنها ويعقل ويشوف نفسه كيف أصبح غولاً كثيف الشعر متخلفًا كمجاذيب الموالد كالمتسولين . . ولكن ماذا تفعل إنسانة مثلها أمام ثور جامح ذى قرنين مدببين يطوحهما بشكل عشوائى فى بطن كل من يقترب منه؟! . . لم تعد تعرف أين يبيت ليله وكيف يقضى نهاره؛ لكنها فوجئت ذات فجر أسود بقبضة الشرطة الثقيلة تدق بابها؛ ما كادت تفتح وهى بالروب دى شامبر حتى دفعوها إلى الوراء كالعصبجية واقتحموا البيت وانتشروا فى كل بقعة فيه؛ فتشوا جميع الغرف والأركان قلبوا عاليها واطيها بهدلوا البيت آخر بهدلة، أخذوا ما وجدوه من كتب فى غرفة ابنها، طلبوا بطاقتها الشخصية، نظروا فيها أعادوها إليها ثم انصرفوا من غير إحم ولا دستور؛ تركوها تتقلى فوق ألسنة من اللهب؛ فى الصباح وهى واضعة خدها على يدها من إرهاق القلق فى نفس قعدتها على كرسى الأنتريه منذ أن غادرتها صديقتها النجمة المعتزلة فى منتصف الليل، رأت صحيفة الأهرام تزحف على الأرض داخلة من تحت الباب؛ وقعت عينها أول ما وقعت على صورة لوجه ابنها خالد ضمن صف من الصور لعدد من الملتحين تطل من أعينهم جميعا حتى ابنها بوارق شر مخيف لشدة ما تشى به ملامحهم من برود . . جرت نظراتها الذاهلة التائهة فوق سطور تحتل مربعًا كبيراً فى الصفحة الأولى، مانشتات فى كل سطر : قبضت مباحث أمن الدولة على مجموعة من الإرهابيين أثناء شروعهم فى تنفيذ عملية إرهابية لاغتيال رئيس الوزراء ومن معه

وكانت الحكومة تترصد أخبار القائمين بهذه العملية إلا أن المجموعة المنفذة أدركت ذلك فى آخر لحظة فراحت تطلق الرصاص بشكل عشوائى يمكنها من الهرب فطاردتهم فرق الشرطة وتبادلوا إطلاق النار بكثافة فسقط منهم ثلاثة قتلى ومن الشرطة ضابط وأصيب جنديان إصابة بالغة ويجرى الآن تطويق فلولهم فى عشوائيات حى الزاوية الحمراء . . إلخ إلخ . .

سقطت الجريدة من بين يديها وقلبها ينتفض ؛ لم تجد وقتًا للصراخ والبكاء ولطم الخدود ؛ سرقتها السكين ؛ دخلت فى دوامة من مكاتب المحامين إلى أقسام الشرطة إلى أوردى أبى زعبل ثم أوردى الواحات . . شهور طويلة وهى تنزل من بيتها مع نزول ضوء الشمس فلا ترجع إليه إلا فى وقت متأخر من الليل كالخرقة البالية من فرط ما لفت وقابلت وتكلمت وشرحت وبكت ودفعت . . وفى النهاية لا فائدة ؛ طسته المحكمة عشر سنوات أشغالاً شاقة . . انتظمت حياة صفية على إيقاع جديد ؛ دخل فيها موعد أسبوعى لزيارة ابنها فى الأوردى ومعها ماتقدر عليه من أشياء تفيده تغذيه تدفئه تسليه تطبب جراحاته من الأشغال الشاقة وما أشق ما حكم به عليها فى الواقع . . آخر ما أسفرت عنه محاوراتها المتكررة معه عبر الزيارات الخاطفة أنه اقتنع باستئناف الدراسة فأخذت على عاتقها أن تكون همزة الوصل بينه وبين كل جديد يطرأ على محاضرات الفرقة الدراسية التى ينتمى إليها ، تواليه بالكتب والمذكرات وها هوذا يستعد لدخول الامتحان من سجنه . .

ولكن . . يا إله السموات والأرض . . آه ثم آه ثم آه . . ما هذا الذى يحدث لها فى وطنها مصر ؟! أهو اختبار إلهى كما يقول العامة

والخاصة على السواء من المصريين عند الكوارث؟ عفوك اللهم فإنه لأقسى من أن يحتمله كائن مثلها! . .

كانت صفية قد عميت من وقع الكارثة التى لحقت بها جراء فساد عقل وضياع ابنها الكبير قرة عينها وفلذة كبدها خالد؛ لكأن الكارثة التى منيت بها من حيث لا تدرى قد ألقت بظلها الكثيف على حياتها كلها، فلم تعد تلحظ الكثير مما يجرى حولها . .

ما كادت تتمكن من ترويض وحش الحزن القاتل حتى خطفت عينيها ملاحظة عابرة كانت كالزلزال دوخها وهزها من الأعماق جعلها تفيق من غفوتها وغفلتها . . يومها كانت جالسة فى الأنتريه مع صديقتها الوحيدة إلى الهزيع الأخير من الليل حينما سمعت عكرشة فى كالون باب الشقة يسهل على من يسمعها تصور أن وراء الباب من يحاول إدخال المفتاح فى ثقب الكالون، لكنه لا يتمكن بل ويتهاوى على الباب؛ تعمدت هى أن تبقى فى مكانها منتظرة؛ أخيرًا دار المفتاح فى الكالون وانفتح الباب، فإذا بابنها الثانى بقامته المديدة يدخل متطوحًا كعود من القش؛ كان مجرد شبح تبرق فيه عينان شرستان برغم انكسارهما؛ قال: مساء الخير مضغومة معجونة مضحكة إلا أنها شرخت قلب أمه كأنها سكين البقال تخرط فى قرص الجبن . . عندئذ شهقت وصديقتها فى نفس واحد من فرط الارتياع من منظره المهان . . هبت واقفة كنمرة مسعورة؛ أطبقت بيديها على كتفيه والشرر يتدفق من عينيها الكليلتين بفعل البكاء المتواصل؛ قربت أنفها من شفتيه، تشممت، لا أثر لرائحة الخمر، وإذن فإنه المخدر، لا يمتص دمه ويذهب لبه ويفعل فيه كل هذا الهوان سوى المخدرات . . ليلتذاك بقيت ساهرة طوال بقية الليل بجانب سريره وهو متمدد كالقتيل، إنها

الغيبوبة، يهذى، أحيانًا كأنه يخطب بكلام متآكل متداخل غير مفهوم، أحيانًا أخرى يقهقه يتفوه بألفاظ إذا اكتملت تكون شديدة القبح لم يلفظها طوال حياته من قبل، يسب الدين بلهجة المغالاة فى المرح والمزاح، ثم ما يلبث حتى يخمد كأنه مات، تميل عليه باكية لتسمع ترددات التنفس فى صدره لتتأكد أنه لم يمت بعد، يبقى هامداً هكذا لوقت يقصر أو يطول ثم يعاود الهلوسة غائبًا عن الوعى تمامًا . .

قال طبيب المصحة الخصوصية فى حلوان إن ولدها مدمن مخدرات، يشم الهيروين . . نهار أسود ومنيل بستين نيلة! . . ابنى! يشم هيروين؟! منذ متى يا دكتور هل تستطيع التحديد؟ . . واضح يا مدام أنه منذ فترة طويلة لأنه تمكن منه واصلا إلى نخاع المخ مباشرة، مدمن بكل معنى الكلمة ومن حسن حظه وحظك وحظ كل من يعرفونه أنه يجد الجرعة بسهولة وقتما يطلبها وإلا كان الدمار قد لحق بكم من جميع النواحى، من التفريط فى أعز الممتلكات وأغلاها إلى السرقة إلى ممارسة العنف الذى قد يصل إلى حد القتل بمنتهى البساطة والتبلد لأنه غير مسئول عما يفعل . . فى ذهولها فكرت صفية : من أين تأتيه الجرعة بحق الله؟! . . لم يطل تساؤلها، سرعان ما أدركت أن محل عمه الشيخ حامد عمران ملتقى لصنوف من البشر كما أن عمه يعطيه يومية إضافية إلى ما يأخذه منها من مصروف أسبوعى يجده صباح السبت من كل أسبوع موضوعًا فوق الكومودينو عندما يصحو من النوم . .

تركت ابنها فى المصحة وعادت تتدبر نفقات العلاج الداخلى وهى أبهظ من أسعار فنادق الخمس نجوم، ولسوف تطول الأيام كما يؤكد الطبيب . . فكت إحدى الودائع لتسد بها احتياجات المصحة العاجلة

وهو مبلغ يستحيل عليها جمعه فى أيام أو أسابيع دونما استدانة . . غير أن انشغالها بالكدح وزيارة ابنها الكبير فى سجنه كل أسبوع وعيادة ابنها الثانى بين ليلة وأخرى فى مصحة حلوان، كل ذلك لم يمنعها من البحث عن أصل السبب فى دمار ابنها الثانى ؛ لتجد أنه كما توقعت بالضبط : عمه الشيخ حامد عمران على علاقة وثيقة بمجموعة من أصحابه من كبار التجار مضروبين بالهيروين ولا يتورعون عن استدعاء تجار الصنف إلى محل الشيخ حامد ليعرضوا عليهم البضاعة ويختبروها ويقسموها على بعضهم تحت بصر ابنها دونما حرج ؛ وقد انجذب ابنها إلى المشهد الطريف ذات ليلة وهم يحاولون اختبار الصنف بطرق غشيمة لا تفلح فى معرفة إن كان هذا هيروين أصلى فعلاً أم أنه مجرد مسحوق أبيض وملون قليلاً مثل السكر الكوبى؟ . . ابنها طالب متفوق فى كلية العلوم، كيميائى ؛ انتبه إلى هذه الخناقة المتكررة بينهم وبين البائع وتشكك فى أن البائع يستغفلهم، فأخذ يدبر حتى أنشأ فى مطبخ الشقة معملاً بدائيًا صغيرًا لكنه ناجع فى تحليل المادة واكتشاف هويتها ؛ دخل عليهم بخبرته العلمية المعملية فانبهروا به جدًا، صاروا بعد ذلك لا يدفعون مليمًا فى الصنف إلا إذا حلله ابنها فى معمله الصغير وأقره ؛ وكثيرًا ما كشف عن غش فظيع ترتب عليه استبعاد تجار واستقطاب غيرهم أمناء، وما أن عرف التجار الجدد بأمر معمل التحليل حتى التزموا جانب الأمانة وضاعفوا السعر من أجلها ؛ طباخ السم يذوقه كما يقول المثل، صار ابنها يجرب، صار يحصل على نصيبه فى التقسيم بالمجان، صار التجار أنفسهم يستعينون به فى تحليل عينات من صفقات كبيرة قبل أن يدفعوا ثمنها ؛ أدمن الولد وخاصة أنه كان يشم أجود الأصناف الخالية من شوائب الغش يعنى كان الهيروين الصافى يعطيه حالة من البهجة والنشاط والمتعة الحسية لعدة ساعات ثم

تضمحل تاركة إياه جسداً خامداً غير صالح لأى شىء. . عرفت صفية كل هذه المعلومات بصبر وتصميم ولولا حاستها الصحفية النشطة وروحها المغامرة ما احتملت آلام المعلومات إذ تراها مطبقة مشخصة فى أعز الناس عندها . .

أفئن كانت صفية بطلة من بطلات المآسى الإغريقية أكان من الممكن أن تتحالف عليها ضربات القدر ولطماته العنيفة المتتالية على هذا النحو لمجرد أن بؤرة الدراما كانت بدأت منذ لحظة وضع قدميها على أرض الوطن بعد غيبة طوال سنوات الشباب أنفقتها عاملة بإخلاص فى خدمة أحلام الوطن؟! . فلا هى طالت أحلامها الشخصية ولا بقى ثمة من وطن؟ . .

تلك كانت خواطرها يوم قبضت من مكتب جريدة الشرق الأوسط مبلغًا يقارب الألف جنيه لقاء ترجمتها لبضع مقالات من كتاب للكاتب الفرنسى روجيه جارودى، فاشترت بعض التفاح والشيكولاته وركبت سيارة صديقتها متجهة إلى مصحة حلوان لتعود ابنها وتفرفشه . . اتخذت طريقها إلى غرفته المطلة على جناح الياسمين من حديقة المصحة . . فتحت الباب . . لم تجد ابنها . . نادت عليه، بحثت فى دورة المياه، تهيجت أعصابها، ركبها الجنون . . قال مدير المستشفى إن جماعة من أقاربه جاءوا وطلبوا الإذن بتمشيته فى الخلاء قليلاً ليزيل عن نفسه الملل وينشط الدورة الدموية، فسمح لهم الطبيب بذلك خاصة أن المريض كان موافقًا . . عاودها الجنون، هرعت إلى الخلاء تتعقب آثاره، قال لها الخفير إن سيارة مرسيدس سوداء كانت تنتظره فركبها ومضى من أذان العصر ولم يعد إلى الآن! . .

نزلت التعيسة تجرى إلى روكسى . . فوجئت بأن عمه لا علم له بما

حدث، بدا عليه الانشغال والغضب والتوتر بصورة أقنعتها أنه ليس وراء خطف ابنها، نصحها بإبلاغ الشرطة فى الحال. . وقد فعلت. . تفتت صبرها بكثرة المحاضر التى راحت تكتبها فى مختلف أقسام الشرطة. . اقتحمت مديرية الأمن قابلت سيادة اللواء بصفتها الصحفية وعند اللقاء أضافت صفتها كابنة للحكمدار فلان وأخت للواء فلان مدير العلاقات العامة لوزارة الداخلية قبل رحيله. . قابلها مدير الأمن بحفاوة واهتمام شديدين، كلف جميع وحدات المباحث ـ أمام عينيهاـ بتكثيف البحث عن ابنها وبضرورة إبلاغه بالمتابعة أولاً بأول، ثم قال لها: اطمئنى يا صفية هانم، فاطمأنت، اقتنعت بجديته، أيقنت بأنه سيعثر على الولد فى ساعات وربما أيام قليلة. .

لكن الأيام طالت وتمددت. . لم تكن هى تملك إلا أن تتابع تحركات المباحث، تلتقى كل بضعة أيام واحدًا أو أكثر من ضباط من مختلف أقسام الشرطة ومديريات الأمن فى كل من القاهرة والجيزة والقليوبية أيضًا. . أصبح بينها وبينهم جميعًا خطوط مفتوحة على الدوام، تتلقى كل يوم تقارير مختلفة ومتضاربة عن تحريات دارت فى المنطقة الفلانية والمنطقة العلانية، وبين طائفة كذا وطائفة كيت. . شعرت بنفسها تتشابه مع مستر موريس لبلان مفتش البوليس فى روايات الجيب التى أدمنت قراءتها فى مرحلة الصبا؛ وكانت بالفعل تجد الكثير من اللذة فى استدعاء حيل وألاعيب ذلك المفتش الذى كان يتفنن حقًا فى ابتداع طرق تؤدى لاكتشاف الجانى فى الجرائم المعقدة. .

شهور ثلاثة وهى تنفق من لحم الحى، تدفع لكل من يبلغها خبرًا عن ابنها ولو كان كاذبًا. . أكلها المخبرون وصدعها المياسون وأقض مضجعها الضباط المتذئبون والمتطرفون والحواة الناعمون تختبئ فى

أعطافهم وحوش تشتاق للنهش والولوغ فى الدماء. . إلا أنها استفادت من كل ذلك فى نهاية الأمر؛ من فرط اهتمامها بكل ما تسمع وترى وتقرأ حتى وهى تشعر أن كل ذلك كذب وتلفيق ومهيصة وبيع كلام رخيص. . كانت تعصر ذهنها فى الليل وحدها تستجمع كل هذه التقارير، هذه الأقاويل، هذه المرئيات، هذه الصدمات، تستخلص من كل ذلك معلومات وشواهد تروح تفرزها فى ضوء العقل والمنطق والتجربة وتفاصيل الواقع المصرى الراهن؛ وبعد رحلة طويلة مضنية مع المقابلات التى فاقت الحصر والأماكن التى ترددت عليها لاستكشاف حقيقة ما سمعت عنه من أخبار عن فئات وطوائف من المدمنين تستجلى معلومات حقيقية عنها تتعرف على نماذج منها عن قرب. .

بعد كل هذا. . اهتدت صفية إلى المكان الذى يمكن أن يتواجد فيه ابنها سواء كان مخطوفًا أو مقهورًا أو بمزاجه. .

وهكذا قررت صفية أن تأخذ حقها بيدها، بذراعها، أن تقوم بالواجب الوطنى الذى أنشئت من أجله الحكومة والشرطة: أن تقوم بنفسها بالبحث عن مأوى ابنها الغائب أو مثواه الأخير. . لقد صممت على أن تعثر عليه حيًا أو ميتًا. . لم تتورع أن تفعل ذلك فى العلن، وهل تسرق؟! إنها تقوم بأنبل عمل يمكن أن تقوم به الأم فى أى وطن من الأوطان: البحث عن ابنها الذى اختطفته أيد مجهولة لتخفى أثره تمامًا فى ظل شرطة تملأ الدنيا ضجيجًا وتحتشد احتشاد الحرب أمام نقابة من النقابات المهنية أو حول بضعة صبية يريدون التظاهر لسبب أو لآخر من ألوف الأسباب الداعية للتظاهر والغضب. . بل إنها تقوم بإبلاغ الشرطة أولاً بأول عن نتائج خطتها فى البحث والتنقيب؛ وهى تعرف

أن الشرطة تحيط وجودها بتحريات كثيرة حتى تتأكد من أنها مجرد أم تبحث عن ولدها التائه لا أزيد ولا أقل؛ لهذا تركوها تفعل ما تريد أن تفعل طالما أنه لا يشكل عدوانا على أمن أحد. . وما أنجح ما فعلت: استوطنت المنطقة التي تأكد لها أن ابنها يعيش في رحابها منذ عام مضى، لقد تفرغت لتكون قريبة من محيط حركته لعلها تراه؛ تراقب الذين تتشكك في ضلوعهم في اختفاء ابنها، بفضل الله حددتهم، بدأت في فرزهم واحداً بعد الآخر؛ وإنها لتشعر أن رحلة الضني توشك أن تفوز بالنجاح، وأنها الآن تقترب بالفعل من ابنها، تكاد تشم رائحته وتسمع تنفسه في بقعة ما، خلف واحد من هذه الجدران.

٢٦
المفاجأة

فى البداية أطربتنى قصة مدام هند سليمان؛ بعض الصفحات داعبت غرورى ككاتب يلمح تأثيرات أسلوبه فى كاتب جديد يقرأ له أول مرة؛ ولكننى ما لبثت حتى تبينت أن ذلك فى حقيقة الأمر ليس تأثرًا؛ فلقد تأكد لى عبر السطور أن هند سليمان إنما ترمى إلى تقليدى عمدًا وبوضوح كنوع من تخصيص الخطاب وتحميمه، لكأنها فى أعماقها تريد بهذه القصة أن تخاطبنى وحدى، تهدف إلى توصيل رسالة معينة، ولكى تضمن وصولها إلىّ جيدا وعلى النحو الذى ترجوه استخدمت بعض مفرداتى، بعض تحليلاتى الاجتماعية، بعض وجهات نظرى واتجاهاتى فى الكتابة نحو العالم ما تحت السفلى.

إلا أننى لم أجد مفرا من تأجيل التفكير فى هذه القصة التى أشعر بأنها تغرينى بقراءتها مرة ثانية؛ ثم إن السهرة بدأت ساخنة بمجىء الحاج حسين الوراق ملهوفًا على التحشيش؛ كان رائق المزاج سعيدًا والأسطى حسين قشطة ينظر له فى غبطة، ذلك أن حالة تشبه الهياج الجنسى كانت تعترى الحاج حسين الوراق إذ راح يجض ويتوجع بحركات مسرحية يقصد بها أن الشوق قد برح به، وها هوذا يعترف الآن على ملأ منا بأنه لم يكن متزوجًا على الإطلاق بل لم يعرف المرأة ـ المرأة بحق وحقيق ـ إلا فى هذه المرأة بنت الكلب التى لامسها اليوم

لأول مرة بعد طول تدلل، آه ياجدعان، من له بمن يضعه وإياها على سرير واحد فى غرفة مغلقة؛ لن يكون ثالثهما الشيطان أبدا بل ملاك نازل من السماء يضم اللحم على اللحم بعد طول اشتياق ويازين صلى.

نظر لى الأسطى حسين قشطة نظرة ذات معنى فسألته:

- «وقع الحاج حسين للمرة الثانية وما وجد من يسمى عليه»؟!

صاح الأسطى حسين فى زهو وشهامة:

- «محسوبك يا باشا! سميت عليه واشتلته ومسحت له هدومه وتعيش وتاخد غيرها يا حاج»!

- «حصل إيه يا اسطى حسين»؟

قال الأسطى حسين قشطة إن مدام هند كانت مارة من أمام الورشة فالتقت الحاج حسين وجها لوجه كحائط الصد. . يوه!. . مساء الخير يا حاج حسين. . صاحبنا سمع اسمه على محطة الموسيقى فى شفتيها ساح، مد ذراعه كله ليصافح، فمدت يدها بفتور وأعطته أطراف أصابعها فقبض عليها بيديه الاثنتين وهات ياهز كأنه يسلم على محمد على كلاى. . الست تخلصت من يديه بلطافة؛ ونزل هو فى أسطوانة كلام كانت معبأة فى صدره، وهى تتململ تريد المشى وهو يواصل الكلام، ويستدير معها حين استدارت ويمشى بجوارها حين مشت وهات يا كلام، والست تنظر لى من بعيد من فوق كتفيه نظرات استغاثة تقول حوش عنى صاحبك وبالفعل أنجدتها فسحبته بصنعة لطافة وعدت به إلى الورشة. . ماذا كنت تقول لها يا حاج حسبن؟ حواديت؟ أغانى؟. .

انفشخ حنك الحاج حسين، هبطت لحيته السنية لأسفل وحرك رأسه كأنه يهرش به صدره؛ أخيرًا قال:

- «أصلى شفتها من كم يوم خارجة من محل أدوات كهربائية بتاع واحد صاحبى فى روكسى اسمه الشيخ حامد عمران، يمكن سمعتوا عنه من إعلانات التليفزيون: عمران عمران جهز بيتك من عمران!.. تشككت أن تكون هى! تحرجت أن أسأل عنها فى المحل!.. فلما شفتها اليوم بعد صلاة العصر سألتها إن كانت هى أم لا ؟ قالت إنها ليست تعرف هذا المحل، وليس لها أى أقارب فى مصر الجديدة كلها!.. بينى وبينك أنا أريد أن أكلمها والسلام! من يوم ما شفتها نفسى أكلمها! و.. ما هذا يا جدع؟ الولية رجعتنى إلى زمن الشباب! تصدق بالله ياسى الأستاذ كأننى لم أقابل فى حياتى حريمًا من قبل»!

صفقنا له فى حركة تشجيع قادها الأسطى حسين قشطة، كانت بهدف السخرية لكننى شعرت بالإشفاق على الحاج حسين الوراق الذى لم يكن يمزح، بل كان جادا تماما وصادقًا فى حالة الشبق الواضحة عليه كمراهق يعانى من كبت جنسى حاد.. إلا أننى ما لبثت حتى أشفقت على الجميع، ثم تطور الإشفاق إلى سخط عليهم وعلى الواقع المصرى برمته..

انصرفت تلك الليلة وأنا مشغول جدًا بالعلاقة.. التى تبدو وثيقة جدًا.. بين هند سليمان وبطلة قصتها صفية. أويت إلى فراشى تلك الليلة بأعصاب مضطربة، يتسلط عليها شبح صفية البائسة التى عادت إلى وطنها فى طلب العزة والكرامة والأمان وحق المواطنة، فإذا بالوطن يجردها من كل شىء كأنها وقعت بين أيدى المغول والتتر!..

في العاشرة من صباح الغد كنت أتصفح الجرائد بنظرات طائرة فوق المانشتات والعناوين الكبيرة كعادتي قبل النزول مباشرة . . دهمني صوت رنين الهاتف؛ رفعت السماعة متوقعًا أنها مكالمة لزوجي الواقفة الآن في المطبخ تجهز لي فنجان القهوة:

ـ «ألو . . مرحبا»!

ـ «صباح الخير يا أستاذ متأسفة لأني فاجأتك»!

ـ «أهلا يا مدام هند! لا داعي للأسف»!

ـ «أخذت رقم تليفونك من الجرنان»!

ـ «لعله خير! أأمري»!

ـ «خير بإذن الله! لا تقلق»!

ـ «على فكرة! أنا قرأت قصتك بالأمس و . . . ».

ـ «دع القصص الآن! الواقع أهم»!

ـ «أنا تحت أمرك»!

ـ «ماذا وراءك الآن»!

ـ «لا يهمك ما ورائي! ماذا وراءك أنت»؟!

ـ «هل يحق لي أن أطمع الآن في رؤيتك حالاً»؟!

ـ «يحق لك طبعًا»!

ـ «يشرفني أن أكون في انتظارك في جروبي! من فضلك تعال فورًا»!

ـ «وهو كذلك»!

شربت القهوة واقفًا ؛ نزلت في الحال متجنبا التفكير في أية احتمالات درءًا للقلق والسرحان حتى يتسنى لي أن أقود السيارة بأعصاب مسترخية . .

كانت في انتظاري كقرص الشمس في مدخل حديقة جروبي . خفق قلبي بعنف خفقانًا لذيذًا جدًا : بدت مشرقة كأنها على موعد مع حبيب القلب فعلاً ؛ جاهدت لكي أصادر الضحك ، إذ خيل لي أنني صرت على وشك أن أنضم إلى قافلة عشاقها الذين أصبحوا تقريبًا على مشارف الجنون . قالت وفي صوتها دفء لم أتذوق مثله في حياتي من أنثى :

ـ «أشعر أنك أحببتني كأختك وإني لسعيدة بحبك»!

لهجتها كانت أشبه بختم النسر منح عبارتها شرعية الواقع ، فكأن أخوتي لها قد انطبعت محفورة في شعورينا لا يمكن محوها . .

ـ «طبعًا يا مدام هند . . أنت بالفعل أخت عزيزة وأنا شديد الأسف على أني لم أعرفك من قبل؟ أنت من أشرف المواطنين في مصر التائهة منا اليوم! وقد شرفت أخيرًا بمعرفة الكثير من المعلومات المهمة عنك من خلال الدكتورة سعدية بنت عمتي زوجة الدكتور مشهور! وأخيرًا من قصتك البديعة فنيًا والمؤلمة موضوعيًا ، فليس يكتب قصة كهذه إلا إنسان موهوب ومثقف ووطني»!

احتوتني عيناها الواسعتان النفاذتان ؛ فوجدتني أتهادى بين شواطئ العينين ، كلما رسوت على أمَق دفعني الموج السماوي الرائق إلى السباحة النشوانة . قالت كأنها تحضن قلبي :

ـ «دعنى أفسر لك أمرًا مهمًا: كنت واثقة من الأول أنك لست تعرفنى، بينما أنا أعرفك حق المعرفة من أواسط الستينيات إلى اليوم والتقيتك عدة مرات خاطفة فى ندوة نجيب محفوظ بكازينو أوبرا وبمقهى ريش! زملاء كثيرون من أصدقائك أصدقائى ودائمو الحديث عن تجربتك الأدبية مقرونة بتجربتك الحياتية ثم إن الدكتورة سعدية والدكتور مشهور حدثانى عنك كثيرًا» . . !!

ـ « . . كل هذا وأنا غافل عن هذا الجمال المروع»؟!

ـ « . . وكنت واثقة أيضا أنك سوف تعرفنى عاجلاً أو آجلا! وأن مسألة سكناى فى القرافة هذه سوف تشغلك وتثير فى ذهنك الكثير من اللبس وربما الاحتمالات السيئة! . . ولكن . . كان من المستحيل أن أشرح لك الأمر! كنت سأفسد الخطة لو فعلت! بل إنى حمدت الله على أنك لم تتعرف علىّ! . . أما الآن فإنى أريد أن أطلعك على حقيقة الأمر»!

ـ «أرجوك! إنى لفى شغف»!

ـ «أحب أن يكون ذلك على الطبيعة! عمليا! هل تسمح لى»؟

واخترقتنى سهام عينيها المركزتين فى عينى قلت:

ـ «تصرفى كما تشائين»!

ـ « العفو! كل ما فى الأمر أنى . . وأنا أختك التى أحبتك حقًا واكتشفتك فعلاً . . أطمع أن ترافقنى فى مشوارين بسيطين باعتبارك أخى حارسى ومرشدى وولى أمرى! . . توافق على هذه الخدمة لأختك»؟

ـ «أوافق طبعًا بدون تردد»!

ـ «تسمح لأختك أن تشترط على أخيها الكبير شرطًا»؟!

ـ «سمحت لك»!

ـ «أن لا تسألنى عن أى شىء من الآن! كل ما عليك أن تطمئن كل الاطمئنان إلى أن أختك محترمة وتعرف من أنت وما قدرك وقيمتك، يعنى من المستحيل أن تضرك أو تضعك فى مأزق حرج أو تسبب لك أى منغصات أو طرطشات تسىء إليك من قريب أو بعيد! . . ثق يا أخى الحبيب الغالى بأنك معى الآن فى يد أمينة تحرص عليك أكثر من أى مخلوق على الأرض! . . توافق»؟!

ـ «أنا أصبحت ضعيفًا أمام أى طلب تطلبينه بعد أن فهمت شخصيتك واطمأننت إلى شرفها»!

ـ «دمت لى! لن أنسى لك هذا الجميل أبدًا! هيا بنا إذن»؟

لأول مرة تضع ذراعها تحت إبطى بلهجة ذات معنى، ليس باعتبارى فتاها أو عشيقها بل باعتبارى صرت من الآن عهدة فى أمانتها؛ لكنى مع ذلك شعرت بنشوة عصية على الوصف. عند نقابة الصحفيين توقفنا أمام سيارتى المركونة أمامها على الرصيف المحاذى للكنيسة؛ فوجئت بكثيرين من زملائى الصحفيين يسلمون عليها فى ود وحرارة ويسألونها عن أحوالها ومتى عادت إلى البلاد، حتى خيل لى أننى كنت الوحيد الذى لا يعرف مدام هند سليمان، فشعرت بكثير من الغيظ من غفلتى وانقطاع صلتى بالأوساط منذ أن بدأت تجربة انتجاع القرافة. قالت هند فى بساطة:

ـ «هات المفتاح من فضلك»!

ـ «ماذا؟ ستقودين أنت»؟!

ـ «إن سمحت لى! أنا المسئولة عنك من الآن كما اتفقنا! هات المفتاح»!

فتحت وجلست أمام عجلة القيادة وفتحت لى الباب المجاور لها:

ـ «اركب يا حبيبى»!

قائدة ماهرة جدا، لا غرو فقد ساقت على جبال لبنان وفى أشد المنحنيات خطورة؛ تسوق بسلامة واتزان.. اتجهت إلى باب الخلق.. اقتربت من مبنى مديرية الأمن، دخلت من بوابتها مبرزة بطاقتها الصحفية قائلة: إنها على موعد مع سيادة مدير الأمن..

لم يكن ثمة من موعد كما همست لى فى الطرقة المؤدية إلى مكتبه، إلا أنها طلبت من مدير المكتب إبلاغ سيادته بمجيئها لأمر عاجل..

وقف الرجل فى استقبالنا باحترام وتبجيل، صافح مدام هند بمودة ذات مظهر عائلى مستساغ، ثم صافحنى بحرارة ورجولة؛ فلما قدمتنى إليه صاح:

ـ «طبعًا! نار على علم»!

شكرته أنا فى خجل وارتباك ثم جلست على الفوتيه الجلدى القريب منه. قالت هند سليمان وهى تشير له بيدها نحوى:

ـ «عفوا سيادة اللواء! أنا بعد إذن سعادتك طبعًا يا باشا أردت أن يكون الأستاذ أدهم فتحى شاهدًا علىّ أمامكم إذا ما اتضح لكم أنى كاذبة فيما سأقوله»!

لعب الفأر فى عبى بقوة؛ بدأت أنتبه وأتحفز لملاقاة مجهول قد يورطنى فيما لا أحبه ولا أرضاه؛ صممت بينى وبين نفسى أن ألتزم جانب الأمانة والصدق على طول الخط . .

مال نحوها مدير الأمن بابتسامة شاحبة واجفة :

ـ «تحت أمرك يا مدام هند! ماذا عندك»؟

مالت هى الأخرى نحوه مسلطة عينيها فى عينيه بثبات وقوة وثقة :

ـ «أنا . . عرفت مكان أيمن»!!

انتفض الرجل هاتفًا من أعماقه :

ـ «عرفت مكان أيمن»؟!

أيمن؟؟ . . لكأن زلزالاً ضرب المبنى كله فتهاوى فوق رأسى محدثا دويًا كانفجار القنبلة . . أيمن ؟؟ أيمن . . آه . . نعم أيمن . . ذلك الولد الذى اقتحمنا البوليس فى تعريشة الدهل بحثا عنه . . أوقف مدير الأمن استرسال خواطرى هاتفًا فى هند بلهجة من يضعها أمام مسئولية جسيمة :

ـ «أنت متأكدة يا مدام هند أنك عرفت مكان أيمن»؟!

فى ثقة كررت هند سليمان إشارتها نحوى :

ـ «وجئت لكم بشاهد من علية القوم ليشهد لكم وليس لى . . يعنى إذا اتضح أننى تقدمت ببلاغ كاذب يزعج السلطات، فإن هذا الأستاذ الكبير المحترم يكون شاهدًا لصالحكم على كذبتى إن عاقبتمونى بتهمة البلاغ الكاذب»!!

- «ولكن يا مدام هند! . . تعرفين أن جميع وحدات المباحث غربلت البلد كلها فلم تعثر عليه»!

- «ولكنى غربلتها وحدى من ورائهم! هم غربلوها بالمنخل السلك الواسع الثقوب، أما أنا فغربلتها بالمنخل الحرير! وتوج الله تعبى وعذابى بالنجاح»!

- «تعرفين أيضًا أننا لابد أن نستصدر إذنا من النيابة قبل أن نتحرك! فإن تحركنا ولم نجد شيئًا فماذا يكون موقفى»؟!

- «يكون لك الحق أن تفضحنى فى البلد وتنفضوا أيديكم نهائيًا من هذا الموضوع»!

- «كيف بنيت ثقتك هذه»؟!

- «بنفسى تتبعت السجان فى عز الليل حتى وصلت إلى المكان واختبأت ليلة كاملة حوله حتى سمعت صوته فى الداخل وسمعت من يناديه باسمه وإنى طبعًا خبيرة بصوته وبلدغة الراء فى صوته وصوت أبيه وصوت عمه»!

- «وهو كذلك! وأنا سأصدقك»!

ضغط على زر، صاح فى طلب شخص بعينه؛ مالبث حتى جاء، صورته مألوفة لى فى أخبار صفحات الحوادث، تذكرت أنه رئيس مباحث القاهرة عيسى النواوى؛ عاجله مدير الأمن:

- «أخيرًا سنقفل ملف أيمن! . . مدام هند ستقودكم إلى حيث يوجد الآن! . . بسرعة خذ مدام هند والحق بالنيابة»!

خرجت مدام هند مع رئيس المباحث. بعد برهة استأذن مدير الأمن

وخرج. بقيت وحدى فى الغرفة أطبش فى خواطر وأفكار متضاربة، أحاول ربط أشياء بأقوال بمشاهدات، لعلنى أفهم هذا الذى يجرى أمامى وقد صرت طرفًا فيه دون أن أدرى؛ حقيقة الأمر ـ كما يلوح لى ـ أننى أكاد أكون قد تماثلت للفهم تمامًا؛ إلا أننى من فرط الاستهوال أكاد أرفض الفهم أو أؤجله عن عمد حتى لا أفقد لذة صدمات المفاجأة بما قد يخامرنى من توقعات..

مضى مايقرب من ثلاثة أرباع الساعة وأنا مسترخ فى الفوتيه شاعراً بأنى ربما أكون قد تورطت بالفعل فى موقف شديد السخف. أخيراً دخلوا؛ مدير الأمن ورئيس مباحث القاهرة ومدام هند سليمان. صافحنى مدير الأمن:

ـ «تفضل معهم! رجلك على رجلهم»!

تفضلت معهم فى صمت حذر؛ فى الساحة فى حرم المديرية، كانت عربة الشرطة على أهبة الاستعداد، يركبها عدد من العسكر بالملابس الرسمية ويقودها ضابط بملابس مدنية يجاوره أمين شرطة، ومن ورائها عربتان ملاكى القاهرة فيهما رجال بثياب مدنية. قال لهم رئيس المباحث:

ـ «ورائى»!

واتجه وراء مدام هند نحو سيارتى. ركبت مدام هند أمام عجلة القيادة ورجتنى أن أقعد على الكنبة الخلفية. ركب رئيس المباحث بجوارها فى ثيابه المدنية؛ جاء أفندىان وركبا بجوارى على الكنبة الخلفية. مضت بنا السيارة.

٢٧
الصاعقة

من مديرية الأمن إلى شارع الأزهر فصلاح سالم. من تحت كوبرى الفردوس خرمت السيارة يمينا إلى طريق الأوتوستراد، ومن ورائها السيارتان الملاكى تتبعانها، وفى الخلفية البعيدة تتلكأ سيارة الشرطة الصريحة محتفظة بمسافة طويلة بينها وبيننا نفيًا للصلة والارتباط. حودت سيارتنا يمينًا، اخترقت الجبل الأحمر وراء مستشفى المقاولين العرب؛ مضت مسافة طويلة فى قلب المقطم إلى ما خلف منشية ناصر من فوق، خلال مدرجات صخرية على الجانبين كان من الممكن أن تقام فوقها مدينة فخمة تصلح ضاحية أو منتجعا سياحيًا بدلاً من هذه العشش والكهوف والأكواخ والمبانى العشوائية الجرباء الغارقة فى بؤس وقبح لا يتصورهما عقل..

خلف حدود كل هذه العشوائيات السكنية بمسافة طويلة، وعند كهف صخرى جميل فى شكله مخيف فى وضعه تمهلت السيارة ثم ركنت، دعتنا مدام هند سليمان للنزول. مشينا وراءها داخل الكهف الصخرى العريض الذى يتسع لمرور سيارة شحن كبيرة لو لم يكن مسدودًا فى المواجهة بجدار صخرى مبنى بكتل من نفس صخور الجبل تبدو من بعيد كأنها مجرد شقوق شبكية فى عظم الجبل نفسه؛ شيطان

عبقرى من شياطين الجن المصرى احتل الجانب الأيمن للكهف، وبعبقرية هندسية فطرية تحشيشية صنع هذا التمويه بكهف وهو لم يكن فى الأصل كهفًا؛ فبعد أن عايناه عن قرب وبإمعان استطعت أن أتخيل صورته الأولى: كان الجبل يمد فى الفضاء لسانًا صخريًا عريضًا جدا طوله عدة أمتار وعرضه كذلك، أما سمكه فيبدأ عند اتصاله بالجبل بما يشبه الإبط العريض المقوس ممتدًا بسمك يزيد ارتفاعه على متر ونصف المتر غير أن ارتفاع سمكه يتضاءل شيئًا فشيئًا إلى أن يصل ارتفاع السمك فى طرف اللسان إلى ما يوازى طول مسطرة واقفة؛ ومن تحته فراغ واسع جدًا، بحيث يبدو للقادم من بعيد كأنه سقف تندة ضخم؛ فجاء هذا العبقرى الشيطانى واقتطع من الفراغ الواسع مساحة بعرض لسان الجبل، وبحجارة من الجبل أقام جدارين متقاطعين بزاوية قائمة فصار الفراغ بيتا ولسان الجبل سقفًا، وقد خدمه الموقع بوجود عدة صخور متناثرة وواقفة كنخل مقصوص الرأس قام هو بملء الفراغات بينها بجدر سميكة وإن كان عرض بعضها لا يزيد على متر، فصنع بذلك مدخلا حلزونيا يخيف من لا يعرفه جيدًا لأنه كلما التف حول صخرة ليعبرها واجهته صخرة أخرى ترغمه على تغيير اتجاهه أو الارتداد إلى حيث أتى؛ وفى الغالب فإن المنظر المخيف لهذا القطيع من الصخور الواقفة المتقاطعة المتنافرة التى التحمت ببعضها لحامات قد لا تلحظها النظرة العابرة سوف ترهب من يراه فيبتعد عنه، أما إن غامر وتسلل بينها فسوف يجد بعد التعب بابا حديديا ثقيلاً قصير القامة، فإذا صعدت أحد المدرجات الصخرية البعيدة قليلاً وجدت منحدرًا يقودك إلى الجدار الخلفى لهذا البيت المموه بشكل الكهف، فإن نزلت كما فعل رئيس المباحث وأنا من ورائه لدراسة الموقع من جميع الجهات قبل البدء

فى اقتحامه وجدت فضاء كبيراً مليئا بالمرتفعات والمنخفضات ووجدت مساحة كبيرة جدًا من أرض ممهدة تشى بأن هناك من قام بإنشاء طريق سالك يلتف حول الكهف ويتسع لعديد من السيارات للركن وللكسكسة بل وإقامة السرادقات، هنا تجلت العبقرية الشيطانية حيث جعلت هذا الجدار الخلفى كأنه امتداد للسان الجبل على الأرض، إذ إن الكتل الحجرية التحمت فى بعضها وترهلت فوق بعضها وتركت فى أعلاه عدة دوائر صغيرة كعيون أبراج الحمام كان من الواضح أنها نوافذ للتهوية ولضوء الشمس..

أحاط العسكر والضباط بالكهف، حاصروه جيدًا، تطوع أمين شرطة شرير بتفريغ عجلة من كل سيارة من السيارات المرسيدس الفخمة الراكنة خلف الكهف حتى إذا ما اضطر أحدهم للتسلل إلى هنا للهرب بسيارته فوجئ بأنها لا تصلح للسير!..

تقدم رئيس المباحث، سبقه إلى المدخل الحلزونى أحد مساعديه ومن ورائه ضابط ثم أمينا شرطة ثم رئيس المباحث فهند سليمان فأنا. دفع الضابط الباب فوجده مغلقًا، فطرقه بقبضة يده، فرنت الأصداء فى الداخل منداحة مكتومة مرتجة..

وورب الباب قليلاً، أطل من خلله وجه كوجه القط البلدى الصايع، سرعان ما اتضح لى أنه وجه أسعد الدهل، فسقط قلبى فى قدمى وأنا أسمعه يردد فى ارتياع مأساوى مدمدم:

ـ «يا حوسة سوده! بقى أول مرة آجى هنا تهجموا علينا؟! منك لله يا ابن بياعة الترمس»!

دفع الضابط الباب بعنف لصق الدهل فى الحائط، ثم اقتحم

داخلا، أمسك بالدهل فكتف يديه من خلف ظهره ثم ألقى به إلى العسكر فكتموا أنفاسه وهم يسحبونه إلى بعيد وهو من فرط العماء الذاهل لم يلحظ وجودى، فراح قلبى يتقطع من ورائه. غاص الضابط فى الداخل؛ فاقتحم وراءه ضابطان آخران فى يد كل منهما مسدس مشهر؛ ثم دخل رئيس المباحث، ثم دخلت هند سليمان ممسكة بساعدى كأم تخشى على ابنها من مكروه..

ثمة حجرة فى الأعماق بعد هذه الردهة الطويلة؛ دفع الضابط بابها بقدمه ودخل شاهراً مسدسه ومن ورائه جهاز المباحث كله دفعة واحدة. كل شيء فى الحجرة كان واضحًا: صابر حمؤه والحاج حسين الوراق وملتح آخر حدست من شكله ومن وصفه فى قصة صفية أن يكون هو ابن الخالة وشقيق الزوج الشيخ حامد عمران. كانوا متربعين على شلت فوق الأرض، حولهم عدة شاى وعدة التحشيش، فى الوسط طبلية عليها ميزان من موازين الجواهرجية، وبضعة أكياس من البودرة؛ صابر حمؤه يغترف من الكيس الكبير بملعقة شاى ويضع فوق الميزان، الحاج حسين الوراق يعبئ الجرامات الموزونة فى أكياس صغيرة يبرمها ويطويها ويلصقها بورق السلوتيب الشفاف ويكومها فى حجره..

شهقة مدوية أطلقوها ثم تجمدوا من فرط الذهول حيث فوجئوا كأنهم فى الشارع على الملأ. كانت هند سليمان تكاد تتهاوى من الاضطراب والدوار. حدثها الشيخ بنظرة تفيض بالأسف والمذلة:

ـ «تعمليها فىّ يا هند وأنا ابن خالتك وشقيق زوجك»؟!

لطمت هند خدها فى غيظ وأسف وضجر:

ـ «والله ما أعرف أنك هنا! ورحمة المرحوم ما دار بفكرى مجرد أن

يكون لك صلة بهذا المكان وهذه الناس! صدقنى إن حظى أسود من حظك الآن مائة مرة»!

وحاولت تجفيف دموعها فلم تفلح، جعل صابر حمؤه يحدجنى بنظرات تقطر سماً وحقداً:

- «الأستاذ بيشتغل معاكم واحنا ما نعرفش»؟!

قال رئيس المباحث للضباط:

- «لموهم بطبليتهم بحالهم كده»!

وانتبه إلى وجود ممر، دخله مستطلعًا، سحبت مدام هند ومشينا وراءه بلهفة وشغف وتحفز. . الممر طويل كالسرداب، لعله سرداب، سرعان ما تبين لنا أنه ممر يفضى إلى سرداب فى بطن الجبل، طول الممر هو تقريبًا طول الردهة، فكأننا رجعناها ولكن من خلف الحجرة، كانت الأرض من تحتنا تنحدر شيئًا فشيئًا. أقبل نحونا شعاع ضوء شاحب مليء بذرات الغبار مصحوب بصوت وشيش، اتسعت رقعة الضوء فوق الأرض، إنها مغارة أشد مهابة ورهبة من مغارة على بابا، صار الضوء مثل بركة عريضة من مياه آسنة مصفرة، ظهر فى الركن البعيد هيكل مرصوص من الأرض إلى السقف بالجماجم البشرية تتأرجح فوقها خيمة من ظلال ضوء الكلوب المعلق فى جنزير فى السقف؛ يوجد أكثر من هون نحاسى تدق فيه فتافيت الجماجم، وأكثر من منضدة عليها قطع من الرخام النظيف وبرامات أسطوانية نحاسية ثقيلة رجحنا أن تكون لطحن الجماجم وتنعيمها؛ يوجد فى ركن بعيد منضدة كبيرة كترابيزات السفرة عليها

أدوات معملية بدائية كالمجهر وأنابيب الاختبار ووابور سبرتو وتلال من علب البرشام كالريتالين والسرباتونيل والترامادول والكود استين والنوفا سى، وكلها أدوية مدرجة فى جدول المخدرات فى الصيدليات، ممنوع بيعها إلا بوثيقة طبية تثبت ضرورة احتياج المريض إليها لكن المريض لا يجدها لا بالروشته ولا بالضالين لأن نسبة كبيرة من الصيادلة يبيعونها سراً فى السوق السوداء بثمنها مضروبًا فى ألف. . كانت الجماجم البشرية المرصوصة تفشخ أسنانها وتفتح فراغ عينيها الأسود كأنها تمزح معنا ساخرة منا ومن الدنيا الدنية برمتها. . حينما اقتربنا من المنضدة الكبيرة رأينا فى جنبها ـ متواريا لا يكاد يلحظ ـ شبحًا كخيال المآتة منهمكا فى خلط مواد كيماوية ببعضها من عشرات الأنابيب المتناثرة على سطح المنضدة بين كراتين البرشام. كان الشبح فاقدًا للإحساس تمامًا بكل ما ومن حوله كأنه لا يرى، لا يسمع، لا يتكلم بل حتى لا يشعر بظلالنا الكثيفة ونحن نقترب منه. ثم. . حدث الانفجار. . هند سليمان تفجرت بمعنى الكلمة وهى ترتمى فوق الشبح تحتضنه صارخة:

ـ «ابنى! أيمن حبيبى! كده يا أيمن تعمل فى روحك وفى أمك كده؟ ليه يا حبيبى»؟!

خنقتها العبرات إذ تشير للضابط بدموعها:

ـ «شفت الإجرام؟ استغلوا الولد لأنه فى كلية العلوم ومتفوق فى دراسة تخليق الكيماويات»!

كاد الولد يموت فى حضنها وهى قابضة عليه بذراعيها فى قوة، راح يتنفس بصعوبة. قال رئيس المباحث للضباط الذين دخلوا:

ـ «حرزوا كل هذا! يلا يا مدام هند»!

خلصت الولد منها، أمسكته بيد وأمسكتها بالأخرى؛ عندما رجعنا إلى الحجرة كانوا وقوفًا مربوطين فى الكلبشات، فإذا بالشيخ حامد عمران يشهق فى فزع:

ـ «أيمن؟؟ كان هنا؟؟ كيف»؟؟

وجه نظراته النارية إلى صابر حمؤة ثم بصق فى وجهه، فشهق وهو يمسح البصقة صائحًا فى دهشة:

ـ «أيمن! . . ابن هند سليمان؟! يا خبر اسود؟! وشهق الحاج حسين الوراق»:

ـ «مدام هند سليمان . . بنت خالتك يا شيخ حامد»؟!

قال رئيس المباحث ساخرًا:

ـ «يستحسن أن تتعرفوا على بعضكم جيدًا فى المديرية»!

أمرهم بالسير؛ مشوا فى ذلة وانكسار؛ شحنهم بكل أحرازهم فى البوكس فورد الخاص بالشرطة، قام بتعيين حراسة مشددة قوية على المكان إلى أن تجيء النيابة لمعاينته والاطلاع على عدد الجماجم وكراتين البرشام؛ قال:

ـ «حتقدرى تسوقى يا مدام هند»؟

ـ «هه»؟!

ـ «حاسوق أنا»!

ركب، أدار المحرك، ركب أحد الضباط بجواره، على الكنبة الخلفية ارتمت هند سليمان حاضنة ابنها تحت إبطها، بدنها كله يرتعش بعنف مع أن وجهها كان مضاء بابتسامة مزهوة بالظفر وإن كانت شاحبة؛ وقد انتقلت رعشة جسدها إلى جسد ابنها أيمن ثم إلى جسدى. مضت السيارة تتمايل وتئن وتصوصو من سوء الطريق؛ وكنت عندئذ قد بدأت أشعر بما قد ينتظرنى من جراء هذه الشهادة من متاعب؛ لكننى لم أكن أشعر بأى ندم على الإطلاق.

تمت

المعادى الجديدة ـ شارع النصر

فى صباح الأربعاء ٢١/ ١٢/ ٢٠٠٥

كنت جالسا فى صدارة الحجرة فوق الكنبة الأسيوطى وقد أنيط بى إمضاء الحجارة من عديد من قطع الحشيش ألقى بها المعلمون أمامى فى طبق فنجان القهوة...كنت منذ برهة طويلة لا أزال مأخوذا بالغناء الذى استمعنا إليه منذ قليل من شريط نادر سجلت عليه. من أسطوانة قديمة جدا. مواويل للمغنى البلدى عبده الدمرداش الذائع الصيت فى أواسط القرن العشرين: كان صاحب مقهى فى كفر الطماعين بحى الجمالية، لا يغنى إلا فيها. تمتلىء بعتاة الساهرين من كل المستويات لشعبيته الكاسحة آنذاك. يرتجل التأليف والتلحين فى إتقان أصولى مذهل: وربما لا يعرف الكثيرون أن جميع المواويل التى غناها محمد عبد الوهاب هى من تأليف وتلحين عبده الدمرداش حققت ذيوعا كبيرا: أما الموال الذى استمعنا إليه منذ قليل فكان تحفة فنية بمعنى الكلمة، عبارة عن مجموعة من عناوين سور قرآنية كريمة قام الفنان
مهارة فذة. فى عنقود شعرى على ميزان الموال يتغزل به فى
الله صلى الله عليه وسلم.


6 221102 018814

دار الشروق

الغلاف للفنان وليد طاهر